النهج القويم

في

تاريخ شعوب الشرق القديم

لاستعمال المدارس

تعريب

القس افرام حنين الديراني

احد مدبري الرهبنة الحلبية اللبنانية المارونيه

طبع في بيروت في المطبعة الادبية سنه ١٩٠٣

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الاوّل عبرةً للآخر وقيّض له من آثاره مرآة يجلو فيها الابصار ويجيل البصائر . فيستفيد بما كان منها ما يكون . ويردد ما توالت الايام حمد من ارسل القديم والحديث بين كاف ونون . اما بعد فيقول الفقير الى رحمة مولاه الراجي عفوه ورضاه القس افرام حنين الديراني احد مدبري الرهبنة الحلبية اللبنانية المارونية انني لما رايت طلاّب الادب من مواطني في حاجة الى تاريخ قديم مسرود على نهج قويم يغنيهم عن المطولات ويكفيهم مؤونة البحث والتنقيب في ما لا بدّ لهم من الوقوف عليه ولا ندحة لهم عن الرجوع اليه من آثار الاولين وسير المتقدمين من الشعوب الشرقية جامع بين سهولة التعبير وصحة الرواية رأيت ان ازجو

الركائب الى تحقيق الرغائب فادركت ضالتي المنشودة وبغيتي المقصودة في الوقوف على هذا التاريخ الذي عربته فاتيتهم به تحفة فيها زبدة ما يبتغون من القديم اثره وقصارى ما يطلبون من الصحيح خبره وقد جمعت اقسامه وفصوله مع التزام الايجاز نهاية السؤل فجاء تاريخاً ليس بالمطول الى حدّ الملل ولا بالمختصر المقصّر عن بلوغ الامل وسميته النهج القويم في تاريخ شعوب الشرق القديم · وهو يتضمن ما تجب معرفته عن احوال الشعوب الشرقية القديمة من الخليقة حتى اخرام الفينيقيين وضمّ واضعه اليه فصلاً في ما جهره القدماء من جهات المعمور وقد كان معروفاً منه عندهم ولم يقتصر في الرواية على اثبات الحوادث وتحديد التخوم بل عُني في ذكر لمع من عوائد العبرانيين والمصريين والاسوريين والبابليين والماديين والفرس والفينيقيين واخلاقهم وشأنهم في التمدن والعلوم والآداب والزراعة

والصناعة وشأو كل امة منها معتمداً في ذلك على المؤرخين الذين وضعوا كتبهم بعد البحث والتنقيب عن الآثار في مواضعها والحوادث في مراجعها ولا ابتغي في ما عرّبت واتحفت الا خدمة مواطني الكرام وتلبية دعوة نفس تحدثني في الجد بما يرضيهم بعد رضاه تعالى

الفصل الاول

في العالم والانسان حتى الطوفان

ملخص

تكوين العالم — تكوين الانسان — آدم واولاده

ذرية آدم — الطوفان

١ — في تكوين العالم

كان الله منذ الازل وكان العالم عمل قدرته ومحبته ·
كيف صدر العالم من يدي خالقه ذلك ما سيعلمنا اياه الكتاب المقدس بلغةٍ جمعت بين البساطة والفخامة

« في البدء خلق الله السماوات والارض · وكانت الارض خالية خاوية والظلام يغشاها · فقال الله ليكن نور فكان نور · وكان ذلك عمله في اليوم الاول

« وقال الله ايضاً : ليكن جلد وليكن فاصلاً بين

مياهٍ ومياه فكان جلد · وسمى الله الجلد سماءً · وكان ذلك عملهُ في اليوم الثاني

« وقال الله ايضاً : لتجتمع المياه التي تغطي الارض الى مكان واحد فاجتمعت اتوءلِف بحاراً

ولما خصبت الارض أمر الله العشب الاخضر ان يبزر والاشجار ان تظهر كل واحدة بزرها فيها لتبزر بحسب صنفها · وكان ذلك عمله في اليوم الثالث

« وقال الله ايضاً : لتكن نيّرات لتفصل بين النهار والليل وتكون مميّزة للايام والفصول والسنين · وصنع الله الشمس والقمر والنجوم وكان ذلك عمله في اليوم الرابع

« وقال الله ايضاً : لتفضِ المياه زحّافاتٍ ذات انفس حيّة وطيوراً تملاء البحار والجو والارض · وهكذا خلقت الاسماك المتحركة في جوف المياه والطيور الطائرة في الجوّ والحيوانات الدابّة على الارض · وكان ذلك

عمله في اليوم الخامس

ان الله خلق العالم في خمسة ايام وقد اتفق العلماء اليوم على ان ايام الخليقة كانت تعادل عدة سنوات فالخمسة الايام كانت اذاً مئات او الوف من السنين بحيث يتعذر تحديد تاريخ تكوين العالم

ب – تكوين الانسان

كان المسكن قد تهيأً : وتهيأً للانسان ان يظهر فكوّنَ في اليوم السادس . ويلوح لنا ان الله قد فكر في نفسه قبل ان يخلق الانسان : اذ قال « لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا » ثم تناولت يداه الالهيتان طيناً وهيأته تمثالاً ولكن لم يكن ذا حركةٍ ونفسٍ حيّة . فألقى على وجههِ نسمةً سريّة قوّية فأكسبتهُ مع حياة الجسد حياة النفس العاقلة الخالدة التي بها يمتاز من سائر المخلوقات ويتسلط عليها . وكان مقرّه عدن جنّة فسيحة تسقيها

اربعة انهر عظيمة وقد اشتملت على ما كان حسن المنظر طيب المأكل

ومع ذلك قال الله «لا يحسن ان يكون الانسان وحده» فاوقع على آدم سباتاً فنام وبينا كان نائماً استل احدى اضلاعه وصنع منها المرأة

وكان آدم وحوّاء بارين سعيدين غير ان الشيطان حملهما حسداً منه على عصيان الله · ولما زال غرورهما بعد ارتكاب المعصية حتما الله حاكماً عليهما بحياة كدّ وعذاب تختتم بالموت البلاء العظيم · وقضي عليهما بالخروج من الفردوس الارضي: فسدَّ في وجههما باب عدن وتولى حراسته ملاك في يده سيف ناري

اين كان موقع الفردوس الارضي اي جنة عدن · انه يتعذّر الجواب صراحة عن هذا السوال ومع ذلك قد رجح العلماء الحديثون الذين عنوا بالبحث عن هذه القضية انه كان واقعاً في ما بين النهرين

وقد تقدم منا القول انه من المجازفة تحديد تاريخ تكوين العالم ومن التهور تحديد تكوين الانسان ويمكن الرجوع به الى نحو عام ٨٠٠٠

ج — آدم واولاده

كان قايين بكر اولاد آدم وحواء وهابيل الثاني وكان هابيل راعياً وقايين عاملاً في الارض . فانكر الله تقدمة قايين وقبل تقدمة هابيل فاوغر قايين صدره حقداً على اخيه ودعاه الى الصحراء فقتله . وللحال سمع صوت الرب قائلاً له : « قايين ماذا فعلت باخيك ؟ ان الدم الذي ارقته يصرخ طالباً الانتقام : ستكون ملعوناً تائهاً شارداً . » ومع ذلك حظَّر الله قتل قايين . ولما شق على قايين مرأى الاماكن التي شهدت بجنايته انهزم الى شرقي جنة عدن حيث بنى مدينة سماها اخنوخ باسم بكره

وعزّى الله آدم عن فقد هابيل فرزقه شيتاً الذي استحق نسلهُ النقي ان يسمى اسماً جميلاً وهو اولاد الله

فكانت كل ايام آدم التي عاشها تسع مئة سنة وثلاثين سنة ومات . وكان قد رزق اولاداً كثيرين قبل وفاة هابيل لان قايين قال لله : « ليقتلني كل من وجدني » فلو لم تكن الجهات المجاورة عامرة بالسكان لما كان لهذا القول شرح او معنى

د — ذريّة آدم

يتوضح لنا بعد وفاة آدم ان البشر قد ذهبوا فريقين الفريق الواحد من نسل شيت والفريق الاخر من نسل قايين والاول كان يدعى اولاد الله والثاني اولاد البشر . واشهر مواليد شيت انوش الذي امتدح الكتاب المقدس من تقواه واخنوخ الذي خطف من العالم بعد ان عاش في خوف الرب ثلث مئة وخمساً وستين سنة

ومتوشالح الذي كان اطولهم عمراً اذ عاش تسع مئة سنة وتسعاً وستين سنة ومات ولامك الذي رزق نوحاً وهذا رزق ثلثة بنين لم تزل اسماؤهم مشهورة وهم سام وحام ويافث

حياة البشر الاولى

تكاثر الجنس البشري بسرعة عجيبة : وقد دلتنا اكتشافات علم طبقات الارض على انتشار البشر قبل الطوفان في قسم فسيح من القارة القديمة . وليس في ذلك موضع للعجب لطول الحياة البشرية وكثرة المواليد وقد قال الكتاب المقدس في كلامه عن الاحبار ان كل واحد منهم « رزق بنين وبنات »

وكانت القبائل التي تحيزت في ضواحي مهد الانسانية تحافظ على التمدن المادي اما القبائل التي انتشرت بعيداً فقد تهورت شيئاً فشيئاً في الشقاء القريب من

الهمجية وكانت تسير على مثل سيرة الهمج في الوقت الحاضر لا تعرف شيئاً من الفنون ولا سلاح لها ولا ماعون الاَّ ما تنحته من الصوان نحتاً ضخماً وما تبريه من عظام الحيوانات

٥ — الطوفان

وجمعت جامعة الزواج بين اولاد الله واولاد البشر بعد ان كانوا متفرقين فولد منهما الجبابرة " نسل المتكبر الكافر الذي اثار غضب الرب بزيغه ومساويه . وندم الله انه خلق الانسان وعزم على ان يلاشيه مع الطبيعة الحية اما نوح فقد وجد حظاً في عيني الرب . واتخذ الله هذا البار وعائلته وسيلة لتجديد سكان الارض فأمره ان يبني فلكاً ليقيم فيه هو وذووه مع زوجين مما دبَّ وهبَّ . فصنع نوح ما أمره الرب ففتحت باذن الله ميازيب السماء وسقط المطر على الارض اربعين نهاراً

واربعين ليلةً حتى غطت المياه وجه الارض وعلت المياه خمس عشرة ذراعاً فتغطت الجبال · وتلفت الخلائق الحيَّة بهذا الحادث الهائل الذي حفظت تواريخ الشعوب تذكاره واكتشف علم طبقات الارض آثاره

وكان الفلك مع ذلك يطفو على وجه المياه الى ان نقصت فاستقرَّ على جبل اراراط في ارمينيا جبل اتفق بعض العلماء الحديثين على تشبيه قنَّتهِ بقنَّة جبل بامير في بخارى الصغرى

ولما كان الشهر العاشر ظهرت رؤوس الجبال و بعد اربعين يوماً اطلق نوح غراباً لم يعد اليه ثم اطلق حمامة فعادت وفي فيها غصن زيتون اخضر · ولما علم نوح ان المياه قد ارتدت خرج من الفلك هو وعائلته وكل الحيوانات ناجين من الطوفان واول ما عني به الحبر بعد خروجه من الفلك بنى مذبحاً واصعد عليه محرقات للرب · فتنسم الرب رائحة الرضى وصنع مع نوح عهداً

الاَّ يخرب الارض بالطوفان : وكان قوس قزح علامة هذا العهد

وعاش نوح بعد الطوفان طويلاً (٣٥٠) فكانت كل ايام نوح تسع مئة سنة وخمسين سنة ومات . وانتهت معه الاعمار الطويلة التي نعجب من طولها اليوم على ان السبب في ذلك كان واضحاً في قناعة البشر لذلك العهد وفي قوّتهم لقربهم من منشإهم . وقد جاء في التوراة ان السبب في قصر اعمار البشر قد نجم عن المساوىء التي هاجت غضب الله وجلبت الطوفان

مختصر

ان الله كوّن العالم في خمسة ايام . وفي اليوم السادس خلق الانسان الذي اعطاه حوّا رفيقة . وبعد ان اسكن الله الرجل الاول والمرأَة الاولى جنة عدن طردهما منها لعصيانهما امره . وكان قايين بكر اولاد

آدم فقتل اخاه هابيل فلعنه الله من اجل جنايته وعزّى آدم بان رزقه شيتاً

ولما توفي آدم « في عمر تسع مئة سنة وثلاثين سنة » تفرقت البشر فريقين احدهما اولاد الله من نسل شيت واولاد البشر من نسل قايين . فذرية شيت الاصلية هي : انوش واخنوخ ومتوشالح ولامك والد نوح . وكانت القبائل التي اقامت في ضواحي عدن متمدنة تمدناً مادياً والقبائل الاخر عائشة عيشة الهمج ولكن ما لبث الفريقان اولاد الله واولاد البشر ان اتحدوا بجامعة الزواج فزاغا والتطخا بالفساد فارسل الله الطوفان لمعاقبة البشر وانقذ منه نوحاً وبنيه الثلثة سام وحام ويافث مع عيالهم

الفصل الثاني

في تبدد البشر

ملخص

بابل — السلالات البشرية . سام . حام . يافث

بابل — مات نوح عن ثلثة بنين : سام وحام ويافث الذين كثر نسلهم فاخذ جميع بني نوح ومواليدهم يهبطون شيئاً فشيئاً من الصرود المجاورة اراراط الى السواحل الفسيحة الخصيبة الواقعة على ضفاف الفرات والدجلة التي كانت تدعى قديماً في اللغة السامية شنعار والتي ينطبق عليها جيداً اليوم اسم ما بين النهرين

ولم يكن الا القليل حتى حذت القبائل الجديدة حذو القبائل التي غرّقها الطوفان اذ تجرأ البشر على استنزال الله نفسه وليأمنوا انتقامه عزموا على بناء برج راسه الى السماء

قال الكتاب المقدس اما الرب فنزل لينظر البرج الذي كان بنو آدم يبنونه فبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض وبددهم على وجه الارض وكفوا عن بناء البرج وتذكارًا لبلبلة السنتهم سمي بابل اي البلبلة

ولم تزل آثار ذاك البناء الضخم شاخصة حتى يومنا هذا في جملة الاطلال القائمة في موقع بابل القديمة وتسميه اليوم سكان البلاد برج نمرود · وهو كدسة من الاجر انهارت وتراكمت على شكل الروابي

وكان البرج ذا سبع طبقات بعضها فوق بعض وما بقي منه الى الآن يبلغ علوه ستة واربعين مترًا · وطال برج نمرود هو اشهر ما في بابل من الانشاءات ولا ينازعه الفخامة واستلفات النظر الا القليل من الاطلال القديمة

وكان تبلبل الالسنة في ايام فالج من سلالة سام الخامسة ولدن مولده بدليل اسمه الذي يعني الافتراق

تذكاراً لهذا الحادث ومهما تباينت الآراء فان البشر قد تبددوا بعد الطوفان ببعض اجيال ولكن فرقاً ثلث منسوبة الى ابناء نوح الثلثة

١ — السلالات البشرية

ان نسل حام ومعناه (المحرق من الشمس) تحيَّز لبلاد الحبشة (الاتيوبي) المعروفة اليوم (بنوبيا) ولمصر ولوبيا . ومن هذا النسل من لم يبلغ افريقيا بل ابطأَ عدة قبائل منه في الطريق فاقامت في اسيا . ولذلك بنى نمرود حفيد حام مملكة بابل على العدوة السفلى من الفرات وعمَّر كنعان بن حام سواحل خليج العجم الغربية وبعد حين ابعدت تلك القبائل ولم يعرف مبعدها فنزلت في جنوبي سوريا فأَفنت من افنته وأَذلَّت من أَذلَّته من سكانها الساميين وكان الفينيقيون من اشهر قبائل كنعان

ب — نسل سام

ورحل نسل سام بعد ارتحال نسل حام فعمَّر غربي آسيا حيث نازع مرارًا من كان في تلك الجهات من نسل حام وانحدر رويدًا رويدًا الى ارباف الفرات والدجلة واستوطن ما بين النهرين ثم تقدم حتى ضفاف خليج العجم حيث نازع في كلدة ابناء نمرود السطوة والصولة ورسخت قدمه في بلاد ايلام او سوزيان وتوغل في طريقه حتى توسط بلاد فارس وهناك اختلط بالارياسيين من نسل يافث · ومن تلك القبائل ما استقام في سيره غربًا حتى نزل في ليديا وسوريا

ومن اشهر ذرية سام اشور الذي بنى مملكة نينوى على العدوة العليا من الدجلة وعابر الذي صار أبًا للعبرانيين · وقد تهيأ اليوم الاسرائيليون والعرب بهيأة الساميين

ج — نسل يافث

وكان نسل يافث آخر المرتحلين يريد الاتساع كما دلّ على ذلك اسمه ومعناه (التوسع) فنشر فروعه ليس فقط في الهند بل ملأ صرود ايران وقسماً من اسيا الصغرى واوربا فمن هذه الفروع نسات الامم الجرمانية والسكانديناڤية والسالية والغالية واليونان والتراس والارمن والماديين والفرس ويرجع قوم ان منها ايضاً المجر والاتراك والفيناندیین واخيرًا الهنود ويطلق اليوم على جميع الامم المنسوبة الى يافث اسم الهندي الاوربي

لم يتكلم موسى الا عن النسل الابيض — لم يقف موسى في بسطه الكلام عن السلالات البشرية او تناسل الامم الا عند السلالة الكبرى اي السلالة البيضاء ضارباً صفحاً عما دونها من السلالات اي الصفراء والحمراء والسوداء لانــه لم يقصد تفصيل منشأ جميع

الشعوب التي تتألف منها البشرية بل تعمد الكلام فقط عن الشعوب التي عرفها الشعب العبراني او التي كان يهمه كثيراً معرفتها

ويفترض تسلسل الشعوب التي لم يوتَ على ذكرها من بعض العيال المنسوبة الى ابناء نوح فافترقت عن الاصل في الزمان الذي تخلل الطوفان وبناء برج بابل

مختصر

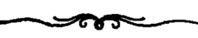
نزلت عشائر بني نوح من اراراط الى ما بين النهرين وتجرأُوا على استنزال الله ببناء برج بابل غير ان الله بلبل السنتهم وتفرقت البشر · ان بابل او برج نمرود الذي اصلحه بختنصر هو اليوم ركام اطلال شاخصة في موقع بابل

واحتل نسل حام اتيوبيا (بلاد الحبشة) ومصر وليبيا وبعض عشائر اقامت على ضفاف الفرات حيث

خضعت للعنصر السامي ٠ وكان نمرود منشئ مدينة بابل حفيد حام وعمّرت اولاد كنعان بن حام ضفاف خليج العجم الغربية ومنها انزاحت الى سوريا

وعمّرت اولاد سام وعشائرهم ما بين النهرين وسوزيان و بلاد العرب وليديا وسوريا

واقام نسل يافث الكثير العدد في صرود ايران والهند وآسيا الصغرى وكل اوربا



العبرانيون

الفصل الاول

من دعوة ابرهيم الى الخروج (٢٠٠٠ — ١٥٠٠)

ابرهيم ــ يعقوب ــ يوسف

ملخص

ا — ابرهيم — دعوة ابرهيم — اقامته في مصر — اقامته في فلسطين — خراب سدوم وعموره — مولد اسحق وزيجته ــ وفاة ابرهيم — عوائد الاباء الاولين

ب يعقوب — هربه الى ما بين النهرين — رجوعه الى ارض كنعان — اقامته بجوار بيت لحم

ج — يوسف — في ان اولاد يعقوب باعوا اخاهم يوسف — ارتفاع مقامه — اخوة يوسف في مصر — يعقوب في مصر — وفاة يوسف

ا — ابرهيم (٢٠٠٠)

دعوة ابرهيم — ان الشرور التي ظهرت واعتلنت بعد الطوفان بسنين قليلة تفاقمت بعد تبدد الشعوب

حتى كادوا ينكرون وجود الله فاختار الرب من ذرية سام عائلة تهيأَت لتكون شعباً عظيماً ومستودعاً للعقائد القديمة والمواعيد الالهية . وكان المختار ابرهيم بن تارح من نسل عابر ومن بني سام

ولد ابرهيم نحو عام ٢٠٠٠ في أُور من بلاد الكلدانيين اي في جنوب بابل ولم تزل اثار اور شاخصة حتى الآن وكانت هذه المدينة عامرة لعهد ابرهيم حيث ازهرت فيها العلوم والفنون وعلم الفلك والشعر تنازع بابل العمران

اما الاسباب التي حملت تارح وعائلته على التنقل صعداً على ضفاف الفرات حتى حرّان فلم تزل مجهولة وهذه المدينة واقعة في سهلٍ بلغ الخصب فيه حد الغرابة

وبينا كان ابرهيم في حرّان سمع صوت الرب قائلاً له « انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك

الى الارض التي اريك · وانا اجعلك امة كبيرة واباركك ويتبارك بك جميع عشائر الارض» فاطاع ابرهيم امر الرب وغادر بلاده واباه الشيخ فيها آخذًا معه ساراي امرأته ولوطًا ابن اخيه وجميع النفوس التي امتلكاها· واجتاز ابرهيم الفرات وسوريا الى ارض الكنعانيين

ابرهيم في مصر — وكان جوع في الارض فهبط ابرهيم الى مصر التي كانت اهراء الخصب وكانت ساراي جميلة المنظر فافتتن فرعون بحسنها فخطفها لكن الله عاقب فرعون فعرف هذا خطأه وارجع ساراي الى زوجها ومعها هدايا ثمينة

رجوع ابرهيم الى فلسطين — ان ابرهيم عاد بثروته الى فلسطين الى بيت إيل ومعه ابن اخيه لوط · وحدثت خصومة بين رعاة مواشيهما فقال حينئذٍ ابرهيم لابن اخيه «لا تكن خصومة بيني وبينك ولا

بين رعاتي ورعاتك اليست الارض كلها بين يديك اعتزل عني إما الى الشمال فأتيامن عنك وإما الى اليمين فاتياسر»

فاختار لوط لنفسه كل بقعة الأردن واقام في مدينة سدوم تاركاً مواشيه في السهول

اما ابرهيم فاستقر في وادي ممرا بجوار حبرون

فوز ابرهيم — وافتتح كدرلاعومر ملك عيلام وادي الاردن وفي جملة ما اذله من المدن سدوم وعمورة وبعد ان خضع له امراء تلك الناحية ثلاث عشرة سنة ارادوا نبذ طاعته فقهرهم في الوادي القفر او في غور السديم جنوبي بحر الميت وقتلهم ونهب مدنهم واقتاد سكانها اسرى وفي جملتهم لوط ولما نمى الخبر الى ابرهيم جرّد حشمه وجدّ في اثرهم ولم يزل بهم حتى هزمهم وانقذ ابن اخيه لوط ولما عاد باركه ملكيصادق ملك شليم وكاهن العلي

تجديد وعد الله لابرهيم بعقب — خراب سدوم وعمورة

كان ابرهيم لم يزل دون عقب · فشكا ذلك الى الرب فوعده الله نسلاً عديداً اعداد نجوم السماء · وبرهاناً على ذلك بدل اسمه ابرام (اي الاب المرتفع) بابرهيم (اي اب الكثرة) وجعل علامة عهده معه الختانة · وصدّق ابرهيم مواعيد الرب وان كان قد ادرك التاسعة والتسعين من عمره وبلغت ساره التسعين

وفي ذلك الحين نكبت سدوم وعمورة واربع مدن أُخر عقاباً عن آثامها الفظيعة فامطر الرب عليها ناراً وكبريتاً فباد جميع سكانها ولم ينجُ منهم الا لوط وحده واضمحلت المدن الاثيمة وانبثت موضعها مياه بحر الميت

مولد اسحق — وارتحل ابرهيم الى بلاد جرار بالقرب من تخوم مصر حيث اقام مدة من الزمان وفيها ولدت ساره اسحق (يفرحون) « فكل من سمع بهذا الخبر

يفرح لي ») ونشأ خصام في بيت ابرهيم من جرّاء مولد اسحق لانه كان قد رزق من هاجر امته ابناً اسمه اسمعيل . فطلبت ساره الى ابرهيم ابعاد هاجر وابنها اللذين كادا يهلكان عطشاً في الصحراء لولا ان ملاكاً انقذهما وصار اسمعيل اباً للعرب

وعاد ابرهيم الى ممرا حيث امتحن الله ايمانه وأمره ان يذبح ابنه الوحيد على جبل المورياَّ الذي بني عليه بعد حين هيكل اورشليم . لكن الله قد ارتضى بطاعة ابرهيم فآثر الطاعة على الذبيحة

وكان بعد هذه الامور ان سارة قضت نحبها فدفنها ابرهيم في مغارة في حبرون . وكانت سنو عمر سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة

زيجة اسحق — لما طعن ابرهيم في السن رغب في تزويج ابنه اسحق غير انه كان يأبى تزويجه من فتاة كنعانية فانفذ عبده اليعازر الى ما بين النهرين ليختار

عروساً لاسحق من عشيرته فابصر اليعازر بقرب بئر فتاة حسنة المنظر جداً فعرف انها الفتاة التي اختارها الرب لتكون زوجة لابن مولاه . وكانت تدعى رفقة حفيدة ناحور شقيق ابرهيم ومن انسباء اسحق . فودعت بيت ابيها وتبعت اليعازر الى ارض الكنعانيين . وفي عشرين سنة من زواجها ولدت لاسحق توأمين عيسو ويعقوب

وفاة ابرهيم — ولم يبق لابرهيم امنية في دنياه بعد ان اتمّ الرب مواعيده معه ومع ذلك عاش خمس عشرة سنة بعد مولد الاخوين ثم مات . وكانت ايام سنيه التي عاشها مئة سنة وخمساً وسبعين سنة فدفنه اسحق واسمعيل الى جانب ساره . ودعوه بحق ابا المؤمنين

عوائد الآباء الاولين — اننا نعتبر في ابرهيم مثال الاحبار او الاباء الاولين . انه كان كابائه راعياً ومن سكان البادية لا يأوي الا الى الخيام وكان ينقل خيامه

من اور الى حرّان ومن حرّان الى شخيم ومن هنا الى مصر ومن مصر الى بيت إيل ومن هذه الى جرار ومن جرار الى ممرا • وكان واسع الثروة ايضاً : اذ كانت جماله وحميره ونعاجه تعد بالالوف • وكانت التقوى واضحة في جميع اعمال حياته بدليل اقامته مذبحاً للرب اينما حلّ وضرب خيامه • واللهجة بذكره في كل امر

فليس من حياة ارتسمت فيها العوائد الفطرية والسذاجة والزهد وعيشة رعاة المواشي اجمل من حياة ابرهيم وما اجلاها لمن يطالع قصة ملتقى رفقة باليعازر فهذه العوائد لم تزل جارية حتى الان وقد روى لنا السيّاح الذين شاهدوا قبائل البادية في فلسطين انهم رأوا في ظل خيامهم مثال عيشة ابرهيم وساره الى جانبه تعد الخبز لضيوفها ورفقة الجميلة تستقي الماء من العين

ب — يعقوب

لم يحدث في حياة اسحق شيء غريب لانه عاش ساكن البال ما بين مراعي ممرا وجرار على ان يعقوب قد عاش عيشة مذكورة بالقلق والاضطراب شان جده ابرهيم. لما حقد عيسو عليه من اجل استلابه بركة اسحق هرب من وجهه الى ما بين النهرين حيث خدم خاله لابان ليزوجه ابنته راحيل فزوّجه من قبلها بكر بناته ليئة وكانت ايام خدمته اربع عشرة سنة

ورزق يعقوب اثني عشر ولدًا وهم رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ودان ونفتالي وجاد وأشير ويساكر وزبولون ويوسف وبنيامين . وكان هؤلاء الاثني عشر ابنًا اباءً لاثني عشر سبط اسرائيل. واحدثهم سنًا يوسف وبنيامين وكانا وحدهما ابني راحيل

رجوع يعقوب الى ارض كنعان — ففي ذات

يوم ملَّ يعقوب الاقامة في ارض الغربة وكان لابان متغيباً فهرب بنسائه واولاده ومواشيه قاصداً ارض كنعان

وبينا هو في بعض الطريق اتصل به ان اخاه عيسو قادم لملتقاه ومعه اربعمئة رجل وسكَّن الله روعه اذ ارسل لمصارعته ملاكاً فصارعه الملاك سواد الليل فلم يقوَ عليه وسمَّاه من اجل ذلك اسرائيل المستظهر على الله واتخذ نسله هذا الاسم · وكان ملتقاه بعيسو الذي كان يرهبه في نهاية المؤاخاة اذ اسرع عيسو الى ملاقاته فضمه بين ذراعيه وعانقه والدمع يسح من اجفانه

وبعد ان تصالح الاخوان افترقا : فعاد عيسو الى سعير في الجنوب الغربي من البحر الميت حيث رتعت مواشيه العديدة واقام يعقوب مدة في شليم مدينة اهل شكيم التي بارض كنعان ثم صعد الى بيت ايل حيث دعاه الرب

ولما كان على طريق افراتة (بيت لحم) فاضت روح راحيل بعد ان ولدت ابناً وسمته بنوني اي ابن ألمي واما ابوه فسماه بنيامين اي ابن شيخوختي . ثم قدم يعقوب على اسحق في ممرا ولم يكن الا القليل من قدومه حتى فاضت روح اسحق وكان شيخاً قد شبع من الايام لانه عمّر مئة وثمانين سنة

ج — يوسف

وكان يعقوب يحب يوسف على جميع بنيه لانه ابن راحيل فابغضه اخوته من اجل هذه المحبة . ففي ذات يوم اذ كانوا يرعون غنمهم في ارض دوتائين اخذوا يوسف وطرحوه اولاً في بئر لا ماء فيها حيث يقضي عليه جوعاً . ثم باعوه لاسمعيليين كانوا قاصدين مصر وغمسوا القميص في دم جدي وانفذوه الى يعقوب الذي لما اثبت ان وحشاً ضارياً افترس يوسف بلغ به الحزن حد اليأس والقنوط

رفعة مقام يوسف — وبينا كان يعقوب ينوح على ابنه المحبوب كان الاسمعيليون قد باعوا ذلك الابن الى فوطيفار خصي فرعون مصر فنال ثقة مولاه عاجلاً غير ان امرأة فوطيفار اتهمته بريبة شنيعة عند زوجها فاغترّ الخصي بكلامها وطرحه في السجن . وحدث بعد قليل ان فرعون رأى حلماً وهو ان سبع بقرات عجاف الابدان افترست سبع بقرات سمان الابدان فلم يكن من سحرته من يقوى على تفسير هذا الحلم وكان يوسف اوفر منهم حظاً فقال سيرث بمصر جوع شديد مخيف بعد سبع سنين يكون فيها خصب لم يعهد بمثله

فعجب فرعون من حكمة يوسف فجعله كبير وزرائه واستبدل اسمه باسم مصري معناه مخلص العالم وزوّجه بنت كاهن أون (هليوبوليس)

اخوة يوسف في مصر — فعني يوسف في انشاء اهراء الخصب حتى اذا اتت المجاعة كانت تلك الاهراء

وافية بحاجيات القوم وكان الشعب الجائع يقبل الى الملك فيقتصر على هذا الجواب « اذهبوا الى يوسف »

وكان الجوع شديداً ايضاً في ارض كنعان فهبط اولاد يعقوب الى مصر ليمتاروا لهم طعاماً مغادرين بنيامين وحده عند ابيهم . فرأى يوسف ان يتظاهر بجهله لهم فاتخذهم جواسيس وحبس عنده احدهم شمعون واعداً اياهم ان يخلي سبيله عندما يبصر بنيامين احدث اولاد يعقوب سناً . فذعر يعقوب عندما سمع بهذا الامر وانكر عليهم الطلب كل الانكار

ولكن لا سبيل الى الاصرار وقد فرغت الميرة التي اتوا بها والجوع كان لم يزل مستحكماً من بلادهم . فعاد الاخوة الى مصر ومعهم اخوهم بنيامين . فلما ابصره يوسف تحرك فوأده تحركاً كاد ينم به لانهُ كان مثلهُ ابن راحيل وقال لهُ : « يرأف الله بك يا بنيّ » ولم يشا ان يزيد على ذلك حرفاً واجهش للبكا فاسرع بالخروج

وبكى

وعقيب ان اولم يوسف لاخوته صرفهم عنهُ وامر ان يوضع جامهُ في جوالق بنيامين · وقبل ان يبعدوا عن المدينة جدَّ في اثرهم خدم يوسف واتهموهم بسرقة مولاهم · ولما عثر على الجام عظم الحزن عليهم وطلب يهوذا ان يكون عبداً ليوسف مكان بنيامين · فلم يستطع عندئذٍ يوسف ان يضبط نفسهُ فصاح قائلاً : « انا يوسف اخوكم الذي بعتموه الى مصر » ثم عانقهم باكياً مبتدئاً ببنيامين واولاهم هدايا ثمينة وأمرهم ان يأتوه بيعقوب · ولما بلغ يعقوب ذلك الخبر نهض من ساعتهِ وقال : « حسبي ان يوسف ابني لا يزال باقياً امضي واراه قبل ان اموت · »

يعقوب في مصر — ولما دخل الحبر مصر التقى بيوسف الذي خف لملاقاتهِ حتى ارض جاسان وصاح ذلك الاب المغبوط قائلاً ليوسف « دعني اموت الآن بعد

ما رايت وجهك » ولما مثل يعقوب مع عائلته بين يدي فرعون اكرم الملك وفادتهم واحتفى بهم مزيد الاحتفا ثم استأذنهُ يوسف في اسكانهم جاسان اجود موضع من مصر وامرعهُ فأذن لهُ وجاسان في شمالي البحر الاحمر

وكان دخول يعقوب الى مصر لعهد الملوك هيكسوس الى الرعاة الذين كانوا يتصلون بالقبائل الكنعانية التي هبطت من آسيا الى مصر فاستوات على القسم السفلي منها

وفاة يعقوب — ومات يعقوب لسبع عشرة سنة من دخوله مصر وكانت ايام عمرهِ مئة وسبعاً واربعين سنة . ولما دنا اجلهُ دعا ابنهُ يوسف واستحلفهُ الاّ يدفنه في مصر وبارك ابنيه افرائيم ومنسى ثم بارك يعقوب بنيه مدخراً بركة خاصة ليهوذا لان منهُ يولد مخلص العالم وليوسف لانهُ كان رمزه ومثالهُ

فحنط يوسف جثة ابيه الذي بكتهُ مصر مدة سبعين يوماً . ولما انقضت سنّة الحداد نقلت جثته

بمزيد الاحتفال الي ممرا

وفاة يوسف — فلما رأى اخوة يوسف ان قد مات ابوهم اوجسوا خيفة منهُ وحاذروا ان يكافئهم على الشر الذي فعلوه معه • فطيّب يوسف نفسهم باعذب الكلام • وعاش يوسف مئة وعشر سنوات وأبقى ذكرًا طيبًا ومكرمًا بكل لسان وكان هذا الذكر وحده سياجًا لشعبه وحمىً لهُ

— مختصر —

لما تكاثرت الشرور وعم الكفر اختار الله ابرام من نسل عابر من اولاد سام ليحفظ به ذخيرة العقائد القديمة ولما دعا الله ابرام هجر وطنه اور من ارض الكلدانيين ليأتي الى ارض كنعان • واكرههُ الجوع على النزول الى مصر وعاد فاقام في فلسطين بجوار حبرون واقام ابن اخيه لوط في وادي الاردن • وانقذ ابرام ابن اخيه

من يد ملك عيلام واكد لهُ الرب انه سيولد لهُ ابن . ولكن لم ينل العفو عن سدوم التي التهمتها نارٌ من السماء

وابرام الذي صار يدعى ابرهيم رزق اسحاق المرغوب فيهِ . فزوجهُ برفقة حفيدة شقيقه ونال حظاً من الله في مرأى حفيديه عيسو ويعقوب ثم مات وكانت ايام سنيه مئة سنة وخمس وسبعين سنة

واحزن اسحاق في شيخوخته تنازع ابنيه وفرَّ يعقوب من غضب عيسو الى خاله لابان في ما بين النهرين وتزوج بابنتيه ليئة وراحيل ورزق منهما اثني عشر ولداً وعاد الى ارض كنعان فسالم عيسو وذهب فاقام في حبرون عند اسحاق . ولما كان في الطريق مُني بالقرب من بيت لحم بفقد رحيل التي ماتت بعد ان ولدت بنيامين

ولما كان يوسف أحب اولاد يعقوب اليه باعهُ اخوته الى الاسمعيليين الذين اخذوه الى مصر وصار فيها

قيّم بيت فوطيفار ثم كبير وزراء فرعون · وذهب اخوته دفعتين الى مصر ليمتاروا لهم حنطة فكشف يوسف نفسهُ لهم واستدعى اباه اليه فاسكنه ارض جاسان ومات يعقوب في المئة والسابعة والاربعين من سنيه ودفن في حبرون ومات يوسف في المئة والعاشرة من عمره

الفصل الثاني

الخروج (١٥٠٠)

ملخص

ا —اسرائيل في مصر—اضطهاد اسرائيل—مولد موسى—موسى بحضرة فرعون

ب—موسى والخروج—المسير الى جبل سينا—العبرانيون في سفح جبل سينا

ج— الشريعة : الدينية والسياسية والمدنية والجزائية — العبادة ٠وح الشريعة

د — المسير في البرية—عجائب ونورات—الوصول—الى الاردن— وفاة موسى

ا ٠— الاسرائيليون في مصر حتى مجيء موسى

الاضطهادات —ان السبعين عبرانياً الذين دخلوا ارض جاسان الخصبة مع يعقوب عظموا و كثروا حتى صاروا شعباً صغيراً في مصر واقاموا لهم زعماء خصوصيين

ورتعوا في بحبوحة الحرية مع وجودهم في سلطة فرعون

ولكن ما لبثت هذه النعمة ان زالت عنهم لان الملوك القدماء الذين استقروا في ثيبة طردوا الملوك الرعاة وقد قال الكتاب المقدس « وقام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف» وكان هذا الملك يدعى سيزوستريس فاضطهد العبرانيين وأمر ان يطرح في النيل كل ذكر كيلا يكثروا

مولد موسى — وولدت امرأة من آل لاوي تدعى يوكابد ابناً . واخفته ثلاثة اشهر ولما لم تستطع ان تخفيه بعد عرضته وهي ذارفة الدمع على سفط في النهر وقدر الله ان تذهب تيرموتيس ابنة الملك فرعون الى النهر لتغتسل ولما ابصرته مسّت قلبها الشفقة عليه فأمرت بجذبه اليها ودعته موسى « المنتشل من الماء » وربته في قصرها الخاص واقامت له من الكهنة معلمين يعلمونه جميع علوم المصريين . وكان في تلك الايام لما كبر

موسى انه خرج الى اخوته العبرانيين فرثا لحالهم وابصر رجلاً مصرياً يضرب اسرائيلياً فقتل المصري وفرّ الى بلاد العرب الى ارض مدين حيث حسن صنيعه في نفس الكاهن يترو فزوجهُ صفورة ابنته

موسى بحضرة الملك فرعون — ولما كان موسى يرعى غنم حميه أبصر عليقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق فاخذه العجب من ذلك المنظر العظيم فدنا واذا صوت خارج من العلّيقة المتوقدة بالنار يقول لهُ « لا تدنُ الى ههنا اخلع نعليك من رجليك فان الموضع الذي انت قائم فيه ارض مقدسة ٠٠٠٠ اني قد نظرت الى مذلة شعبي وسمعتُ صراخهم من قبل مُسخريهم وعلمت بكَرْبهم فالان تعال أَبعثك الى فرعون واخرج شعبي بني اسرائيل من مصر ٠»

وكان يدعى ملك مصر منوفتاح فلم يقابل امر الرب الا بالتجديف فقال :« من هو الرب فاسمع لقوله واطاق

اسرائيل . لا اعرف الرب ولا اطلق اسرائيل .»

وانزل الله بمصر لاصرار فرعون على القحة بلايا مشهورة تعرف بضربات مصر العشر. ولم يزل مصرًّا حتى الضربة العاشرة التي خطفت كل ابكار المملكة حتى ابن الملك . ففي الليلة ذاتها دعا فرعون موسى وهارون اخاه وقال :«قوما فاخرجا من بين شعبي انتما و بنو اسرائيل واصرفا بخروجكم غضب الرب عني » :

وبينا كان ملاك الهلاك يضرب ابكار المصريين كان الاسرائيليون قد تهيأوا للسفر باقامة عيد الفصح . وارتحل بنو اسرائيل نحو ست مئة الف ماشٍ من الرجال خلا النساء والاطفال وخرج ايضاً معهم لفيف كبير من الخدم وغنم وبقر ومواشٍ وافرة جدًّا وكان مقام بني اسرائيل الذي اقاموه بمصر اربع مئة وثلاثين سنة

موسى والخروج حتى جبل سينا (١٥٠٠)

الطريق الى جبل سينا — وكان اقوم السبل الى

ارض كنعان الجري على شواطئ البحر المتوسط واجتياز ارض الفليسطينيين غير ان هذا الطريق كان محفوفاً بالمخاطر فاتجه موسى وجهة البحر الاحمر وشبه جزيرة سينا

وكان هذا الطريق طويلاً جداً يفتقر فيه الشعب الاسرائيلي الى العناية الالهية المتواصلة وكان الرب مع شعبه . فادخله في وسط البحر على اليبس وغرّق المصريين الداخلين وراءه . وبعد ذلك اعوز الشعب الماء . فصيّر موسى ماء عين مارّة المرّ عذباً . وشكا العبرانيون في برية سينا من الجوع: فارسل الله لهم المن . واعوزهم ايضاً الماء في جوار حوريب : فضرب موسى الصخرة بعصاه ففجّر منها عيوناً غزيرة . ثم جاء العمالقة فحاربوا اسرائيل في رفيديم ففاز بهم : و بينا كان يشوع يقاتل في السهل كان موسى يصلي على الجبل باسطاً ذراعيه

وفي الشهر الثالث لخروج بني اسرائيل من ارض مصر في ذلك اليوم وصلوا الى سفح جبل سينا · حيث وضع الله شريعته بين اصوات الرعود والبروق ولما تلقاها الشعب من موسى اقسم ان يقيم على حفظها ولكن مالبث قليلاً حتى نكث عهده

العبرانيون في سفح جبل سينا — وكان موسى قد عاد الى رأس الجبل ليتلقى من يد الله لوحي الشريعة والاحكام التي يترتب على الشعب الجري عليها في عبادة الله · فمكث في الجبل اربعين يوماً ملتحفاً بالغيم

ورأى الشعب ان موسى قد ابطأ في النزول فطفق يتذمر فاضطر هارون لتسكين قلقه ان يصنع لهُ عجلاً من ذهب فاصعد لهُ الشعب المحرقات وقرَّب الذبائح وقام اخيرًا يرقص امامهُ رقصاً فاسدًا · فاعلن الرب لموسى مساءة شعبهِ · فانثنى موسى ونزل من الجبل حالاً فلما رأى العجل الغليظ اتقد غضبه : فكسر

اللوحين اللذين نقش الله عليهما الشريعة ثم دعا بني لاوي للوثوب معهُ على العصاة فقتلوا بحد السيف ثلاثة الاف رجل

وبعد هذه الوقعة تحركت الرحمة في قلب المشترع وطلب الى الرب ان يغفر لشعبه قائلاً: والآن ان غفرت خطيئتهم وإلاَّ فامحني من كتابك الذي كتبتهُ «فرّق الرب لطلبه وأمره ان ينحت لوحي حجرٍ كالاولين. فصعد موسى الى جبل سينا حيث مكث اربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب. ولما نزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده كان وجههُ مشعاً من مخاطبة الرب ولما رأى العبرانيون ان اديم وجههِ مشعٌ خافوا ان يدنوا منه فاضطر الى ان يجعل على وجهه برقعاً

— الشريعة —

ان الشريعة المعتلنة على جبل سينا تضبط احكام الديانة والحكومة والنظام المدني والجزائي والتأديبي

والعبادة

الديانة — ان عقيدة الديانة الموسوية الاساسية هي التوحيد اي وحدانية الله . « أُصغِ يا اسرائيل ان الهنا واحد » ومن هو هذا الاله ؟ هو الرب العظيم هو الذي كائن . . . موجود روحاني لا يحده زمان ولا يحيط بهِ مكان خالق السما والارض وسيد الكائنات

وآداب الديانة الموسوية قائمة بالكلمات العشر او الوصايا التي كتبها الله نفسهُ باصبعهِ على الحجر . — « ١ً انا الرب الملك الذي اخرجك من ارض مصر لا يكن لك الهة تجاهي . ٢ً لا تحلف باسم الرب الملك باطلاً ٣ً اذكر يوم السبت لتقدّسهُ . ٤ً اكرم اباك وامك كي يطول عمرك في الارض . ٥ً لا تقتل . ٦ً لا تزنِ ٧ً لا تسرق . ٨ً لا تشهد زوراً ٩ً و ١٠ً لا تشتهِ بيت قريبك ولا شيئاً مما لهُ . »

الحكومة — كانت حكومة اسرائيل من النوع الذي

عرفوه بالحكومة الالهية لان الملك الحقيقي هو الله · وكان يحكم ويدبر بالوحي الذي كان عظيم الكهنة ينهيه الى زعيم الامة

وكانت السلطة بعد الله لزعيم الامة وهذا كانت تقيمه الظروف والاحوال كالقضاة او كان ثابتاً كالملك وكان يستعين على اعماله بمجلس مؤلف من سبعين شيخاً من شيوخ الامة

الشريعة المدنية — كانت الشريعة المدنية او السياسية تذود عن الاجنبي والاحداث والنساء التي لم تحتفل بحقوقهم الانظمة المسنونة قبلاً فالسيد الذي كان يقتل عبده كان يقضى عليه بالموت · ومن ضرب عبداً صيره حرًّا وكان الربى منكورًا وكل فائض عند العبرانيين كان محظرًا عليهم اخذه اذا قرض عبراني اخاه مالاً لا يضع عليه ربًا

الشريعة الجزائية او التأديبية — كان مبدأ

الشريعة التأديبية الاساسي سنّة القود وهي التي كانت تخيّرُ المعتدى عليه اما باخذ الدية او الارش واما بالانتقام عيناً بعين وسناً بسن . وكان القاتل عمداً يُقتل والقاتل عن غير عمد يحاكمه اهل القتيل اما الشريعة فقد أقامت للقاتل ملاجئ في ست مدن حيث كان يافي ست محاكم للذود عنه

وهنالك ايضاً بعض جرائم كبيرة كان يعاقب مرتكبها بالموت كعبادة الوثن وخرق سنة السبت وبيع الحرّ وعصيان الابن على ابيه

العبادة او الطقس — كان يجب ان تكون العبادة الداخلية مقدمة على كل شيء . « والآن يا اسرائيل ماذا يطالبك الرب الّا ان تخشى الرب الهك وان تسلك في سبلهِ وان تحبه وتخدمه من كل قلبك ومن كل نفسك ؟ » وكان من الضروري ان تقرن العبادة الداخلية بالخارجية لتثبيت هذا الشعب الذي كان قلبه مائلاً الى

المحسوسات

الكهنة — كان عظيم الكهنة من آل هرون والبكر وكن المعول عليهِ في ادارة الخدم الدينية وكان الكهنة ايضاً من عائلة هرون وفروضهم تقديم الذبائح والقرابين ثم اللاويون وكانوا من نسل لاوي يقومون بخدمة البيت المقدس ويعزفون و يرتلون

وكان الكهنة يعيشون من عشور اثمار الارض وكانت خيام عيالهم مضروبة حول خيمة الاجتماع

كان امام خيمة الاجتماع دار فسيحة وكانت هذه الخيمة مصنوعة من خشب مغشى بجلود وسجف فاخرة ومقسومة الى قسمين بواسطة حجاب الاول كان يُسمى القدس وكان فيه مائدة خبز الوجوه (اي الخبز الذي كان يأتي بهِ كل سبت الاثنا عشر سبطاً) والمنارة ذات سبعة سرج تضيءُ الليل كله ومذبح البخور الذي كان يوقد عليه البخور دائماً صباحاً ومساءً

والتاني قدس الاقداس وكان موضوعاً فيه التابوت الذي كان يعرف بتابوت الشهادة او تابوت العهد وضمنه لوحا الوصايا

من الاعياد الكثيرة التي لم يحتفل لها العبرانيون إلا بعد نزولهم في فلسطين ثلاثة كانت مشهورة عندهم وهي

الفصح الذي عيُن تذكاراً لخروجهم من مصر والبنديكستي (العنصرة) كانوا يعيدونه تذكاراً لاعلان الشريعة على جبل سينا وكان يدعى ايضاً عيد الحصاد وعيد الخيام او المظال وكان هذا تذكاراً لاقامة الشعب في البرية حيث كان يأوي الى الخيام . وكان يوافق هذا العيد ابّان اجتناء الاثمار وكان من ابهج الاعياد عند اليهود ويضاف الى الاعياد يوم السبت الذي كان عندهم يوم الراحة وهو اليوم السابع من السبّة عندنا . وسنة العطلة وهي كل سنة سابعة عندهم ويقال لها سنة

الاطلاق. وكان حفظ هذا العهد محصوراً في مغادرة الارض دون حراثة واعطاء كل ما تنبته دون حرث للمساكين وسنة اليوبيل وهذه كانت تعيَّد كل خمسين سنة ففي هذه السنة كانت تستريح الارض وتطلق العبيد العبرانيون وتترك الديون ويخلّى سبيل من بيع من اجلها وتردُّ الاراضي والاملاك المبتاعة او المرتهنة الى اصحابها

روح الشريعة — ان الشريعة الموسوية وان كانت شديدة الوطأة من بعض وجوه فانها تشف عن رحمة ومحبة وهل جاء في كتبنا المقدسة صفحة ألذ مما يأتي

« لا تنتقم ولا تحقد على ابناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك من امام الاشيب تقوم وتحترم وجه الشيخ . لا تشتم الاصم وقدام الاعمى لا تجعل معثرة

« اذا حصدت حصيدك في حقلك ونسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتاخذها . للغريب واليتيم والارملة تكون ليباركك الرب الهك في كل عمل يديك . واذا

خبطت زيتونك فلا تراجع الاغصان وراءك للغريب واليتيم والارملة يكون . اذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه للغريب واليتيم والارملة يكون . اذا رأيت ثور اخيك او شاته ضالاً فلا تتغاض عنه بل رده على اخيك . واذا رأيت حمار مبغضك واقعاً في الطريق فانهضه معه .»

د — المسير في البرّية

عجائب وثورات — ولما كان نحو السنة الثانية من خروج الشعب الاسرائيلي من مصر اشار اليه موسى بالرحيل الى ارض الموعد وفي اثناء الطريق الذي كان كثير المشاق تذمرّ العبرانيون مراراً ففي ثورتهم الاولى على موسى عاقبهم الله بنارٍ كانت تشتعل في طرف المحلة ولم تخمد الا بدعاء موسى الى الرب . وشبت ثورة ثانية عن كرههم المن وتذكرهم لبصل مصر فانزل الرب بهم

داء غريباً أودى بحياة الوف منهم . وتجراءت مريم اخت موسى نفسها على التذمُّر على اخيها فضربها الرب ببرص شاين

ولما وصلوا الى قادش برنيع بجوار ارض الميعاد ارسل موسى اثني عشر رجلاً ليجسوا ارض كنعان فعاد هولاء وعلى اكتافهم امثلة من خصب الارض العجيب وفي افواههم كلام يشف عن الجبن والوهن فقالوا ما عدا يشوع وكالب : ان سكان تلك الارض جبابرة فلا قبل لنا بالاستيلاء عليها . واشتد تذمُّر الشعب على موسى واراد الله ان يستأصل شأفته اكراماً لموسى وعوجاجه فشفع بهم موسى عند الرب فقبل الرب شفاعته ولكن قال في هذا القفر تسقط جثثكم كل المعدودين منكم بحسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً الذين تذمَّروا عليَّ لن تدخلوا الارض التي رفعت يدي مقسماً أن اسكنكم فيها الا كالب ويشوع . فمات جميعهم في البرّية

وفي الحقيقة ان اسرائيل استمر ثماني وثلاثين سنة متنقلاً من خليج الانيتيك (البحر الاحمر) الى قادش برنيع ومن قادش برنيع الى خليج الانيتيك والبرّية التي اجتازها بجميع انحائها لم تزل تسمى حتى اليوم «تيه بني اسرائيل»

ثورة قورح وداثان وابيرام — واشهر ما حدث في المدة الطويلة التي قضاها الشعب الاسرائيلي في البرية قيام قورح وداثان وابيرام من اللاويين على آل هرون بقصد منازعته الكهنوت ولما لم يشا موسى كبح جماحهم وتسكين ثورتهم رفع امرهم الى محكمة الله . فانفتحت الارض للحال تحت اقدامهم وابتلعتهم هم وعيالهم ومقتنياتهم

نهاية مدة الاقامة في البرية — وكان قد مرّ من اقامة الشعب الاسرائيلي في البرية اربعين سنة . ودنا حلول اجل تلك الاقامة عند ما رجع اسرائيل الى قادش

برنيع . وبينا هم مقيمون فيها اعوزهم الماء فتذمر الشعب كعادتـهِ على موسى وتذكر مصر فأَمر الله موسى ان يفجِّر لهُ الماء من الصخرة فأطاع موسى أمر الرب ولكن بعد ان تردَّد هو واخوه هرون قليلاً فقضي عليهما ان يموتا قبل ان يدخلا ارض الموعد . اما الحكم على هرون فقد كان عاجلاً وقد دفن في جبل هور بعد ان استخلف على الحبرية ابنه البكر العازر

ولكي ينكّب اسرائيل عن ارض الادوميين التي نهاه الله عن مهاجمتها لانها كانت ارض اخوته (من نسل عيسو) اضطر الى ان يدور بها صاعداً من جديد الى ضفة بحر القازم وصاعداً في بلاد العرب

الاستيلاء على ضفة الاردن اليسرى — كان يضطر اسرائيل الى ان يفتح طريقه ويمهد سبيله بالمقاتلة بل كان الرب من اعوانهِ كان قتالهُ مكللاً بالفوز والانتصار . فقتل بسيفهِ ملوك الاموريين والديانيين

والموابيين واذلّ كل من استقرّ على ضفة الاردنّ اليسرى وكانت تلك الارض غزيرة المياه كثيرة المراعي فأغرت بني رأوبين وجاد ونصف بني منسى على التوطن فيها

وفاة موسى — وكان قد دنا اجل موسى عندما قابل ارض الميعاد فجمع اليه للمرة الاخيرة شعبه وذكره بما صنعه له الرب من العجائب والمعجزات التي لا تحصى وناشده ان يثبت اميناً نحو الرب في مقابلة احسانه ثم ترنّم بشكر الله ترنيماً معجباً وبارك الاثني عشر سبطاً وقدّم لهم خلفه يشوع . ولما فرغ من مشاغله في الارض صعد الى جبل نبو وحوّل وجهه ناحية ارض الميعاد ومات وكانت ايام سني موسى مئة وعشرين سنة ودفن في ارض مواب « ولم يعرف احد قبره الى يومنا هذا »

هكذا قضى « خادم الله » كما دعاه الكتاب المقدس ومن اعظم الانبياء الذين اختارتهم العناية الالهية . كان

عجيباً في ايمانه بالله وفي صبره وحلمه مع تكاثر مساوئ شعب غليظ الرقبة اغلف القلب ومشترعاً سامياً واعظم انسانٍ بعد المسيح لو كان المسيح انساناً

— مختصر —

ونما العبرانيون وكثروا في مصر نموًا عجيباً ولكن تولّى امر مصر فرعون لم يعرف يوسف · يقال ان رعمسيس او سيزوستريس اضطهدا الشعب العبراني · وقد عهد الرب الى موسى الذي انقذته ابنة الملك نفسها من المياه بانقاذ شعبه · ولم يرض فرعون عن سفر اسرائيل الاّ بعد نزول الضربة العاشرة في مصر · فاتجه (١٥٠٠) بشعبه وجهة جبل سينا ولم ينتهِ اليه الا بعد آيات عديدة

واعطاه الله على جبل سينا شريعته التي قامت بها النواميس الدينية والطقسية والسياسية والمدنية والتأديبية ·

وعقيب ان اقام العبرانيون سنتين في سفح جبل سينا استأنفوا المسير وسط البرية قاصدين فلسطين · ولما تخاصموا وثاروا في اثناء مسيرهم امر الله ان يلبثوا ايضاً في البرية ثماني وثلاثين سنة ومن اشهر ما حدث في تيه بني اسرائيل الطويل الامد عصيان قورح وداثان وابيرام من اللاويين ومعاقبتهم · وانتهوا اخيرًا الى شرقي الاردن حيث اقامت اسباط جاد وراوبين ونصف سبط منسى

ومات موسى على جبل نبو ووجهه متجه وجهة
ارض الميعاد · اما اخوه هرون عظيم الاحبار
فكان قد قضى نحبهُ في جبل هور

الفصل الثالث

جغرافية فلسطين

ملخص

الحدود — نهر الاردن — الهيئة العامة — البحر الميت — خصب فلسطين — سكانها

الحدود — ان فلسطين الحقيقية التي دعيت على التوالي ارض كنعان وارض العبرانيين وارض اسرائيل واليهودية والارض المقدسة واقعة كلها على ضفة نهر الاردن اليمنى وهي تمتد من حرمون (جبل الشيخ) واسطة عقد غربي لبنان الجنوبية الى طرف نهر الميت حيث مبتداء الصحراء

اما الاسرائيليون فقد احتلوا ايضاً في ايام موسى ضفة النهر اليسرى التي تحدها شرقاً رمال الصحراء

الاردن — ان نهر الاردن المعروف عند العبرانيين

بالسريع وعند العرب بالشريعة يتألف من ثلاثة ينابيع تخرج من جبل حرمون فيصب اولاً في بحيرة ميروم (الحوله) ثم في بحيرة الجليل الجميلة الواقعة على مسافة اربعة فراسخ منها والتي يقال لها ايضاً بحيرة طبرية وجناشر ذات المياه الزرقاء الصافية كالبلور واخيرًا ينتهي الى البحر الميّت

ويبلغ طوله مستقيماً مائتين وعشرين كيلومتراً واذا قيست تعاريجه العديدة بلغ طوله اربعمائة وثلاثين كيلومترًا وعرضه نحواً من ثلاثين مترًا وغوره من ثلاثة الى اربعة امتار

وهو نهير لاتهتدي عين الناظر اليه عن بعد إلاّ بما ينبت على ضفافهِ من القصب والصفصاف والطرفاء ولو لا تساقط الثلوج اليه كل سنة من قنن جبل حرمون ما كان إلاّ جدولاً لزيادة تبخر مائه في الوادي المحرق الذي ينساب فيهِ

· والاردن يجري في غور عميق بين سلسلتي جبال غربية وشرقية فمن الغرب سلسلة لبنان الغربي ومن الشرق سلسلة لبنان الشرقي · فالسلسلة الغربية تعرف بجبال الجليل وافرائيم واليهودية والكرمل المشرف على البحر وارفع قننها جبال طابور والجليل وجلبوع وموريا والسلسلة الشرقية تعرف بجبال جلعاد (السلط) ومواب ونبو التي تنتهي عند جبل سعيد في بلاد الآدوميين

هيئة فلسطين — يفصل الاردن ناحيتين مختلفتي الهيئة فالناحية الغربية ذات حزون وانجاد تؤذن بفعل الزلازل فيها وهناك تلال مستديرة وتربة متحجرة رقيقة تخترقها الشعاب والمغائر والكهوف وفي الشمال منها بلاد الجليل الجميلة التي تكتنفها جبال طابور وجلبوع والكرمل المشهورة وفي وسطها جبال السامرة واليهودية التي تنعطف اوديتها الصغيرة العديدة على البحر المتوسط فتفضي الى

سهل سارون الخصب وفي الجنوب بلاد الادوميين المحرقة المتصلة بالصحراء

والناحية الشرقية التي عرفت اولاً ببلاد جلعاد ثم بالبيره ذات صرد يرتفع نحواً من ثمانمائة متر عن سطح الاردن كثير المراعي الخصبة الفسيحة الارجاء. وتقل الاشجار في الجنوب منها واما في الشمال فتكثر الغابات من شجر الزين والصنوبر والسنديان والجميز والبطم والتين

البحر الميت — ان بحر الميت اوطأ من البحر المتوسط باربعمائة متر وواقع بين جبال جرداء طولهُ ستة عشر فرسخاً وعرضه اربعة ولم يبلغ هذه المساحة الاّ على اثر انقراض سدوم وعاموره. وكان في جنوب هذا البحر وادٍ أمرع سماه الكتاب تارة بوادي سلفاستر او القفر وطوراً فردوس الرب وخمس مدن عامرة التهمتها نار السماء من جراء آثامها . وبينا كانت السماء تمطر

عليها ناراً وكبريتاً انخفضت ارضها وغارت بفعل الزلازل فانقلبت اليها مياه البحر الميّت

ويكثر في الارض التي تحيط بهِ مناجم الملح والجبص ومياههُ أمرّ وأثقل من مياه الاوقيانس بخمسة امثال حتى تعوم عليها جثة الانسان ولا يعيش فيها السمك ولا تنبت على ضفافه الخضر وسواحله قاحلة خربة تشتد فيها الحرارة الى درجة لا تطاق ومع ذلك تكثر الواحات على ضفاف الجداول التي تصب في البحر

جمال فلسطين وخصبها — لم تكن فلسطين من قبل كما تبدو اليوم للغريب ذات هيئة منقبضة محزنة فان تجريد جبالهـا من الاشجار قد غيّض ينابيعها وذهب بخصب أراضيها. وكان موسى قد قال لشعبه: «ان الرب الهك مدخلك ارضاً صالحة ارضاً ذات انهار ماء وعيون وغمار تتفجّر في غورها ونجدها. ارض حنطة وشعير وكرم تين ورمّان ارض زيت وعسل.»

ولئن كانت ارض مصر وبابل اخصب من ارض فلسطين فان هذه كانت تفضلها بتنوُّع حاصلاتها. كان فيها غابات الارز البهجة والمنتجعات الخصبة والزروع الجميلة وكان يقبل فيها الشعير والحنطة والكتان وتوفر عوائد الكرم والزيتون موضوع تجارة هذه البلاد الواسعة مع الفينيقيين. ويكثر فيها ايضاً شجر النخل والتين والجوز واللوز والفستق والرمّان والليمون الحامض والدفل وكثير من الغراس العطرية واشهرها البلسم. ووجد فيها العبرانيون كثيراً من البطيخ والقثا واليقطين وبصل مصر الذي كانوا يلذون به

سكّان فلسطين في زمان افتتاحها —اقام الاموريون من نسل كنعان على الضفة اليسرى بجوار النهر ومن الشمال الى الجنوب شعوب باشان والعمونيون والموابيون من نسل لوط والمدينيون من نسل ابرهيم وعلى الضفة الغربية شعوب مختلفة من الكنعانيين وفضلاً عن ذلك اقام في

الشمال الصيدونيون او الفينيقيون وفي الجنوب الغربي الفلسطينيون الذين كانوا يملكون خمس مدن وهي : غزة واسقيلون الخ وفي الجنوب العمالقة واخيراً في جنوب البحر الميت الادوميون حول جبل سعير

— مختصر —

ان فلسطين بلاد ضيقة النطاق واقعة كلها في عبر الاردن نهر ينبجس من جبل حرمون فيصب اولاً في بحيرة ميروم و بحيرة طبرية واخيراً في البحر الميّت غور على مسافة اربعمائة متر اسفل البحر المتوسط . وارض فلسطين جملةً جبلية واشهر جبالها طابور وجلبوع والكرمل وموريا غيران فيها سهلين فقط وهما سهلا يزرائيل وسارون . وكانت قديماً اخصب منها اليوم يقتات من غلاتها نحو من خمسة الى ستة ملايين نفس . وكانت الشعوب النازلة في شرقي الاردن قبل دخول العبرانيين

اليها الاموريين والعمونيين والموابيين والمدينيين والمقيمة في غربيه الكنعانيين والفلسطينيين وفي جنوبه العمالقة والآدوميين

الفصل الرابع

افتتاح فلسطين

ملخص

يشوع وعبور الاردن — الاستيلاء على اريحا — اعتصاب ملوك الجنوب — اعتصاب ملوك الشمال — تقسيم ارض الميعاد — وفاة يشوع

عبور الاردن — عقيب ان اقام يشوع مناحة لموسى مدة ثلاثين يوماً لاربعين سنة من خروج الشعب الاسرائيلي من مصر رحل من شطيم واقبل الى الاردن وهناك ظهر الشعب ثم امر الكهنة حاملي تابوت العهد

بعبور النهر ولما انغمست اقدامهم في حاشية المياه وقف الماء الجاري وقام ندا واحداً ممتدا جداً . ووقف الكهنة بالتابوت وسط النهر حتى فرغ الشعب كله من عبوره على اليبس

الاستيلاء على اريحا — ولما نمى الخبر الى ملوك الكنعانيين استحوذ عليهم الرعب . واستنجد يشوع الرب قبل محاربتهم بوضع رسم الختان في محلّة الجلجال (المعروف الآن بتل جلجول) وزحف بعسكره الى سفح اسوار اريحا . وطاف الجند حول المدينة تتقدمهم الكهنة حاملو تابوت العهد مرّة كل يوم مدة ستة ايام متتالية . وفي اليوم السابع اذ كان الكهنة ينفخون في الابواق المكرسة والشعب يهتف كله هتافاً شديداً سقطت الاسوار فاستولى الجنود على المدينة وابسلوا ما فيها بحد السيف

وعقيب ان استولى العبرانيون على اريحا توغلوا في البلاد حتى شكيم فأخذوها كما ترجحت الدلائل دون

قتال · ونصب يشوع مذبحاً للرب في جبل عيبال من حجارة غير منحوتة لم يرفع عليها حديد · وكتب هناك على الحجارة تثنيــة اشتراع موسى واصعد على المذبح محرقات للرب

اعتصاب ملوك الجنوب — لما خاف ادونيصادق ملك يابوس (اورشليم) ان يلم بمدينته ما ألمّ باريحا دعا لمناصرته اربعة من ملوك الجنوب · اما يشوع فاسرع بعسكره من محلة الجلجال لمحاربة المعتصبين وفاز ٢٠:١ فوزاً مبيناً بجوار جبعون ولما كان يرغب في ان يكمل فوزه قبل غروب الشمس أمرها ان تقف في مسيرها فوقفت وقوّض يشوع المدن التي امتلكها وهي مقيدة ولبنه ولاكيش وحبرون (الخليل) ولما فرغ يشوع من افتتاح جنوبي فلسطين عاد الى محلة الجلجال

اعتصاب ملوك الشمال —وكان يابين ملك حاصور قد دعا الى الاعتصاب من كان من الملوك في الشمال

فحشدت قبائل الكنعانيين ما عندها من الجنود والجياد والمركبات فدحرت وسحقت بجوار بحيرة ميروم واستولى يشوع وعسكره على حاصور وغيرها من المدن وبذلك تم ليشوع افتتاح فلسطين وان لم يكن كلها فجلها وقهر اسرائيل وقتل واحداً وثلاثين ملكاً

تقسيم ارض الميعاد — وكان وقتئذٍ قد تسنى ليشوع ان يباشر قسمة ارض الميعاد . فكان موسى قسم في ايامهِ ما ملكوه في شرقي الاردن على بني رأوبين وبني جاد ونصف سبط منسى فقسم يشوع الجهة الغربية على التسعة الاسباط الباقية : فأقام في الشمال اي في الموضع الذي عرف بعد حين بالجليل يساكر وزابلون واشير ونفتالي وفي الوسط اي الموضع المعروف بالسامرة افرائيم ونصف سبط منسى وفي الجنوب اي في الجهة المعروفة باليهودية دان وبنيامين ويهوذا وشمعون اما لاوي فلم يعطَ ميراثاً لان الرب هو ميراثهُ . ومع ذلك قد

أعطي ثماني واربعين مدينة مشتتة في انصبة الاسباط للسكنى وضواحيها لمواشيهم واموالهم

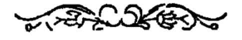
والحق يقال ان فلسطين لم تفتتح كلها اذ بقي قسم كبير منها في ايدي قبائل مستقلة بين انصبة اسباط بني اسرائيل وافتتح داود بعد حين اورشليم التي كانت تسمى يا بوس بمحاربته اليابوسيين ولم يكن يخشى نزول عظيم خطر من تلك القبائل المنفردة ولذلك اعتبر يشوع ان عمله قد تم ووفى بما عليه · فاستتبت السلم في جميع الانحاء التي احتلها بنو اسرائيل واذا كان قد حدث ما ضعضعها فيكون ذلك بمساوئهم وزلاتهم

وفاة يشوع — ولما شاخ يشوع استدعى الى شكيم جميع اسرائيل وذكّرهم كموسى بما صنع الرب عندهم واستحلفهم ان يحافظوا على شريعته ثم مات وكان عمره مائة وعشر سنوات قضى منها خمساً وعشرين سنة في قيادة الشعب ودفن في ميراثه على جبل افرائيم وقد اكتشف مدفنه

في ايامنا منحوتاً في الصخر

— مختصر —

ان يشوع عبر الاردن واستولى على اريحا وتوغل في البلاد حتى لبتها شكيم (السامرة) وقهر الملوك الذين اعتصبوا في الجنوب بقيادة الملك يابوس وتغلب ايضاً على الذين اعتصبوا في الشمال بقيادة ملك حاصور وافتتح بذلك فلسطين ضارباً صفحاً عن محاربة الفينيقيين والفلسطينيين وقبائل الكنعانيين في داخل البلاد· وقسم ارض الميعاد على الاسباط ثم مات على جبل افرائيم



الفصل الخامس

القضاة

دابورة — حدعون — يفتاح — شمشون — صموئيل

لم يقم يشوع عند موته خلفاً له فتوارت بوارته وحدة القيادة واتخذت الاسباط التي تركت وشأنها رؤساءها قواداً غير ان وحدة الجنسية لم تتضعضع لانها كانت قائمة بوحدة الدين: اي كان لهم اله واحد ومقدس واحد وطقس واحد . وبدوام هذه الوحدة الدينيـة تدوم الجنسية ويقوى اسرائيل على اعدائه

ولنكد الطالع قد انتثر عقد هذه الوحدة فبدلاً من ان يلاشي الاسرائيليون قبائـل الكنعانيين التي لم تذلّ لهم سالموها واتخذوا من بناتها زوجات لهم وما لبثت ركابهم ان جثت لآلهتهم البعليم (الابعال)

وكان السبب في ما حل باسرائيل من الكبات هو تناسيه عبادة الاله الحقيقي لان اختلاف المذهب وانفراد كل من الاسباط الاثني عشر في معيشته واستئثاره بمصلحته اضعفها وعرّضها لسيوف الاعداء وفضلاً عن ذلك ان التواءهم عن شريعة الله كان داعياً للعقاب الذي هدّدهم به الغضب الالهي

وقد ذكر تاريخ الشعب العبراني في مدة ثلاثمائة سنة عبودية هذا الشعب ونجاته لان الرب كان يقيم لهُ مخلصاً اذا تاب اليه

اخلاق القضاة — وهذا المخلص كان يسمّى قاضياً او حاكماً في الشعب وليس قاضياً حقاً ونبياً حقاً : ولم يصدق هذا الاسم الاّ في دابوره وصموئيل فان الله كان يقيمه لانقاذ شعبه وللذود عنه بما يؤتيه تعالى من القوة غير انه لم يكن يبعث فيه روح العدل والقداسة.

وكانت سلطة القضاة محصورة في بعض اسباط بني

اسرائيل واشهرهم دابوره وجدعون و يفتاح وشمشون وصموئيل

دابوره ·— ان النبية دابوره قد تغلبت بسلاح باراق على سيسرا رئيس جيش يابين ملك الكنعانيين الذين اقاموا في الشمال فا ستطالوا بعد وفاة يشوع · ولما انهزم سيسرا لجأ الى خيمة حابر العبراني صديقه· و بينا هو نائم اخذت ياعيل امرأة حابر وتد الخيمة من حديد بشمالها والميتدة بيمينها وضربت الوتد في صدغه حتى غرز في الارض فانشدت حينئذٍ دابوره ترنيمة الشكر لله :

« استمعوا ايها الملوك واصغوا ايها العظماء· إني للرب أرنم أشيد للرب اله اسرائيل

" ولتبارك بين النساء ياعيل امرأة حابر· · ·

« طلب ماء فأعطتهُ لبناً

« وقبضت بشمالها على وتد و بيمينها على ميتدة

وانتقت الموضع لتضربهُ فسقط سيسرا

« خرَّ وسقط وحيث خرَّ سقط صريعاً

« اشرفت امُّ سيسرا من الكوة وأعولت من وراء الشبَّاك وصاحت : لماذا صُبغت مركبته بالدم . لماذا بطؤَت جياده . »

جدعون — كان المدينيون يغزون دائماً ارض فلسطين فاستنجد جدعون اسباط منسى واشير وزابلون ونفتالي فحشدوا من الجنود ما اناف على عشرين الفاً غير ان الله لما كان يريدان يعزى الفوز اليه أمر جدعون ان يصرف الجنود فلا يبقي لديه منها الاّ ثلاثمائة من الاشداء . وهبط بهم جدعون فجأة تحت جنح الدجي الى محلة الاعداء وجعل ابواقاً في ايديهم كلهم وجراراً فارغة في ضمنها مشاعل فكسروا الجرار وهتفوا : « السيف للرب ولجدعون » فاخذ الاضطراب الاعداء وجعل كل منهم سيفه في صاحبه فقتل بعضهم بعضاً وكان القتال هائلاً:

فتلاشى المديّنيون وباد منذ ذلك اليوم ذكرهم

يفتاح — كان يفتاح من قبل رئيس عصبة من اللصوص الذين يقطعون الطرق على السابلة ففاز بالعمونيين فنذر للرب قبل فوزه دون تروٍ ولا نظر في العواقب ان يضحي اذا ظفر بالاعداء اول شخص يقع نظرهُ عليه بعد فوزه · واشد ما كان حزنه عند ما أبصر وهو عائد الى بيته ابنته خارجةً لاقائه بالدفوف والرقص والاغاني · ورضيت الابنة بما قسم لها وبعد ان بكت بتوليتها هي واترابها مدة شهرين في الجبال رجعت الى ابيها فاتمّ بها النذر الذي نذرهُ على غير روّية

شمشون — بينا كان يفتاح يخمد جذوة ضيق العمونيين كان شمشون الجبّار الممتاز بشدة الباس وغرابة القوة يضايق الفلسطينيين الذين غشوا جنوبي فلسطين ومع ذلك لم يتمكن البطل العبراني من انقاذ بلاده برمتها لان تنكيله بزعماء الفلسطينيين لم يخوّل اسباط بني اسرائيل

الا بعض الراحة ومسكينة

النكبة في ايام عالي — وكان الفلسطينيون قد ازدادوا جراءة وسطوا بعد اندحارهم فارسل العبرانيون وحملوا تابوت عهد الرب يقويهم ويثبت جنانهم لكن الله كان قد اغتاظ لضعف عالي الحبر في اصلاح فساد ابنيه حفني وفنحاس . فقتل من العبرانيين ثلاثون الفاً في وقعة افيف (البلاد الفوقا) منهم ابنا عالي وسقط تابوت عهد الله في ايدي الاعداء ولما نمى الخبر الى عالي وكان ابن ثمان وتسعين سنة استحوذت عليه الدهشة فسقط عن الكرسي الى خلفه فاندقّ عظم عنقه ومات

وكان فوز الفلسطينيين بذلك كاملاً فاخذوا تابوت العهد واودعوه كشارة الانتصار في هيكل داجون معبودهم في اشدود (اسدود) غير ان وباءً حلّ بهم فاكرههم على ردهِ . اما اسرائيل فلم يلبث خاضعاً لاعدائهِ ولما افاق من غفلتهِ ودرى بما كان من شر غوائل ذهوله عن

عبادة الاله الحقيقي والعمل بشريعته مال ميلاً صادقاً الى يهوه (الاسم الكريم) فارسل لهُ في ذلك الحين مخلصاً حقاً

صموئيل—وكان هذا المخلص صموئيل . فان والدته قدّمتهُ الى الرب منذ حداثته فنشأ في جوّ المقدس وائتمنهُ الرب نبياً و بهِ ابلغ عالي الحبر النكبات التي تحل بهِ عقاباً لهُ عن اغفالهِ تأديب ابنيه واصلاح مساوئهما

ولما كانت السنة العشرون من وقعة افيف المائلة خرج صموئيل من عزلتهِ وحشد الشعب في المصفاة (الآن قرية شعفات) ولما سمع العبرانيون كلامهُ تابوا الى الله ونبذوا الآلهة الغريبة الكاذبة

وكان قد بلغ الفلسطينيين ريح الثورة والهياج فاسرعوا للقتال فالتحم الفريقان في المصفاة وفيما كانوا يقتتلون كان صموئيل يصعد محرقة للرب فانجد الرب شعبهُ

بإثارته على الاعداء زوبعة هائلة ملأتهم رعباً فانهزموا مدحورين وبهذه النصرة نجت فلسطين وبقيت في منجاة من الاعداء

الملكية — وتولى صموئيل قضاء اسرائيل مكرماً من الجميع الى ان طعن في السن فأقام مكانهُ ابنيه يوئيل وابيا فلم يسلكا في سبيلهِ . ولما اجهدت الشعب الرشوة والاعتساف اجتمع شيوخه كافة واتوا صموئيل في الرامة وطلبوا اليه ان يقيم عليهم ملكاً . فشاور صموئيل الرب فامرهُ الرب بتحقيق آمانيهم

وكانت مدة القضاة ثلاث مئة سنة او تزيد

— مختصر —

ولما مات يشوع ولم يكن لاسرائيل من قائد عام بعده انضم الاسرائيليون الى الكنعانيين واتخذوا بناتهم زوجات لهم واعطوا بناتهم لبنيهم فعاقبهم الله بتسليمه

اياهم لاعدائهم ولما تابوا اليه ارسل لهم مخلصين يدعون قضاة وما هم حقيقة بقضاة . واشهرهم دابورة التي قهرت بسلاح بارق سيسرا رئيس جيش ملك حاصور ثم جدعون الذي انقذ الاسرائيليين من المدينيين ويفتاح قاهر العمونيين وشمشون الذي اشتهر بمحاربته الفلسطينيين واخيرًا صموئيل الذي عوّض ما فقده العبرانيون في وقعة دموية جرت بينهم وبين الفلسطينيين في افيق لايام عالي الحبر وآتاهم الله على يده النصر المبين في وقعة المصفاة . وتولى صموئيل القضاء في اسرائيل الى ان شاخ فاقام من بعده ملكاً على اسرائيل

الفصل السادس

الملوك

ملخص

ا ــ شاول ــ انتخابه ــ مقاطعته صموئيل ــ مطاردته داود ــ وفاته

ب ــ داود ــ محاربة ايشبوشت ــ جعل اورشليم عاصمة المملكة ــ حروب وفتوحات ــ زلّات وعقوبات ــ حكومة ــ في ان داود نبي

ج ــ سليمان ــ بدء ملكه الدموي ــ مجد سليمان ــ اعماله ــ عظمته ــ حكمته ــ سقوطه

(١) شاول (١٠٩٤ الى ١٠٥٥)

في ارتقاء شاول الى الملك ــ وكان اول ملك على اسرائيل شاول بن قيس من اصغر عشائر سبط بنيامين وكان المنتخب من الرب شاباً حسن الصورة مقداماً وكان

يزيد طولاً على جميع بني اسرائيل من كتفه فما فوق ولئن كان الشعب المجتمع في المصفاة قد استقبلهُ بالهتاف فانهُ قد وجد في القوم من ينكر اقامة الملك فكتم حقده عن حكمة منهُ وانقلب عائداً الى جبع مستأنفاً العمل بالحراثة

وفي تلك الاثناء صعد ناهاش العموني لمحاصرة يابيش جلعاد (وادي اليابيس) فأنفذ بذلك رسول الى جبع شاول وكان شاول وقتئذٍ في الحقل فلما عاد حل عليه روح الله فقطع ثيرانهُ وارسل القطع الى جميع اسباط اسرائيل وتهددها بقولهِ « كل من لا يخرج وراء شاول وصموئيل هكذا يصنع ببقره » فوقع رعب الرب على الشعب فخرجوا معهُ كرجل واحد فاستأصلوا شأفة العمونيين

واراد الشعب بعد ان كتب لهُ الفوز ان يوقع بمن ازدروا شاول اما الملك فانقذهم قائلاً : لا يقتل احد

في هذا اليوم لان الرب قد اجرى اليوم خلاصاً في اسرائيل »

زلّة شاول الاولى — لم يثبت شاول زمناً طويلاً أميناً لله واعادت جنود من الفلسطينيين لا يحصى عديدها الكرّة على فلسطين فحشد شاول الشعب في الجلجال واقام ثمة شاول سبعة ايام ينتظر صموئيل فلم يأتِ ولما راى شاول من الشعب مللاً وتفرقاً عنهُ اقدم على اصعاد المحرقة لتسكين غضب الرب . ولما فرغ من اصعادها اذا صموئيل قد اقبل فاعتذر لهُ شاول فنبذ صموئيل اعتذاره ولامه شديد اللوم وابلغه ان الله قد اختار لهُ رجلاً على وفقِ قلبه

وطال امد الحرب فردّ يوناتان بن شاول باقدامهِ الفلسطينيين الى محلاّتهم وتجراءَ الشاب وحده ان يدخل مع حامل سلاحه محلة الفلسطينيين فأُصيب هولاء بمثل الدوار فأَعمل كل واحدٍ سيفه في عنق صاحبه فكانت

مقتلة مرعبة . وطاردهم ايضاً شاول فاسرعوا في الرجوع الى تخومهم

وردَّ ايضاً شاول اعتداء قوم آخرين وكان في امكانهِ ان يضمن لاسرائيل الراحة والنجاح اعواماً طوالاً غير انهُ زاغ عن طاعة الله ولم يقم كلامهُ فكان زوغانهُ قاطعاً بينهُ وبين صموئيل والرب وباعثاً على تسليط روح الشرير عليه فقضى حياته بالجنون والقساوة

مقاطعة شاول صموئيل — ابلغ صموئيل شاول امر الرب في الزحف على العمالقة وابادتهم وابسال جميع مالهم. فأبسل شاول الظافر الشعب الذليل بحد السيف وعفا عن الملك اجاج وعن خيار السلب . ولما عاد الى الجلجال التقى بصموئيل الذي عنفهُ على تمرُّده وعصيانه ورذالهُ قائلاً لهُ ان الرب قد رذالك عن ان تكون ملكاً على اسرائيل . ثم انصرف صموئيل ولم يعد يعاين شاول الى يوم وفاته ولكنهُ بكاه وبكى تمرّده

داود في بلاط شاول — أَمر الرب صموئيل ان يمسح داود بن يسى من مدينة بيت لحم الحقيرة ملكاً . وكان شاباً اشقر الشعر حسن العينين وسيم المنظر . ولما اقبل النبي الى بيته كان داود يرعى غنم ابيه فاقتبل المسحة خفيةً حذرَ شاول

فمنذ رذل صموئيل شاول فارقه روح الرب وحل على داود . وكان روح شرير يزعج الملك ويثير فيه الغضب فلم يكن من وسيلة لتسكينه إلا الاتيان براعي بيت لحم الحدث وكان داود يريح الملك بضربه على الكنارة فاحبهُ شاول وجعلهُ حامل سلاحه . واشد من هذه المحبة بل اصدق منها واشهر محبةً يوناتان لداود وقد قال الكتاب : تعلقت نفس يوناتان بنفس داود

وكان الفلسطينيون قد استأنفوا القتال فأُقدم داود على ملاقاة جليات الجبار ولم يكن في يده الاعصا ومقلاع فصرعهُ ولما راى الفلسطينيون ان جبارهم قد قتل اخذهم

الرعب فولوا هاربين . فاكرم شاول حامل سلاحهِ الشاب وابقاه في بلاطهِ

مطاردة شاول لداود — ما لبث شاول ان حقد على داود لان النساء قد استقبلنَ الظافر بجاليات منشدات : « قتل شاول الوفه وداود ربواته » فكفى بذلك اثارةً لحسد الملك الذي حاول مرارًا قتل داود فانقذتهُ في المرة الاولى زوجته ميكال بنت شاول وفي الثانية محبة صديقة يوناثان وفي الثالثة مساعدة احيملك الحبر فاضطر اخيرًا داود للالتجاء الى ارض الفلسطينيين انفسهم وكاد يقتل فيها فجاز حينئذٍ الى ملك موآب وائتمنهُ على ابيه وامه ثم عاد ببعض مئات من الرجال المنزعجين عن الملك الى ارض يهوذا ولما سمع شاول برجوع داود اضطرم غيظًا ولما لم يشأ الاستيلاء عليه انتقم من مريديه. فقتل اولاً احيملك ومعهُ خمسة وثمانين كاهنًا ثم غرق بالدم نوب مدينة الكهنة . ولما بلغ مسمع داود

الهارب من وجه شاول كالوحش الضاري بالاثم الفظيع قابلهُ بكرم وحلم عجيب لانهُ تمكن دفعتين من قتل شاول فعفا عنهُ احتراماً للمسحة المقدسة · وعمد اخيرًا للرجوع الى ارض الفلسطينيين فأكرموا في هذه المرّة وفادته

وفاة شاول — ولما اراد الفلسطينيون الانتقام لما نزل بهم أتوا جماعاتٍ الى شونم (سونم في ناحية جنين) في وادي يزرعيل بجوار محلة الاسرائيليين الذين كانوا مخيّمين على جبل جابوع (اليوم جلبون او جبل فقوعة) فارتعد قلب شاول الذي كان شجاعاً لانهُ شعر بمفارقة الرب لهُ · وطلب الى عرّافة في عين دور أن تكهّن لهُ فتصعد لهُ خيال صموئيل فاصعدته وكان عابساً مهدّداً فقال صموئيل لشاول «لماذا اقلقتني واصعدتني · وسيدفع الرب اسرائيل ايضاً معك الى ايدي الفلسطينيين وغداً تكونون معي انت وبنوك» وقد تمت نبوّة صموئيل اذ قوي الفلسطينيون على الاسرائيليين فسقطوا قتلى في

جبل الجلبوع . واشتدت الحرب على شاول فاثخنوه بالجراح فقال شاول لحامل سلاحهِ «استل سيفك واوجاني به لئلا يأتي هولاء القلف ويقتلوني ويتشفوا بتشنيعهم فيَّ» فأبى صاحب سلاحه لانهُ خاف جدًّا .

فاخذ حينئذ شاول سيفه وسقط عليه فمات شاول وثلاثة بنيه ولما سمع داود بهذه النكبة وهو مبعد في ارض الفلسطينيين مزّق ثيابه وناح وبكى على شاول ويوناثان ابنيه وعلى شعب الرب وبيت اسرائيل لانهم سقطوا بالسيف . ورثى داود شاول وابنه يوناثان بهذه المرثية :

« الظبي يا اسرائيل مجدل على روابيك . كيف تصرّعت الجبابرة

« لا تخبروا في جت ولا تبشروا في اسواق اشقلون لئلاَّ تفرح بنات الفلسطينيين وتطرب بنات القلف »

« يا جبال الجلبوع لا يكن فيكنَّ ندىً ولا مطر ولا حقول تقادم لانه هناك طرح مجن الجبابرة مجن شاول

كانه لم يمسح بدهن .»

ب داود (١٠٥٥ الى ١٠١٦)

محاربة داود اشبوشت — لم يحجب الحزن داود عن الاهتمام بمصالحه فهجر ارض الفلسطينيين عائداً الى فلسطين فنادى بهِ سبطه سبط يهوذا ملكاً في حبرون فيما ان ابنير رئيس جيش شاول نادى باشبوشت بن شاول ملكاً في عبر الاردن وجعل قصبة ملكهِ محنائيم (اليوم محنه) ونشأت عن ذلك حرب اهلية دامت سبع سنين اختلفت في خلالها شؤون المتحاربين وتراوحها الظفر والاندحار الى ان انحاز ابنير عن اشبوشت لعتبهِ فتلاشى الحزب . ودخل بعد ذلك بعهدٍ قريب الى بيت اشبوشت ضابطان من ضباطه كانا رئيسي غزاة فقتلاه بينما كان نائماً وبذلك انفرد داود بالملك

جعل اورشليم عاصمة — استتبت لداود الوحدة

الوطنية بتغلبه على اشد عشائر الكنعانيين قوة تلك العشيرة التي كانت قد بقيت مستقلة في ارض اسرائيل و باستيلائه على يبوس · وكانت يبوس حصناً منيعاً قائماً على صردٍ في لبة فلسطين يرتفع نحو ثمانمائة متر عن سطح البحر · فهاجمه يوآب بعسكره وما زال به حتى افتتحه · فبدّل داود اسم (يبوس وساليم مدينة السلم) باورشليم وجعلها عاصمة ملكه عوض حبرون وكان ذلك حسناً · واستقر داود على رابية صهيون التي دعيت مدينة داود (١٠٤١)

حروب وفتوحات — قضى داود ايام ملكه في الحروب وكان يقدم عليها ذوداً عن حوزته وتوسيعاً لنطاق بلاده · ولما ضايق ملوك السوريين الفلسطينيين بمحاربتهم مالوا عندئذٍ الى داود وناصروه غير ان انضمام الاثني عشر سبطاً في قيادته عدل بهم عن المناصرة له ُ وادخل الخوف على قلوبهم فهاجموا الملك الجديد ولكن لم يفلحوا اذ قهرهم في عدة وقعات واكرهوا اخيراً على الرضى

بسلمٍ كانت شروطها شديدة الوطـأة حتى ذهبت بقوتهم الحربية

ورأى حينئذٍ داود ان ينقل تابوت العهد الى اورشليم فأتى بثلاثين الفاً وقام في مقدمتهم لخفارتهِ مشاركاً القوم بالرقص والهتاف واقاموا التابوت في وسط الخيمة التي ضربها لهُ داود في حصن صهيون وكان داود قد عزم على ان يبني هيكلاً يودعه تابوت العهد فصوب عزمه ناتان اولاً ثم امره بالعدول عن ذلك فاقتصر على ان يحتجن الاموال اللازمة لبنائهِ وصرف جهده الى الحرب

وكان الموآبيون فى مقدمة الذين ضربهم داود وشتت شملهم وفرض عليهم الجزية . ثم زحف بعسكره الى الشمال فواقع الملوك السوريين وظفر بهم فدانوا لهُ وأدَّوا الجزية وفي تلك الاثناء كان الادوميون قد هبطوا على ارض يهوذا فعاثوا فيها فارسل حالاً داود

لردعهم وتأ ديبهم افضل قواده يوآب وابشاي فخطموهم في وادي الملح وافتتح داود جميع بلاد الادوميين · واقام محافظين من اليهود في أيلة وعصيون جابر مرفإ خليج العقبة · وبينا كان داود يريد شمالاً الفرات ادرك بفوزه جنوباً البحر الاحمر الذي كان يمكنه من اتصال العلائق بينه وبين اقصى جهات آسيا وافريقيا

وكان قد بقي العمونيون مستقلين في شرقي الاردن غير ان ملكهم كان محالفاً لداود · فلما توفي ملك بني عمون ارسل داود سفراء لتعزية ابنه وخلفه حنون · فاوهم روساء بني عمون ملكهم ان وفد داود جواسيس فارتاح الى مكرهم فقبض حنون على رجال داود وحلق نصف لحاهم وقطع نصف ثيابهم حتى المنطقة ثم اطلقهم وقد كساهم العار والخجل

فقام يوآب منتقماً لما انزل بهم من العار فجعل نطاقاً من عسكره حول ربة عاصمة بني عمون وما زال بها

حتى استولى عليها واستأصل شافة العمونيين بالتعاذيب المبرِحة وقامت عندئذٍ مملكة اليهود

زلاّت داود وعقوباته — ولئن كانت هذه الحرب الاخيرة التي شهرها داود على بني عمون قد انتهت بفوز عساكرهِ لم يخل تاريخها من وصمة العار · بينما كانت عساكر داود تحارب العمونيين قبالة ربّة تسبّب داود بقتل اوريا بنبال الاعداء ليتسنّى له التزوج من امرأته بتشابع

فأقبل النبي ناتان الى داود من قبل الرب وعنّفه على الاثمين اللذين اقترفهما · فاقرّ داود بخطيته وذرّ الرماد عليه وبكى وناح امام الرب · ومع توبته الصادقة لم يشأ محو الشر الذي صنعه بل كان يطالبه عدل الرب بكفارة عامة فقضى داود بقية ايامه مجرباً ممتحناً

ومن اشد التجارب التي احتملها عصيان أبشالوم ابن الملك عليه ووفاة هذا الابن الذي كان يحبه مع عصيانه

محبة شديدة من يد يوآب بعد اندحاره

وختم داود ايام ملكه بالسكينة التي لم يقلقها حيناً بعد آخر الا بعض مواقع شهرها على الفلسطينيين ومات داود في الحادية والسبعين من عمره والحادية والاربعين من ملكه تاركاً لخلفه سليمان بن بتشابع وصايا حكمية ليستسير بها

حكومة داود — اولاً البلاط — ان داود أحب ان يكون محفوفاً بالجلال ومحاطاً بكل ما يفيده عظمة في عين الشعب . وكانت حاشية البلاط عديدة زاهية . ولما تسلط على اورشليم ابتنى لهُ فيها قصراً فاخراً على حصن صهيون وقد بعث اليه حليفه جيرام ملك صور بالخشب من ارز لبنان والبنائين والصناع . واتخذ لذاته من الفلسطينيين والمأجورين ومن الامناء خفراء وحراساً وكانت الايام قد توالت فاتسع الفرق بين ايام داود وايام شاول الذي كان يسوق بيده ثيران الحراثة

ثانياً — الديانة — وكان داود مع الزلاّت التي اقترفها فندم عليها ندامة صادقة شديد الغيرة على عبادة يهوه (الاسم الكريم) وكان النبيان جاد وناتان تلميذا صموئيل صديقيه وكان يرتاح الى ما يقولانه صراحة و يأتم بمشوراتهما وانذاراتهما خاشعاً

ثالثاً — الجندية — ورتّب داود الجندية على نظام جامع بين الرفق والمتانة وكانت العساكر تتألف من اثني عشر فيلقاً فضلاً عن الخفراء والحرّاس وقد ضم الفيلق اربعة وعشرين الف مقاتل تتناوبها القواد والرؤساء شهرياً

رابعاً — الادارة — وكان لدى داود من كبار القائمين بامره : قائد الجيش وناظر الخزينة وكاتب ومؤرخ ولم يكن في مملكته قضاة لانه اناط بنفسه العدل في الشعب وكان لكل سبط حاكم وناظر خزينة ووكلاء لكل فرع من فروع الزراعة وقضاة وكتبة من اللاويين

وقد جمع داود الى مزيتي الحربية والادارة مزية النبوة اذ تراءى له من وراء حجاب الاستقبال مجد اورشليم الجديدة التي كان قد تقرر بناؤها على اطلال اورشليم التي كان يعني ببنائها فأطنب في مدحها ووصفها بفخامة لا مثيل لها · وهو واضع معظم المزامير حيث وضحت فيها ندامته الشجية الحسنة الوقع وتسامت فيها تضرعاته وابتهالاته حتى بلغت من الرقة غايتها ومن الفخامة نهايتهـا ·

ج — سليمان (١٠١٦ — ٩٧٥)

بدء ملك سليمان — افتتح سليمان ملكهُ بالحزن والقتل فأمر بقتل ادونيا اخيه لانهُ كان يخشى مطامعهُ وابعد ابياتار الحبر لانهُ كان صديق ادونيا · واخيراً أمر بقتل يوآب في خباء بيت الرب حيث كان لجأ فرارًا منهُ لانه كان محازبًا ايضاً اخاه ادونيا

وعقب تلك الشدائد والنكبات ايام سلم لان سليمان لم يكن نازعاً الى الحرب · ولما استقرّ لهُ الملك واستفحل امره في داخل البلاد رفع شأن مملكته في الخارج بمحالفته حيرام ملك صور الذي كان صديق داود ومصادقته فرعون مصر الذي تزوج بابنته · وكفى بشهرة اسمهِ وبعد صولته اذلالاً لقبائل الكنعانيين الذين كانوا لم يزالوا مستقلين بين بلاد اسرائيل · ومدَّ رواق سلطته من تخوم تبسك على الفرات الى جدول مصر والبحر الاحمر

ودلته حكمته على الاكتفاء بهذه المملكة الصغيرة بالقياس الى سواها فلم يفكر الاَّ بما يملّك شعبه السكينة والراحة وقد قال الكتاب : « واقــام يهوذا واسرائيل مطمئنين كل واحد تحت جفنته وتينته من دان الى بئر سبع كل ايام سليمان »

اعمال سليمان — ان سليمان قد انقطع في ايام الفراغ

من ملكهِ الذي دام اربعين سنة الى اكمال عدة اعمال تمجيداً لاسمهِ وحكمته وعظمته . واشهر اعمالهِ بناء الهيكل

وضع سليمان اساس الهيكل في السنة الحادية عشرة من ملكهِ عام (١٠١٢) في الموضع الذي اوحى به الله لداود اي في جبل الموريا الذي ذكر التاريخ ان ابرهيم قدّم الذبيحة عليه . واعمل في بنائهِ عملة لا يحصى عديدهم مدة سبع سنوات . وقد استدعى الملك لمساعدة الاسرائيليين او تدريبهم صناعاً من صور حاذقين في نحت الحجارة وعمل الخشب والحديد والذهب والفضة والشبه والارجوان والقرمز والسمنجوني ماهرين في النقش

اما هيئة الهيكل فكانت اشبه بهيئة خباء المحضر الذي صنعه موسى وكان هذا الهيكل يشمل دارين فسيحتين احداهما تسمى دار اسرائيل حيث كان يجتمع

الشعب والاخرى الداخلية دار الكهنة واللاويين ثم القدس وقدس الاقداس· وكان في القدس منارة ذات سبعة مصابيح ومذبح البخور من ذهب ومذبح من ذهب لخبز التقدمة وهناك ايضاً عدة موائد ومنائر ومصابيح وآنية من الذهب الخالص

وكان في قدس الاقداس كاروبان من خشب الزيتون المصفح بصفائح من ذهب يظللان باجنحتهما تابوت العهد وكان في تابوت العهد لوحا الوصايا وقسط المن وعصا هرون ولم يكن يدخل قدس الاقداس الاّ عظيم الاحبار مرة واحدة في السنة

ولئن كان الهيكل لم يبلغ بضخامته مبلغ هيا كل اشور او مصر فانه اربى عليها بما حواه من النقوش والزين والترصيع والتصفيح بالذهب واخشاب الارز والسرو· وكان يؤلف مدينة صغيرة بما اقيم من الابنية حول دار اورواق اسرائيل لاسكان الكهنة وعيالهم

وقد شهد تدشين الهيكل حشد لا يحصى عديدهم فنقلوا اليه تابوت العهد الذي كان على جبل صهيون ودام تقديم الذبائح مدة اربعة عشر يوماً

في باقي اعمال سليمان — لما اتم سليمان بناء الهيكل للاّنه الحقيقي ابتنى قصرين احدهما لهُ والاخر للملكة ابنة فرعون واحاط اورشليم بالاسوار وزينها بالبرك والاروقة ووسع نطاق مجدّو وجازر وغيرهما من المدن وبنى اخيرًا تدمر (المسماة مدينة النخيل) في البرية لتكون مستودعاً للقوافل التي كانت تسير من دمشق الى بابل

عظمة سليمان وعوائد مملكته — لقد ضربت الامثال بمظاهر ابهة سليمان وعزه سواء كان في ابنيتهِ او في حاشيته ولا يخفى ان ملكة سبا قد دهشت من فخامة قصر سليمان وزهو مائدته وانتظام رجال خدمته ومنازل ضباطه وسناء ملابسهِ كما دهشت من حكمته وكانت

مظاهر العز الباذخ والشرف الشامخ تستلزم نفقات وافرة لاتفي بها عوائد المملكة . وكان اهم مصدر تلك النفقات الارباح العائدة من التجارة التي انشأها الملك بحراً . وكان قد ابتنى له سفناً من خشب اليهودية وجعل عليها بحّارين من الفينيقيين وسيّرها مرّة كل ثلث سنوات في اوقات معلومة من مرافئ أيله وعصيون جابر الى اوفير التي أستبهم اسمها وموقعها فتعود مشحونة بالطيوب والمعادن والاخشاب الثمينة والذهب والعاج . (اوفير ترجح عند العلماء الباحثين في جغرافية الكتاب المقدس انها من اعمال الهند واستندوا في ذلك الى اسماء السلع التي كانت تنقلها منها سفن سليمان فضلاً عن بعدها من خليج العقبة الذي يستغرق الثلث السنوات ذهاباً واياباً)

وكان ملك حيرام يقاسم سليمان ارباح تلك السفرات ويشركهُ في المنفعة العائدة اليه من ذهاب

وملن به الى عبادة الشرق · ولم يكتف ببناء الهيكل لالهتهن بل قدم لها البخور بيد ادخل كبر السن فيها الوهن فثار ذلك غضب الله عليه فانذره بانقسام مملكته ولكن اجّل تعالى هذا الحكم من اجل داود الى ايام ابنه سليمان

لئن كان سليمان لم يشهد بعينه دمار مملكته فانهُ رأى الادلة الواضحة على ذلك اذ استرجع الآدوميون استقلالهم واقامت دمشق عليها ملكاً واخيراً ثار عليه ياربعام من سبط افرائيم ووكيل على جباية الضرائب · ولما تعمد الملك قتله انهزم الى شيشق ملك مصر حيث مكث مرتقباً وفاة سليمان · ولم يستطع احد ان يقطع في الحكم اذا كان سليمان قد مات تائباً الى الله او غير تائب (٩٧٥)

— مختصر —

لما مسح صموئيل شاول ملكاً لم يؤدِ لهُ الشعب الاكرام المفروض للملك من اجل خمول اصله فتغلب على بني عمون واكره الشعب على الخضوع له والاقرار بسلطتهِ . وكان لم يزل في سيطرة صموئيل وتحت مراقبته . ففي اثناء محاربتهِ الفلسطينيين حاول ان ينبذ الكفالة او السيطرة فذبح لله في اثناء تغيب صموئيل فوبخه النبي من اجل ذلك توبيخاً شديداً

واقدم يوناتان على مهاجمة الفلسطينيين فاوقع الرعب في محلتهم فحكم البعض السيف في رقاب البعض الآخر الى ان جاءَ شاول فاجهز عليهم

واستظهر ايضاً شاول على بني عمون والموآبيين والآدوميين بمظاهرة ابنهِ الباسل لهُ . ولما كان شاول قد عصا امر الرب في محاربته اجاج ملك العمالقة انحرف

عنه صموئيل وقطع كل علاقة معه ومسح داود بن يسى خفية ملكاً

ودخل داود قصر شاول فاقامه هذا حامل سلاحه وصاهره بعد انتصاره على الفلسطيني جليات . ثم طارد شاول داود فانهزم هذا من وجهه دفعتين الى الفلسطينيين وبينا هو في محلتهم بلغه خبر اندحار شاول ووفاته على جابوع على اثر محاربته الفلسطينيين وكانت ايام ملك شاول اربعين سنة (١٠٩٤ — ١٠٥٥)

ونادى سبط يهوذا وحده بداود ملكاً في حبرون (١٠١٦ — ١٠٥٥) ثم نادى بهِ اسرائيل ملكاً بعد وفاة اشبوشت بن شاول فنقل عاصمته من حبرون الى يبوس التي صارت اورشليم فحارب مراراً الفلسطينيين حتى اعجزهم وذهب بقوتهم وفرض الجزية على المواَبيين والسوريين على العاصي وفي دمشق وافتتح بلاد الادوميين ومدّ رواق سلطته من الفرات حتى بحر القلزم او الاحمر

ولما قام عليه بنو عمون حطمهم

وبينا كان يوآب يحاصر ربّه عاصمة بلاد العمونيين تزوّج داود في اورشليم بيتشابع زوجة اوريا الشجاع الذي قضي بامر الملك تحت نبال العدو . فجازى الله داود بقتل ابنه امنون وبعصيان ابنه ابشالوم ومالبث داود ان كفّر عن آثامه بتوبته وصبره

وكان بلاط داود محفوفاً بالجلال فعزّز جانب الدين ونظم شؤون الجندية وادارة المملكة وكتب مزاميره المشهورة المنقطعة النظير ومات مستخلفاً على الملك سليمان بن بتشابع

وملك سليمان (٩٧٥—١٠١٦) منتقماً من اعدائه وقضي اربعين سنة ايام ملكهِ في امن وسكينة وقنع بالمملكة الصغيرة التي خلفها لهُ داود من ضفاف الفرات حتى البحر الاحمر فحالف حيرام ملك صور وفرعون مصر واشتهر بما اقامه من الابنية : كهيكل سليمان وقصره

وحصون اورشليم و بناء تدمر واغتنى بالاتجار بحرًا و بعدت شهرة ثروته وحكمته وعلمه غير انهُ ذاغ اخيرًا قلبه حتى قدم البخور على هيا كل الآلهة الكذبة

الفصل السابع

في انشقاق الاسباط العشرة (٩٧٥)

عصيان الاسباط العشرة — كان رحبعام قد ذهب الى شكيم (نابلس) حيث ينادى بهِ ملكاً فألفى فيها نوّاب الاسباط الذين كانوا يبطنون لهُ الحقد . وكان وقتئذٍ يار بعام قد عاد من منفاه فتكلم بالنيابة عن النواب قائلاً لرحبعام : « ان اباك قد ثقل نيرنا وانت خفف الآن من عبودية ابيك الشاقة ونيرهُ الثقيل الذي وضعه علينا فنخدمك » فأجابه رحبعام حسب مشورة الفتيان : « ان خنصري اغلظ من متن ابي فان كان ابي قد حملكم نيرًا ثقيلاً فانا ازيد على نيركم . ابي ادبكم

بالسياط وانا أؤدبكم بالعقارب . » فاثار هذا الكلام الدال على الصلف والكبرياء الفتنة في الشعب اذ قال له « اي نصيب لنا مع داود واي ميراث لنا مع ابن يسى الى خيامكم يا اسرائيل والآن فانظر لبيتك يا داود» واسرع الملك فصعد على عربته وهرب الى اورشليم . فجمع مائة الف مقاتل او يزيد لتدويخ الاسباط المنشقة اما النبي شمعيا فقد نهاهم باسم الرب عن مقاتلة اخوتهم فتشتت الجيش وعاد كل الى محله ووقع الشقاق (٩٧٥)

مملكتا يهوذا واسرائيل — وانقسمت منذ ذاك الحين المملكة الى قسمين : فكانت مملكة اسرائيل مؤلفة من عشرة اسباط ومملكة يهوذا من سبطين بنيامين و يهوذا. فاشتملت الاولى على البلاد التي عرفت منذ ذاك الوقت بالسامرة والجليل فضلاً عن ذلك انضم اليها شرقي الاردن. وانحصرت حدود المملكة التانية بفلسطين الجنوبية او اليهودية وكان لها ايضاً حق السيطرة او السيادة على بلاد

الآدوميين وارض الفاسطينيين : بحيث لم تكن تعدل هذه المملكة ربع مملكة سليمان . وكانت مملكة اسرائيل أبعد ظلاً واكثر عدداً واخصب تربة غير ان سكانها كانوا اخلاطاً وفضلاً عن ذلك ان ملوكهم قد اسخطوا الله بتركهم عبادته وبقساوتهم فانزل بهم العقوبات المتعددة واناخت الفتن والحروب الدموية في ساحة المملكة : وتعاقب عليها ثمانية عشر ملكاً مات منهم ثمانية قسراً ودامت هذه المملكة قرنين ونصف قرن وكان لها ثلث عواصم . شكيم وترصة والسامرة

ان مملكة يهوذا وان كانت دون مملكة اسرائيل قوة ومدى فقد كان سكانها متوافقين مؤتلفين مدربين على القتال . وقد احرزوا فضلاً عن ذلك مزية لم يحرزها سواهم في بلادهم اذ قام في عاصمتها العظيمة المنيعة الهيكل ذلك المقام الديني الذي اتجهت اليه ليس فقط انظار بنيامين ويهوذا بل انظار جميع الذين ثبتوا امناء في

اسرائيل على عبادة الاله الحقيقي . ومع تداول ايدي ملوك ممقوتين على تلك الولاية فقد وجد جملة فيهم احسنوا خدمة الرب يهوه فكافاهم بتوارث الملك خلفاً عن سلف (وكان عدد من توارثه عن ابيه عشرين ملكاً) ودامت مملكة يهوذا نحو اربعة قرون من ٩٧٥ الى ٥٨٨)

وسنأتي على ذكر المملكتين مفصلاً مبتدئين بتاريخ مملكة اسرائيل الذي ينتهي عام ٧٢٠ على ان مملكة يهوذا دامت حتى عام ٥٨٨

— مختصر —

كان الله قد توعد سليمان بانشقاق مملكته وكان حدوث الشقاق منذ ارتقائه الى الملك وبعلة سوء تدبير ابنه رحبعام . فملك عشرة اسباط ياربعام عليها . وثبت سبطا بنيامين ويهوذا امينين على الخضوع لرحبعام

ومنذ ذالك الحين انقسمت المملكة قسمين : احدهما

مملكة اسرائيل وكانت تضم الجليل والسامرة ٠ والثانية مملكة يهوذا التي انحصرت في اليهودية وكانت ربع مملكة اسرائيل ٠ اما هذه المملكة فكانت نقطة مركز العبادة لجميع بني اسرائيل لأئتلاف سكانها واتصاف معظم ملوكها بالفضيلة فقويت على مملكة اسرائيل ودامت بعدها نحو مئة واثنتين وثلاثين سنة اذ كان سقوط مملكة اسرائيل في عام ٧٢٠ وانتهاء مملكة يهوذا في عام ٥٨٨ قبل المسيح



الفصل الثامن

في مملكتي اسرائيل ويهوذا

ملخص

ا — في مملكة اسرائيل—تقلب السلطة— تبدل العواصم المتنابع — اشهر ملوكها — سقوط المملكة

ب — في مملكة يهوذا— لمحة عامة —محاربة اسرائيل— محاربة الاجنبي — آخر عهدها وسقوطها

ا —في مملكة اسرائيل (من ٩٧٥ الى ٧٢٠)

في تقلب السلطة في مملكة اسرائيل — استقرت مملكة يهوذا ما يربي على القرنين ونصف القرن—وفي خلال هذه المدة القصيرة تداول الامر فيها ثمانية عشر ملكاً من سبع سلالات مختلفة وكفى بذلك دليلاً على سرعة تقلب السلطة في هذه المملكة

وتلك السلالات هي سلالة ياربعام (من عام ٩٧٥ الى ٩٥٢) فنشاء منها ملكان فقط . وسلالة بعشا (من عام ٩٥٢ الى ٩٢٨) وهذه قام ايضاً منها

ماكان . وسلالة عمري (من عام ٩٢٨ الى ٨٨٤)خرج منها اربعة وسلالة ياهو وهذه تجاوزت مدتها مدة سائر السلالات (من عام ٨٨٤ الى ٧٧٢) فتولى منها خمسة ملوك . وسلالة منحيم (من عام ٧٧٢ الى ٧٦١) قام منها اثنان واخيراً سلالتا فاقح (من ٧٦١ الى ٧٣٠) وهوشع (من عام ٧٣٠ الى ٧٢٢) فلم يقم من كلٍ منهما إلاّ ملكٌ . وكان الاشوريون قد زعزعوا اركان مملكة اسرائيل في عام ٧٢٢ ولم يكن الاستئناف من تزعزعها حتى انقرضت وتلاشت

في عواصم مملكة اسرائيل شكيم
وترصة والسامرة

تبدات عواصم المملكة بتبدل الملوك وتقلب السلطة فكانت مباءة السلالة الاولى شكيم والثانية ترصة والثالثة السامرة

كانت شكيم مباءة الملك ياربعام وهي اليوم نابلس

حسنة الموقع قائمة في سفح جبل جرزيم في ناحية خصبة مخضلة غزيرة المياه بقرب بئر يعقوب التي سميت بعدئذٍ بئر السامرية · واتخذ بعشا ترصة مباءة لملكه على مقربة من شكيم غير انها كانت على رابية يسهل امتناعها وتحصينها وكان اسهل منه تحصين السامرة التي يقال لها اليوم سبسطية وقد ابتناها عمري بعد احتراق قصره في ترصة على جبل عالٍ منفرد يحدق به وادٍ جميل تنساب فيه المياه من كل جانب فلا تؤثر فيه حرارة الشمس المحرقة في ابّان الصيف

اشهر ملوك اسرائيل : ياربعام واخاب وهوشع ثلثة ملوك استلفتوا الانظار في تاريخ مملكة اسرائيل وهم ياربعام مؤسس المملكة واخاب الذي اشتهر بما اشتهرت به امرأته ايزابل من الكفر والقساوة وسوء المآلِ وهوشع الذي سقطت لعهده مملكة اسرائيل

ياربعام (من ٩٧٥ الى ٩٥٤) ان هذا الملك اغفل

كل ما يفيد مملكته منعة وثباتاً . وقد قال النبي شمعيا شمح الله بالهرج ليكون وسيلة لارتقاء ياربعام الى كرسي الملك فبدلاً من ان يقبل هذا الملك على الشعب كمختارٍ من لدن يهوه دفعه الى عبادة الوثن ونصب لهم عجلين من ذهب في طرفي مملكته وجعل احدهما في بيت إيل والآخر وضعهُ في دان ليحوّل انظارهم عن الصعود الى اورشليم والدخول في سلطة بيت داود قائلاً لهم : « لا حاجة لكم بعد بالصعود الى أورشليم هذه آلهتكم يا اسرائيل التي اخرجتكم من مصر . »

وفي ذلك الزمان مرض ابيا ابن الملك ولما لم يكن ليار بعام ثقة في كهنتهِ ارسل امرأته متنكرة لمشاورة النبي أحيا الذي تنبأ لهُ بالملك على اسرائيل . فأجابها احيا بكلام شديد قائلاً . « اذهبي وقولي ليار بعام كذا قال الرب اله اسرائيل من اجل اني رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيساً على شعبي اسرائيل . . . ولم تكن كعبدي

داود الذي حفظ وصاياي لذلك انا جالب على بيت
ياربعام الشر وقارض ليار بعام كل بائن بحائط من محجوز
ومطلق في اسرائيل ومتقص بيت ياربعام عن آخرهم
كما يتقصى البعر حتى يفنوا . »وتنبأ له عن وفاة ابنه
العاجل وسقوط مملكته . وتحقق القسم الاول من النبوة
عاجلاً : اذ مات الولد عند رجوع امه الى البيت . واما
القسم الثاني فقد تحقق بعد القسم الاول بعهد قريب
اذ قتل بعشا احد ضباط القصر ناداب بن ياربعام لسنتين
من ملكه ولم يترك ذا نسمة من نسل ياربعام الا قتله

احاب (من عام ٩١٧ الى ٨٩٧) ان احاب بن
عمري مؤسس الدولة الثالثة قد صنع الشر في عيني الرب
اكثر من جميع من تقدموه من ملوك اسرائيل . لم يكتف
هذا الملك بالسجود لعجول من ذهب بل اباح لامرأته
ايزابل ابنة ملك صور ادخال عبادة بعل وعشتاروت
حتى السامرة . وفضلاً عن ذلك انه اعتدى اعتداء

منكرًا على احد رعاياه . انه كان لرجل يدعى نابوت كرمًا
في يزرعيل (زرعين) الى جانب قصر الملك في تلك
المدينة فرغب اليه الملك في ان يبيعه كرمه فأبى محاذرة
الاخلال بشريعة موسى . فما كان من ايزابل إلا ان
اقامت على نابوت شهودًا زورًا بالخيانة ولما مثل بحضرة
الحاكم حكم عليهِ بالموت رجمًا . ولما ذهب وقتئذٍ الملك
للاستيلاء على الكرم الذي يبتغيه التقى فيه بايليًا النبي
فكلمه قائلاً : كذا قال الرب قتلت وورثت ايضًا . ففي
الموضع الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب
دمك انت ايضًا . . » وجاعل بيتك كبيت يار بعام و بيت
بعشا وستأ كل الكلاب ايزابل عند مترسة يزرعيل . »

وبعد ذلك خرج أَحاب مع يوشافاط ملك يهوذا
على راموت اشهر مدن جاعاد وتنبأَ ميخا للملك اسرائيل
بالموت فتنكر أَحاب بزي جندي ولكن لم يغنه التنكر
اذ اصابته نبلة عرضًا فمات عند غروب الشمس . ونقلت

جثته الى السامرة وغسلت مركبته المصطبغة بالدم في
بركتها وبذلك تم القسم الاول من نبوة ايليا القائل ان
الكلاب تلحس دم آحاب . واما القسم الذي فيه تنبأ
عن عقاب ايزابل فيتم على عهد يورام بن آحاب . لان
هذا الملك تعمد ايضاً استرداد راموت . فأخذ المدينة
ولكنه جُرح في اثناء الحصار جرحاً واضحاً خطراً اضطر
معهُ ان يعود الى قصره في يزرعيل (زرعين) ليتعالج
من الجراح التي اصابته وغادر عسكره في قيادة ياهو
رئيس الجيش فمسح اليشاع خلف ايليا ياهو ملكاً على
اسرائيل وسار هذا قاصداً يزرعيل . ولما كان يورام
يجهل الامر تقدم لملاقاته والقاء التحية عليه . ولما خاطبهُ
ياهو بقول شديد يشف عما يكنه صدره من الحقد فرَّ
هارباً ولكن رماه ياهو بالقوس وهو منهزم فاصابه بين
ذراعيه وطرحت جثته في حقل نابوت

وبينا كان ياهو داخلاً الى يزرعيل ابصر امرأة

مشرفة من احدى نوافذ القصر وقد تبرجت وتزينت بافخر ما عندها من الحلى . وكانت تلك المرأة ايزابل فامر ياهو بطرحها من الطاق فداستها خيله بسنابكها . ولما ارادوا دفنها لم يجدوا منها الا جمجمتها ورجليها وكفيها لان الكلاب كانت قد اكلت لحمها كما تنبأ ايليا

ورأى شعب السامرة استمالة ياهو واسترضاءه فذبحوا ابناء احاب وكانوا سبعين رجلاً ووجهوا رؤوسهم الى يزرعيل . ثم قتل ياهو جميع الباقين من بيت احاب وجميع عظمائه ومعارفه وكهنته . ودامت دولة ياهو في اسرائيل قرناً او يزيد

في ملك هوشع (من عام ٧٣٠ الى ٧٢٢) وسقوط مملكة اسرائيل

كان هوشع اخر ملوك اسرائيل تسنّم الملك بقتله فاقح وانحصرت حدود مملكته بالسامرة . لان الاشوريين

كانوا قد استولوا على ما انسلخ عنها وضربوا الجزية على كل من لم تظفر به ايديهم . فخالف هوشع شبات الحبشي الذي كان قد افتتح مصر تنصلاً من الجزية ولما بلغ ذلك شلمناسر زحف الى هوشع فقبض عليه واحتلّ بلاده وحاصر السامرة (عام ٧٢٢) فلم يفز بها فأعاد سرجون خلفهُ الكرة عليها ولم يزل بها حتى اخذها عام (٧٢٠) وبذلك سقطت مملكة اسرائيل

ب — مملكة يهوذا (من عام ٩٧٥ الى ٥٨٨)

لمحة عامة — لم تقلق داخلية مملكة يهوذا الثورات التي اقلقت داخلية مملكة اسرائيل . وقد ولي امرها في خلال الثلاثمئة والسبع والعشرين سنة من مدتها عشرون ملكاً وكان جميعهم من سلالة واحدة اي من سلالة رحبعام ما عدا عثليا . وقد امتاز معظمهم على ملوك اسرائيل في آدابهم الا القليل منهم وهم احاز

ومنسى وامون وآسا ويوشافاط وعزيا ويوسام وحزقيا ويوشيا وقد انحصر تاريخ هذه المملكة الخارجي في امرين وهما : محاربة مملكة اسرائيل ومحاربة ملوك مصر واشور او بابل

محاربة ملوك اسرائيل — لم يكن بدٌّ من نشوب الحرب بين مملكتي يهوذا واسرائيل لتقاربهما والتصاق حدود الواحدة بالاخرى وبعبارة اخرى لم يكن بينهما حدود طبيعية . وقد دامت الحرب بينهما ما دامت مملكة يهوذا وكانت نتائجها مختلفة ولما ولي يوشافاط امر يهوذا (من عام ٩١٤ الى ٨٨٩) وكان يماثل بحكمتهِ سليمان انحاز عن السياسة التي جرى عليها من تقدمهُ من ملوك يهوذا مع ملوك اسرائيل فاتفق مع احاب على ارسال حملة لمحاربة راموت جلعاد شرقي الاردن فلم تفلح وخطب عتليا ابنة احاب لابنه يهورام وعادت هذه المحالفة المنعقدة بين ملكين مختلفي المبدأ احدهما تقي ورع

والآخر كافر بالويل على مملكة يهوذا

ووليه ابنه يهورام عام ٨٨٩ فدان هذا لسلطة عثليا امرأتهِ فبغضهُ الشعب لقساوتهِ واعتسافه ومات على اثر علة وبيلة نزلت في امعائهِ لاربع سنوات من ملكهِ عام (٨٨٥) وخلفه ابنه احزيا وقد جرى على مثال ابيه في الشر فقتل تحت انقاض بيت آحاب فقبضت حينئذٍ عثليا على ازمة الملك في داود باجتراحها افظع الآثام

ان احزيا مات عن اولاد صغار ولكن عثليا بدلاً من ان تُعنى بالايتام عناية الام اغواها الطمع على ابادتهم دون رحمة طعناً بالخنجر

فاستتب الملك لها وللبعل . فأخذت الدهشة سكان اورشليم الذين اضطروا للخضوع الى هذه الملكة الخالعة العذار مدة ست سنوات (من ٨٨٤ الى ٨٧٨)

ولكن لم تنجُ هذه الملكة من العقاب فان

يهوشابع امرأة يهوياداع الحبر قد اختلست يواش اصغر بني اخيها من سريره الذي كان عليه كميتٍ في وسط المحل الذي جرت فيه المجزرة وخبأته ست سنين في الهيكل حتى اذا كانت السنة السابعة من ملك الاجنبية الكافرة أخرج الحبر يواش من خبائهِ ومسحهُ ملكاً بكل احتفال في الهيكل ولما نمى الخبر الى عثليا اسرعت الى الهيكل وهي تكاد تميز من الغضب والوعيد فابصرت يواش مستوياً على الكرسي وعلى راسه التاج والى جانبه الحبر يهوياداع وعند قدميه يهوشابع عمته وقد حفَّ به فريق من اللاويين وقد شهروا السيوف لحراستهِ فأَخذ القلق عثليا مع صلفها وكبريائها فأجالت النظر في الهيكل فاذا ابوابه مقفلة فنادت حرسها وليس من مجيب

فمزّقت عندئذٍ ثيابها من اليأس والقنوط وصاحت: «الخيانة الخيانة» فأمر الحبر بأخذها خارج الهيكل

وتحكيم السيف في عنقها» فانفذ للحال امرهُ وداست الخيل بسنابكها جثة الكافرة كما داست جثة والدتها ايزابل . وفي تلك الاثناء قوضت هيا كل البعل وذبح ماتان كاهنه . اما يواش فلم يحسن الانتفاع بهذه النعمة الكبرى ولا استفاد من هذه العبرة المثلى لانهُ سار في الشعب سيرة الحكيم العادل مدة حياة كفيله يهوياداع الذي عاش مائة وثلاثين سنة واستحق ان يدفن حذاء الملوك

ولكن ما لبث يواش ان استرسل بعد موتهِ الى المساوىء والاثام فسجد للصنم وأفسد الشعب باغوائهِ على ان يحذو حذوه . فانذره ذكريا بن يهوياداع ووبخ الشعب على خيانته ومعصيته . فقتل رجماً بامر الملك فقال وهو يجود بروحهِ «ينظر الرب ويطالب» فطالب الله يواش بدم زكريا فقتله عبيده بعد ان حمَّله ذل العجز عن صيانة عاصمته وقصره من غزوات سوريي دمشق

وقامت الحرب ايضاً بين اسرائيل ويهوذا فدارت

فيها الدائرة على الثاني

لما استظهر أمصيا بن يواش على الادوميين في وادي الملح أخذته نشوة الانتصار فسار يطلب ملك اسرائيل قائلاً له: «هلمَّ نتراءى مواجهةً» فصعد ملك اسرائيل ورأى أمصيا مواجهة فغلبه واخذهُ اسيرًا ونهب قصره والهيكل ولم يخلِ سبيله إلاّ برهناء عديدين

محاربة ملوك مصر واشور وبابل — ان محاربة الملوك الذين كانت ممالكهم تحدق بفلسطين كانت اشد خطرًا من محاربة اسرائيل اذ كانت عاقبتها سقوط مملكة يهوذا

ففي ايام رحبعام كان قد دخل شيشق ملك مصر اورشليم فنهب نفائس الهيكل وما فيه من ذهب وفضة

وبعد ذلك بقرنين دخل الاشوريون فلسطين اذ استنجدهم آحاز ملك يهوذا للانتقام من ملك اسرائيل الذي عاث فسادًا في اليهودية. فاخرب الاشوريون نحو

نصف مملكة اسرائيل مرتقبين اليوم الذي فيه يتمنون خرابها وكان ذلك اليوم قريباً . اذ دخل الغزاة مملكة يهوذا وخربوها

وتهدد الدمار مملكة يهوذا لعهد حزقيا بن آحاز (من عام ٧٢٦ الى ٦٨٥) اذ كان سرجون ملك اشور قد دمرّ مملكة السامرة عام ٧٢٠ فلما رأى حزقيا ما كان من خراب السامرة اوجس خيفةً من اتصال الخراب بيهوذا فالتزم السكينة مدة عشرين سنة . ولكنه اضطر الى العمل بمشورة الحزب العسكري في بلاده فتجرأ على قطع العلائق مع ملك اشور بالرغم من انذار النبي اشعيا . فزحف سنحاريب خلف سرجون الى ان وقف بعسكره عند اسوار اورشليم . ولما كان حزقيا يخاف الرب اعانه الله على اعدائه فأفنى الطاعون منهم مئة وخمسة وثمانين الفاً وفرّ سنحاريب وحده ولم يأوِ بعد ذلك على فلسطين

في آخر ايام مملكة يهوذا وسقوطها ٠— (من عام ٦٨٥ الى ٥٨٨) وخلف حزقيا الفاضل ابنهُ منسى فحاد عن طريقه وصنع الشر اقتداء بآخاب الكافر وبايزابل القاسية٠ وناصب جميع الانبياء الذين انذروه بشر غوائل سيرته وأمر بنشر اشعيا الشيخ بين لوحين٠ فعاقب الرب الملك بنزع اورشليم منهُ وبلاه بأسرٍ طويل المدة في ما بين النهرين ولم ينجُ منه حتى اعترف للاشوريين بالسيادة ورضي عن تأدية الجزية لهم عن يدٍ وهو صاغر

ومنذ ذاك الحين فرض الاجنبي على يهوذا الجزية ولم يتنصَّل من الرق إلا بسقوط مملكة اشور ولكن ما ابثت ملوك مصر ان اذلته على اثر منازلة يوشيا ملك يهوذا لنكو ملك مصر في وادي مجدّو (عام ٦٠٨) واستظهر بعد حين نبوكدنصّر ملك بابل على نكو ملك مصر فاضطر يهوذا الى ان يؤَدي الجزية للظافر٠ وفي

عام ٦٠٣ استولى نبوكدنصّر على قسم من آنية الهيكل وجلا الى بابل عدةً من اولاد الاشراف منهم دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا ٠ وكان هذا السبي الاول الذي طالت مدته سبعين سنة

وأَشار على صدقيا الملك (من عام ٥٩٩ الى ٥٨٨) محبو الانتقام بالامساك عن تأْدية الجزية

فما كان من نبوكدنصّر الا ان زحف الى اورشليم (٥٨٩) وكان ارميا النبي يحرض الشعب على الطاعة فلم يلقَ سميعاً بل القي في السجن وبعد ان قاومت اورشليم مقاومة طويلة سقطت في ايدي العدو ومات اولاد صدقيا ذبحاً وفقئت عيناه وسيق اخيراً الى بابل حيث قضى بقية ايامه في سرداب واحرقت اورشليم فصارت رماداً ونقوض الهيكل وقتل عظيم الكهنة وكبار المأْمورين وكثير غيرهم من الاعيان وهرب جمهور من الوطنيين فانتقى نبوكدنصر فريقاً من الذين بقوا في المدينة

وجلاهم الى بابل وهكذا تحطمت اليهودية فرفع عندئذٍ
ارمياصوته راثياً اورشليم رثاءً شجياً

— مختصر —

كانت ايام مملكة اسرائيل التي تألفت من الجليل
والسامرة ميئتين وخمساً وخمسين سنة . وليها ثمانية عشر
ملكاً وسبع دول او سلالات وكان لها ثلاث عواصم:
واشهر ملوكها ثلثة وهم ياربعام الذي ملك من (٩٧٥
الى ٩٥٤) وهو مؤسس المملكة . وآحاب الذي دامت
ايامه من (٩١٧الى٨٩٧) وقد عرف مع امرأته ايزابل
وابنته عثليا بشرهم وسوء عاقبتهم . وهوشع ملك من
(٧٣٠ الى ٧٢٢)فاستولى شلمناسر في ايامه على السامرة
وبعد ذلك بسنتين اي عام ٧٢٠ خرّب سرجون مملكة
اسرائيل

كانت ايام مملكة يهوذا ثلث مئة وسبعاً وثمانين

سنة وقد وليها عشرون ملكاً فقط وكلهم من سلالة رحبعام وقد امتاز اكثرهم باخلاقهم ومزاياهم على ملوك اسرائيل · وجل تاريخ مملكة يهوذا في الخارج يقتصر على ذكر الحروب التي شبت بينها و بين مملكة اسرائيل والاجانب

فاستظهرت على اسرائيل لعهد آبيا وآساواندحرت لايام آمصيا وآحاز · ولما حاد يوشافاط عن الخطة السياسية التي كان يترتب عليه الجري عليها مع اسرائيل حالف آحاب وخطب ابنته عثليا لابنه يورام ونشأ عن ذلك اضطراب ورجاسات في يهوذا

واما ما كان من امر يهوذا في محاربته الاجنبي فانه لم يظفر منهُ بشيءٍ إلاَّ بانقاذ اورشليم العجيب من ايدي سنحاريب لعهد حزقيا وفي عهد منسى عام (٦٨٥) خضعت للاشوريين فأدّت لهم الجزية ثم للمصريين واخيرًا للبابليين · ولما حاول صدقيا الامساك عن تأدية

الجزية حمل عليه نبوكدنصر فاستولى على اورشليم وجلا سكانها الى بابل عام (٥٨٨)

الفصل التاسع

السبي والرجوع منه

١ — في السبي

لم ينكف اليهود عن ترديد الاسف لجلائهم عن اورشليم في اثناء اقامتهم على ضفاف الفرات ولنا في المزامير شاهد على اسفهم وبكائهم حيث اعربوا عن حنينهم الى الوطن بعبارات لم ينظم شاعرٌ ارق منها واشجى وهذا بعضها :

« على انهار بابل هناك جلسنا . بكينا ايضاً عندما تذكرنا صهيون . على الصفصاف في وسطها علقنا اعوادنا . لانه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذّبونا

سأَلونا فرحاً قائلين رنّموا لنا من ترنيمات صهيون

كيف نرنم ترنيمة الرب في ارض غريبة . ان نسيتك يا اورشليم تنْسَ يميني

ليلتصق لساني بحنكي ان لم اذكركِ ان لم افضل اورشليم على اعظم فرحي »

ولكن العيشة المطمئنة التي مهدها الظافرون للمسبيين قد سترت عنهم الاحزان واساغت غصة الجلاء لان السبي لم يكن من نوع العبودية وقد طابت الاقامة في بابل لكثير من الاسرائيليين فاحرزوا فيها الثروة ودخل منهم في خدمة بلاط الملوك . ولما اصدر كورش أمره عام ٥٣٦ بعد استيلائهِ على بابل في ارجاع المبعدين الى اوطانهم لم ينتفع بهذا الامر إلاَّ سبطا بنيامين ويهوذا .

ب — في الرجوع من السبي (٥٣٥)

زر بابل — ان زر بابل من نسل يوا كيم أخذ على نفسه ارجاع الجالين الذين كان عددهم نحواً من اربعين الفاً . فرجع هؤلاء الى مواطنهم حاملين بأمر كورش الآنية المقدسة التي كان قد سلبها نبوكدنصر فضلاً عن تقادم اخوانهم . وجل ما انصرفت اليه عنايتهم بداءة بدء تجديد بناء الهيكل فوضع زر بابل والحبر يشوع الحجر الاول بمزيد الاحتفال . غير انهُ قد اعترض في ذلك الحين ما اوقفهم عن العمل وهو ان السامريين الذين تألفوا من الوطنيين ومن الاشوريين الذين اقاموا في اسرائيل لعهد اسرحدون قد طلبوا الى كورش ان يمنعهم من اكمال البناء فأجابهم الى ذلك . ولم يستأنفوا العمل حتى ولي داريوس بن هستباس الملك وكان تدشين الهيكل عام (٥١٥)

عزرا — اقام زربابل الهيكل وتولى عزرا تنظيم الشعب واحياءَ شريعة موسى وكان قد رجع في السنة السابعة من ملك ارتزركسيس الملقب بطويل الباع ومعهُ جالية جديدة مؤلفة من الف وخمسمائة رجل

نحميا — وكانت اسوار اورشليم لم تزل لايامه مهدومة وساحاتها مكشوفة لهزء الجيران وسخريتهم فلمّا عرف نحميا اليهودي ساقي الملك ارتزركسيس (ارتحششتا) الملقب بطويل الباع بهذه الحال المحزنة استأْذن الملك باقامة اسوار اورشليم فأَذن لهُ عام (٤٤٥) وانفق اثنتي عشرة سنة في تنظيم شؤونها الادارية • وامر عزرا ان يقرأَ على الشعب شريعة موسى فجدد الشعب عهدهُ مع يهوه بكل احتفال •

— مختصر —

عزّ العزاء بداءة بدء على اليهود لبعدهم من اورشليم
وما لبثوا ان ألفوا الجلاء شيئاً فشيئاً لانهُ كان مع خفة
وطاءته مفيداً لهم . وكان عدد الذين إئتمروا بامر
كورش الصادر عام ٥٣٦ في الصعود الى اورشليم
اربعين الفاً جدد زربابل بناء الهيكل وكان الفراغ منهُ
بعد اعتراض السامريين دون بنائه في عام
٥١٥ واحيا عزرا شريعة موسى ونظمها
وبنى نحميا اسوار اورشليم
عام ٤٤٥



الفصل العاشر

تمدن العبرانيين

ملخص

الديانة — العلوم والفنون والآداب — الزراعة والصناعة والتجـارة

١ — الديانة —

قد أُوتي الشعب العبراني فخرًا بقبوله عقيدة وحدانية الله ومحافظته عليها مع تكاثر الزندقات والكفر وقد قامت اهمية تاريخه بايمانه في يهوه وبهذا الايمان امتاز من سائر الشعوب القديمة . وبينا كانت الامم التي انبثت حوله تسجد للبعل وتتدنس بعبادات شاينة كان وحده يعترف ان الله واحد روح خالق عادل رحوم

ولئن كانت عبادة هذا الاله مقرونة بالمحافظة على فروض خارجية فان جوهرها كان قائمًا على اعمال داخلية

وهما الطاعة والمحبة . وكان صموئيل يقول لشاول « ان الطاعة خيرٌ من الذبيحة » وقد جاء في الشريعة « تحب يهوه الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك » فمحبة الله تشمل محبة القريب « تحب قريباك كنفسك » فهذان المبدآن هما مصدرا أدب خالص سامٍ يفوق تعاليم الفلاسفة ولا يسمو عليهما إلا ألادب المسطر في الانجيل

— ب في العلوم والفنون والآداب —

لم يتقن العبرانيون العلوم والفنون ومن المعلوم انهُ لما اراد سليمان ان يبني الهيكل اضطر الى استنجاد صناع الفينيقيين وعملتهم وكذلك فعل عندما اقدم على الملاحة . ولم يكونوا في شيء من الرياضيات ولم تنظم موازينهم ومكاييلهم ومقاييسهم على قواعد علميـة لانهم كانوا يأبون الانقطاع الى النظر في العقليات ويكبون

على الماديات التي اتقنوها واحبوها محبة بلغت حد الغرابة كما يتبيّن ذلك جلياً في عدة صور ورسوم واضحة ٠ وقد قال نشيد الانشاد« لنبكرنّ الى الكروم لننظر هل ازهر الكرم هل تفتح القعال هل نوّر الرمان ٠ ٠ ٠ اللفاح يفوح رائحةً وعند ابوابنا كل النفائس ٠»

وقد برع العبرانيون في الموسيقى واحكموا وضعها واتقانها فنظم داود الموسيقى في الهيكل حيث كانت الاجواق توقع المزامير على القيثارة والسنطير والصنج وكانت الموسيقى ألذ شيء عند العبراني حتى انهُ كان يطرب من صوانها عند تناوله الطعام ومن الراجح ان الالحان العبرانية كانت موضوعة على طريقةٍ يحسن وقعها في النفس لانها كانت تصلح لكشف ما في الصدر من العواطف الشجية والحماسية على اختلاف انواعها٠ وكان الاجانب يطربون ايضاً منها بدليل الحاح خفراء بني الجلاء على العبرانيين في بابل ان يطربوهم باغانيهم

الوطنيـــة

ولا يخفى ان الشعر والموسيقى صنوان فلاغرو اذا هام العبرانيون بالموسيقى وقد ادركوا المقام الاول بين الشعراء ٠ فاين منظومات الشعراء العالميين من المزامير التي تجلي بها عواطف النفس الصادقة بل من اقوال اشعيا وارميا وحزقيال الحماسية وتصوراتهم البراقة

ج — الصناعة والتجارة

لما كان العبرانيون رعاة مواشٍ وزرّاعاً لم يحفلوا بالصناعة وقد استنجدوا الاجنبي لاصطناع ما يسد حاجاتهم الى الجاه والترف والزينة التي دخلت مع داود وسليمان الى بلادهم ومن الملوك تطرقت الى الخاصة فصفحت جدران البيوت بالخشب واقيمت على الاساطين من خشب الارز والسرو المنحوتة نحتاً بديعاً وفرشت ارضها بالبسط والسجاد ذات الالوان الساطعة واكتسى

الاسرائيلي بالحرير والاقمشة الصوفية الناعمة والكتان من الابيض والارجواني والبنفسجي واستعمل العطور والمطيبات كالبخور والمر وغيرها من الذرور والزيوت العطرية

واشد ما كان الترف عند النساء وقد وبخهم عليه النبي اشعيا فاستهجن عقودهم الذهبيــة ولآلئهم واساورهم وشنوفهم وخواتمهم والحجارة الكريمة التي تتدلى على جباههم واثوابهم الفاخرة وقمصانهم وازرارهم ومرائيهم .

وهذا ما قاله « ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والاهلة والحلق والاساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والاحراز والخواتم وخزائم الانف والثياب المزخرفة والعطف والاردية والاكياس والمرائي والقمصان والعمائم والأزر فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسح

وعوض الجمال كي ٠»

كانت التجارة ولم تزل حتى اليوم مورد ثروة اليهود وقد انحصرت قديماً في اصدارهم الى بلاد الفينيقيين حاصل زراعتهم كالعسل والزيت والخمر ٠ وقد اتسع نطاق التجارة لعهد سليمان الذي كان يستورد الاموال الطائلة من الاتجار بحاصلات مصر فضلاً عن بعثاته التجارية ولكن ما لبثت ان تضعضعت من بعده فسقطت على اثر الحروب والمنازعات التي حدثت في ايام الخلف ودامت على هذه الحال الى ان راجت سوقها بعد السبي اكثر ما كانت قبلاً لان فريقاً من اليهود قد اقام في الاسكندرية لعهد البطالسة فصارت لهم وطناً ثانيـاً ٠

— مختصر —

ان ديانة العبرانيين تفوق ديانات سائر الشعوب القديمة لانها لم تقم في المحافظة على المظاهرات والاعمال الخارجية بل على الاعمال الباطنية وهي محبة الله والقريب لم يتقن العبرانيون العلوم ولم يأْخذوا من الفنون إلا الموسيقى فبرعوا في الشعر والأدب حتى اتوا منها بما يصلح ان يكون مثالاً منقطع النظير ·

ولما كانوا مكبين على الزراعة لم يحفلوا

بالصناعة والتجارة الا

بعد السبي



المصريون

الفصل الاول

جغرافية مصر

رسم مصر — النيل — اهمية النيل — فيضانه — الاقليم او المناخ — الحاصلات . الحيوانات — اقسام مصر

رسم مصر ومساحتها — ليس من جغرافية بلاد اسهل وابسط من جغرافية مصر وهي قطعة ارض عريضة مرملة تمتد من دائرة السرطان حتى البحر المتوسط ما بين البحر الاحمر وصحراء ليبيا وتربي مساحتها على مساحة ارض فرنسا . وينساب وادي النيل ضيقاً في وسطها حيث يطيب الماء والهواء ثم ينفرج انفراجاً لا يزيد على خمسة او ستة فراسخ وينبسط انبساط السهل عند ممفيس حيث مبتدأ الدلتا . فذاك الوادي وهذا المثلث يصلحان دون سائر اقسام مصر للسكن ومساحتهما تسعة وعشرون

الف كيلومتر مربع نحو مساحة ارض بلجكا

النيل — ما كانت مصر من دون نيلها الاَّ صحراء قاحلة وهذا النهر الذي يحسبونهُ اطول نهر في المعمور يبلغ طولهُ الفاً وثماني مئة فرسخ او يزيد من نحو خط الاستواء حيث ينقبون عن مصادرهِ حتى البحر المتوسط والظاهر ان النيل الحقيقي او النيل الابيض يجري من بحيرات كبيرة اكتشفها في ايامنا الجوالة الانكليز بورتون وسبيك وكرانت و باكر وستانلي · فعقيب ان يتلقى من الشرق مياه بحر الغزال او نهر الغزلان تمتزج مياههُ عند الخرطوم عاصمة نوبيا بمياه النيل الازرق الذي يجري من بلاد الحبشة

وآخر سواعدهِ اطبره المسماة قديماً (استابوراس) ويعترض مجراه في بلاد الحبشة صخور ومجاري مياه سريعة سماها الاقدمون جنادل او شلالات وكانت هذه الشلالات قديماً حاجزاً في سبيل الملاحة اما اليوم

فقد استظهرت عليها قوة البخار

وعند الجندل الاخر المعروف بجندل سيان واليوم اصوان يبرح النيل حدود الحبشة فيصير نهراً مصرياً . ولم يزل طول مجراه حتى البحر المتوسط الفاً ومئة كيلومتر وهذه المسافة تعادل مسافة مجرى نهر االوار اكبر انهر فرنسا ويبلغ عرضه من ست مئة الى سبع مئة متر. ومبلغ مياهه يتناقص تدريجاً كلما اقتربت من البحر اذ لا سواعد لهُ بخلاف سائر الانهر ويسرب قسم من تلك المياه في قني عديدة منشأة على ضفافه اسقي الاراضي ويبلغ حجم مائه عند مصبه في البحر المتوسط مبلغ مياه نهر الرون او يزيد

ويجري النيل بين سلسلتي جبال متقاربة :احداهما شرقية وهي سلسلة جبال بلاد العرب والاخرى غربية وهي سلسلة جبال ليبيا . ومن هذه الجبال المتكونة عند اصوان من الصوان الاحمر ثم من مواد رملية واخيراً

كاسية تؤخذ المواد لانشاء الابنية الضخمة

اهمية النيل — قال هيرودوتس «ان مصر هبة من النهر» والحق يقال ان النيل قد انشأ الدلتا او المثلث الذي هو اعظم قسم من ارض مصر اذ تبلغ مساحته ثلثة وعشرين الف كيلومتر مربع على ان مساحة الاراضي المحروثة تسعة وعشرون الفاً . وكان القسم المعروف قديماً في مصر بالدلتا خليجاً قريب الغور فطمرته الاجراف التي تحملها مياه النهر وحولتها بداءة بدء الى مستنقعات ثم جفت بانحجاز مياه البحر عنها في قطع متفرقة تكونت منها بحيرات وهي مريوط وبولوس والمنزلة وباحج وتمساح والمرة الخ . وكان النيل يصب في البحر المتوسط من سبع جهات اما اليوم فيذكر منها شطران شطر الرشيد في الشمال الغربي وشطر دمياط في الشمال الشرقي

فعليه يكون النيل قد انشاء قسماً من مصر بل

يصح القول انهُ قد انشأَها كلها لانهُ غشى بالطين الخصب الوادي الذي كان من قبل مرملاً · ويكسبهُ في كل سنة خصباً لانهُ من دون الطين الذي يدمل النهر به الارض لاينبت فيها حب ولا خضرة ولاشجرة ولا كلاء لكثرة ما فيها من الرمال ولوقوعها في اقليم محرق لا يرطبه من المطر رذاذ

فيضان النيل — تزيد مياه النيل في كل سنة عدة امتار على اثر الامطار التي تتساقط في نواحي البحيرات الكبيرة وعلى جبال بلاد الحبشة العليا · وفي اواخر شهر حزيران تزيد مياه النيل فجاءة وتنبث في القني التي تخترق الوادي من كل ناحية الى ان تطفو على المزدرعات فترطب الارض وتودعها طيناً خصباً · ويبلغ فيضان النيل معظمه في الحادي والعشرين من ايلول ثم ينخفض سريعاً وترد المياه الى مجاريها في كانون الثاني · فيعمد عندئذٍ الزارع الى البذار وموعد الحصاد في شهر اذار

وفي اثناء الفيضان يرقب سكان المدن والقرى القائمة على مرتفعات صناعية او طبيعية كالجزر وسط البحار حركة الفيضان وهم قلقون لان اقبال المواسم وامحالها يتوقفان على درجة ارتفاع مياه النيل وهبوطها فاذا بلغ ارتفاعها من خمسة الى سبعة امتار كان الموسم مقبلا ومن ثلثة الى خمسة او من سبعة الى ثمانية كان بين بين ومن الثلثة الى الثمانية كان ممحلاً . ففي الحال الاولى تكون المياه دون الحاجة وفي الثانية تربي عليها فتقوض السدود وتخرب الاراضي

وتتلون مياه النيل في اثناء الفيضان تلوناً لا ينظره جلياً بوجوهه كلها إلاَّ من كان يرقب هذا الحادث في مصر العليا

فالماء الذي يكون عادة ازرق صافياً يصير اخضر لزجاً كالماء الآسن وفضلاً عن ذلك انهُ لا يصلح للشرب ويقال لهُ النيل الاخضر . وفي ثلثة او اربعة

ايام من تلونه بهذا اللون يصير كدرًا وفي عشرة او اثني عشر يومًا يتكاثف و يصطبغ بالاحمر القاتم حتى يخيل لناظره انهُ نهر من دم ويقال لهُ عندئذٍ النيل الاحمر . ومتى بلغ الماء معظم درجات فيضانه يصطبغ بالاحمر المشرب صفرةً

فكما شق على المصريين الاهتداء الى ينابيع النيل عزَّ عليهم ايضاً معرفة اسباب فيضانه كل سنة في اوقات معلومة . وكانوا يعتقدون الفيضان من خوارق الطبيعة فمن اوهامهم ان ايزيس بينا كانت تبكي اخاها اوزيريس سقطت دمعة من اجفانها في النهر فكانت دمعة هذا المعبود علة لفيضان مياههِ

اقاليم مصر ومناخها — ليس في مصر إلا فصل واحد من فصول السنة وهو صيف دائم لان جوها يكون دائمًا صافيًا لا يغيم الا في بعض سواحل البحر المتوسط . ولكن النيل يغنيها عن المطر فيتبدل بفضله

وجه ارضها ففي حزيران اي قبل الفيضان يكون وجه الارض جافاً مغبراً مخضراً وفي آب وايلول يتحول الى بحيرة فسيحة الجوانب ومتى ارتدت عنه المياه غادرته اسود مغشى بالطين وفي شهر شباط ينضر وجهها وتكسوه الخضرة والازهار وتموج عليه السنابل كما يموج ماء المحيط

ومع شدة حرارة الشمس في مصر لا تزيد درجة الحرارة عن حد الطاقة الا اذا هبت ريح الخمسين التي يقال لها «الشروق» وهي ريح يدوم هبوبها نحو خمسين يوماً من اذار حتى انتصاف ايار · وقد قال فيها الشاعر «متى ملاءت انفاسها الحارة الجو بالغبار الدقيق استعرت النار في كل ناحية وانفطر التمساح باكياً في بيته»

غلاتها او حاصلاتها — ان الطين الذي يودعه النيل ارض مصر كان يكسبها خصبا لانبات ما كان يزرع فيها اولاً دون عناء كالحبوب من حنطة وشعير

وجاورس نوع من الذرة · وبرطوبة الارض صارت صالحة لزراعة الفول والبقول والاثمار التي كان العبرانيون يتوقون اليها كالقثاء والبصل والبطيخ وكانوا يستنبتونها ايضاً الترمس والحمص والعدس والخروع

ومن اشهر نباتها المائي الخندقوق والبردي فمن الاول كانوا يصنعون نوعاً من المعجنات الفاخرة اللذيذة ومن الثاني اصطنعوا ليس فقط القرطاس والاحذية للكهنة وزوارق الصيد بل اتخذوا منهُ خبزاً · وهذا الخبز كان عندهم من الحلويات الشهية يتناوله ملوكهم على الموائد

واما النخل فكثير في مصر تتألف منه الغابات والاحراج التي لم تزل غضة حتى اليوم · وهناك ايضاً الخرنوب والجميز والرمان والمشمش والتين

حيواناتها — أُدخلت الخيل والحمير الى مصر بعد تأسيسها بزمان بعيد · واما الثيران والماعز والكلاب

والارانب والنمس والغزال فقد كانت فيها منذ نشأتها . ومن الحيوانات الجيدة في مصر الحمير . ومن الضواري فيها الهر البري والذئب وابن آوى والضبع والنمر والاسد . وقد جلا عنها في هذه الايام فرس البحر وزايل مياهها التمساح قاصداً الجنوب وقد ابصر شامبوليون منذ ستين سنة جماعات من هذا الحيوان تتألف الواحدة من اربعة عشر تمساحاً رابضة على جزيرة صغيرة . وتكثر الحيات في مصر من سامة وغير سامة اما السامة فمنها الافعى والصل الذي يبلغ طولهُ مترين وقد اتخذه الفراعنة شعاراً يزينون به رؤوسهم

وفي مصر طيور كثيرة مختلفة الانواع فهناك النسر والصقر والباز والباشق والعقاب والحمام والعقعق واليمام والحجل والدوري والكركي الابيض والاسود والبجع والغواص والقوق والاوز والبط الذي كان يكثر في المياه وهذان النوعان الاخيران من الطير كانا اليفين

يقومان عندهم مقام الدجاج التي لم تكن ثم معروفة

واما الاسماك فكانت من اغزر الموارد في مصر وكل ما تقدم من حيوانات وطيور واسماك كانت كافية لاعالة عدد عديد من السكان . ولم تزل مصر حافلة في ايامنا بالسكان اذ يبلغ عدد سكانها اليوم نحو عشرة ملايين وقد كانوا من قبل اوفر عدداً فحسب احصاء البعض من عشرة الى خمسة عشر مليوناً وحسب احصاء البعض الآخر كان يربي عددهم على ذلك

اقسام مصر — تقسم مصر في ايامنا الى سفلى ووسطى وعليا . واما قديماً فكانوا قد اقتصروا على تقسيمها قسمين مصر العليا او الصعيد واشهر مدنها ثيبة ومصر السفلى حيث كانت ممفيس والاهرام

مختصر

ان النيل علة وجود مصر التي تبلغ مساحتها تسعة وعشرين الف كيلو متر مربع ومنه استفادت قسماً فسيحاً من اراضيها وبه تخصب كل سنة · وموعد فيضان النيل من حزيران حتى كانون الاول · وتنبت ارضها الحبوب بغزارة وكثيراً من البقول والاثمار ولذلك يحتشد فيها السكان ويلطف المناخ في الشتاء ويشتد الحر في نيسان · واما الاجنبي فلا يحتمل حرّ مصر العليا·



الفصل الثاني

في اصول المصريين

ملخص

أصل المصريين — عهد الالهة وتخرصاتها — معنى ذلك العهد التاريخي — الشكل المصري

اصل المصريين — قال الكتاب ان منشأ المصريين آسيا « وجاء في سفر الخروج ان مصرايم بن حام استوطن مع ابنائه ضفاف النيل » ولاشك ان المصريين دخلوا مصر من آسيا عن طريق برزخ السويس فألفوها مقفرة وليس في وادي النيل الاّ تلالاً وركاماً قاحلة او مستنقعات موءذية ومثلها الدلتا ولكن ما لبثت هذه الارض العقيم ان اخصبت وامرعت بهمة البشر وصبرهم

عهد الالهة الملوك وتخرصاتها — تمادت الاجيال

والاحقاب على اصلاح ارض مصر وسكانها . وكانت الالهة تتولى امر المصريين في تلك القرون والاجيال الطويلة ويزعم المصريون ان الالهة قد افادت مصر فائدة جزيلة . فالمعبود اوزيريس قد ابطل أكل لحوم البشر والالهة ايزيس شقيقته قد علمت المصريين كيف ينتفعون بالحنطة والشعير وتوتا الاله العظيم كان اعظم محسن اليهم اذ علمهم الحساب والهندسة والمساحة والرسم والموسيقى والخط والطب وبالجملة كل الفنون والصنائع كصناعة الاسلحة لمهاجمة الحيوانات وادوات الزراعة وفي ايامه ضبط مجرى النيل وحرثت الارض

معنى عهد الالهة — ان القصص والتخرصات التي وضعت في عهد الالهة كانت ترمز الى التأني والسكون في العمل بالمام الكهنة منذ ابتداء الاجيال وعن هذا العمل نشأ التمدن المصري الذي يظهر لنا في ابان زهوته عند نشأة التاريخ لخمسة الاف سنة ق . م .

وكان نظام البلاد في ذلك العهد شأن انظمة سائر الامم اذ تكون في مهدها

كانت مصر تقسم الى عدة ممالك صغيرة مستقلة وكان مرجع روساء تلك الممالك الى الالهة. وكان يفرض عليهم الخضوع والطاعة لتراجمتها اي الى الكهنة. ولكن ما لبثت سلطة الجنود ان تغلبت على تمادي الايام على سلطة الكهنة واستحكمت سلطة الرئيس الواحد في القبائل المتفرقة فجمعتها الى قبيلة واحدة ومملكة واحدة فزالت دولة الالهة وخلفتها دولة الملوك

الشكل المصري — كان المصريون عموماً طويلي القامة عريضي الاكتاف اقوياء الصدر ضيقي الخصر لاتناسب في ابدانهم ولهم وجه بيضاوي الشكل وجبين اتئ قليلاً وعينان صغيرتان وشفتان غليظتان . يولد المصري ذا بشرة بيضاء ولكن تكمد بعد حين وتسمرّ من التعرض لنور الشمس وحرارتها وهذا ما كان يحدث غالباً

للاكّار الذي كان لونهُ حديدياً . وقد تجدد هذا الشكل في ايامنا ولا سيما عند الفلاح سكان الارياف

مختصر

لما اتى المصريون من آسيا الى مصر عن طريق برزخ السويس حكم فيهم بدأة بدْءِ الالهة اي الكهنة الذين دربوهم على التمدن والفنون المفيدة . وبكدهم وصبرهم على العملِ مدة عدة قرون تمدنوا تمدناً ظهرت آثاره في مبتداء تأريخهم لخمسة الاف سنة . ق . م . وكانت مصر وقتئذٍ منقسمة عدة اقسام مستقلة ولكن ما لبثت ان خضعت لحاكم واحد بعد ان اذهب نفوذ الكهنة ووحد بين حكوماتها تحت سلطته وهكذا نشأت المملكة .

الفصل الثالث

مينيس مؤسس المملكة

مينيس — كان مينيس اول ملوك مصر نشأَ في تيني من مصر العليا التي دعيت ايضاً ايدوس · ولما استوثق لهُ الامر في جميع الممالك الصغرى واخضع اصحابها ووحد تحت سلطانه مصر العليا والسفلى وانشاء ملك الفراعنة ابتنى لهُ عاصمة شرقي النيل على مسافة بعض فراسخ من الدلتا سماها ممفيس وكرسها للآلهة بتاح من المعبودات الشمسية · فأُقيمت هذه الالهة في الهيكل الذي شيَّدهُ الملك · وقد وصف لنا المؤرخون القدماء مينيس بالبنَّاء والمشترع والجندي بطل حرب · وقضى مينيس نحبهُ على اثر عضة فرس بحر للسنة الستين من ملكه

فرأى الكهنة في موته الفاجع تنكيلاً بالانسان الذي حطَّ سلطة الكهنة ورفع سلطة الجندية · ومع ذلك

لم يمنع مرتآهم الشعب من احياء ذكر الملك الاول فنصبوا له الهيكل والمذابح وسجدوا له باسم آمونارا (اي ابن الشمس)

اقسام تاريخ مصر الكبرى — يقسم تاريخ دول مصر القديمة الى ثلثة اقسام كبرى تشمل تاريخ ثلاثين دولة من الفراعنة

القسم الاول تاريخ الدول العشر التي اتخذت ممفيس عاصمة لها

القسم الثاني تاريخ الدول من الحادية عشرة الى العشرين التي جعلت ثيبة عاصمة ملكها

القسم الثالث تاريخ الدول من الحادية والعشرين الى الثلاثين التي جعلت عاصمتها سائس

لم تمتز هذه الاقسام الثلثة بتبديل العواصم او نقطة مركز البلاد بل بالحوادث التي سطرت في تاريخ مصر .

القسم الاول الذي يشمل تاريخ مصر منذ (٥٠٠٤ الى ٣٠٦٤) يتضمن ذكر الفراعنة الذين اتخذوا ممفيس عاصمة لملكهم فانشأوا مملكة مصر

القسم الثاني الذي يشمل تاريخها منذ (٣٠٦٤ الى ١١٠٠) يتكلم عن فراعنة ثيبه الذين دفعوا مصر الى الخارج وجردوها للغزوات فدامت سيادتهم على النيل الاعلى وغربي آسيا نحو ستمئة سنة

والقسم الثالث يتضمن تاريخها منذ (١١٠٠ الى ٥٢٥) فيذكر ما جرى لعهد فراعنة سائس الذين لم يفلحوا في محاربتهم الاجانب فالتزموا حدود المملكة واضطروا الى ان يذودوا عنها هجمات من كانوا يهاجمون حتى استظهرت عليهم اخيراً الشعوب التي قهروها وضغطوا عليها٠

مختصر

ان اول ملوك مصر من البشر هو مينيس من تيني في الصعيد . اخضع روساء الحكومات المصرية وجمع تحت سلطانه مصر العليا والسفلى وانشاء الكل مملكة واحدة على ضفاف النيل وابتنى على رأس الدلتا ممفيس وجمع مينيس بين صفات المشترع و بطل الحرب والبناء فعبده الشعب بعد وفاته وسجدوا له باسم آمون را



الفصل الرابع

عهد المنوفيين

من الدولة الاولى الى العاشرة (من ٥٠٠٤ الى ٣٠٦٤) عاصمتها ممفيس

ملخص

ا — الدولة الاولى والثانية : اكمال ما شرع به مينس
ب — الدولة الرابعة انشاء الاهرام
ح — الدولة السادسة تقدم وانحطاط

الدولتان الاولى والثانية

عززتا ما انشاه مينيس واكملتاه

كان اصل الدولتين الاولى والثانية من تيني ومن الاسرة مينيس ففي عهد الاولى انشئ الهرم ذو الدرجات الذي لم يزل شاخصاً الى الآن في سكاره واقيمت عبادة الحيوانات المقدسة وفي جملتها الثور أبيس الذي كان

يعتبر مثال الاله بتاح الحي

ومن الاعمال التي تذكر لملوك الدولتين الاولى والثانية ما يأتي

جاء في ما تقدم من الكلام عن مينيس ان مصر كانت منقسمة الى عدة ممالك صغيرة مستقلة فجعلها في ايامه ولايات واخضع ولاتها لامره . فعمل هولاء الولاة مرارًا على استرجاع استقلالهم فلم يفلحوا لان خلفاء مينيس اذلوهم وضايقوا عليهم حتى في داخلية البلاد . ولكن لم تنجح هذه الخطة إلاّ في الدلتا اما في سائر انحاء مصر فكان الولاة مع اعترافهم بسيادة الملك وخضوعهم لاوامره ونواهيه وعملهم بما تفرضه السيادة يتمتعون بالاستقلال داخل ولاياتهم وكانوا من الملك بمنزلة الامراء الذين كانوا يخضعون لملوك فرنسا في الاعصر المتوسطة .

ب — الدولة الرابعة : في الاهرام

لم يتصل بنا من اخبار الدولة الثالثة إلاَّ انها من ممفيس وقد روجت سوق العلوم والفنون

اما الدولة الرابعة فقد اشتهر امرها في عهد المنوفيين وذاع صيتها فأنشأت الحصون والقلاع على تخوم الدلتا الشرقية لصد القبائل الرحَّل التي كانت تهاجمها دائماً وتوغلت في البلاد حتى شبه جزيرة سينا حيث استثمرت مناجم النحاس والفيروز . وقد عظم شأنها وذاع فضلها في انشاء الاهرام الثلثة الكبرى وقد بلغ ارتفاع كل من الاول والثاني نحواً من مائة وستة وثلاثين متراً والثالث الاصغر ستة وستين متراً وهذا يعادل ارتفاعه ارتفاع ابراج كنيسة نوتردام في باريس

اما الناظر الى هذه الآثار العظيمة يشعر من نفسه بالضغط والتخاذل كمن ينوء به الحمل . فاذا كانت الاهرام

تذيع سلطة الفراعنة الثلثـة كيوبس وكيفرن وميكادينوس الذين شيدوها مدافن لهم فكفى بالنظر الى ضخامتها بينةً على ما تجشم رعاياهم من العناء والجد في بنائهـا ٠

ومن الآثار المأخوذة عن الشعب لاربعة الاف سنة بعد هيرودوتس ان كيوبس وكيفرن لم يدفنا في المدافن التي شيَّداها بجهدٍ جهيد لان الشعب قد انتزع لشدة غيظهِ جثتيهما من النواويس وقطعهما إرباً إرباً ومما يؤيد ذلك هو ان الباحثين قد عثروا على قطع تماثيل كيفرن في آبار كان الشعب قد طرحها فيها من فرط غيظهِ وحنقه

ولكن لم يحنق الشعب على ميكادينوس ولاازرى به كما ازرى بكيبوس وكيفرن لانهُ ارتضى في ان يدفن في هرم علوه ستة وستين مترًا فقط وجاء في الآثار المنقولة عن الشعب ان ميكادينوس كان ذا رحمة

وحلم لم يتصف بهما كيبوس وكيفرن

وقد عثروا على ناووس ميكادينوس في الهرم الثالث وكان من ابدع الآثار التي نشأت في ذلك العهد وطرفة من طرف الصناعة المصرية . ولكن لنكد الطالع قد سقط في البحر مع الباخرة التي كانت تنقله الى انكلترا

والثلثة الاهرام الكبرى قائمة على نجد في الجيزة بقرب ممفيس . وفي جوارها صخرة ضخمة منحوتة على مثال اسفانكس وقد بلغ ارتفاع رأسه المشوه عشرين مترًا عن سطح الارض اما الجسم فمطمور في الرمل . ويفترض الشروع ببناء هذا الأثر ونحته قبل عهد مينيس واكماله لعهد كيفرن ويقال ذلك ايضاً عن بناء الهيكل الذي كان قائمًا بالقرب منه من الصوان والحجر الابيض المصقول كالرخام . وقد اكتشفه الباحث الفرنسوي ماريات ووجد فيه عدة تماثيل منحوتة باسم كيفرن .

وكانت كل هذه الآثار في غاية الاتقان ولا مجازفة اذا قيل انها تعد في جملة ما أتاه البشر من الآثار المدهشة .

ج — الدولة السادسة : نيتوقريس
تقدم وانحطاط

أخذت ممفيس في الانحطاط منذ عهد الدولة السادسة ومع استبقائها اسم عاصمة فان ملوك الدولة الجديدة اثروا الاقامة في مدن مصر العليا ولا سيما في ابيدوس . وكان عهد الدولة السادسة عهد تقدم ومجد في داخل البلاد

فاخضع الفراعنة قبائل الحبشة المشاغبين واذلوا امم البادية المقيمة في صحراء البرزخ وجنوبي سوريا . وشيدوا المباني الرفيعة الاركان على ايدي الاسرى الذين اتوا بهم من البلاد المفتتحة . وقد شهدت بكدهم ونشاطهم المتصل المدافن الضخمة والمدن الجديدة

والهيا كل المرممة والطرقات التي مدوها وسط الصحراء من مصر العليا الى مرفاء القصير وابتنوا المواقف والابار للقوافل

ولم يحفظ التاريخ من اسماء اولئك الملوك الصعبة الا اسم امرأة كانت تدعى نيتوقريس الحسناء الوردية الخد . ارتقت هذه الى الملك بعد وفاة اخيها الذي قتله الاعيان . فقبضت على ازمة الملك بكل عزيمة وقاومت الاحزاب التي كانت تحاول الغاء السلطة الملكية واستتب لها الأمن حتى تمكنت من اكمال الهرم الذي كان قد شرع ميكادينوس ببنائه . واكسبته حلة استوقفت في مستقبل الايام السياح من اليونان والرومانيين والعرب دهشةً وعجباً

قال هيرودوتس وكانت آخرة هذه الملكة محزنة اذ عزمت على الانتقام لاخيها والمطالبة بدمه فدعت الاعيان الى مأدبة ادبتها لهم في ردهة تحت الارض

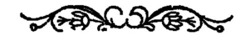
وبينا هم على الطعام دخلت مياه النيل الى الردهة من قناة خفية فخنقت كل المجرمين · فقام اشياعهم يطالبون المالكة بهذا العمل فطاردوها فلم تجد وسيلة للنجاة منهم الا ان طرحت نفسها في غرفة فسيحة مملوءة رماداً · ودفنت في هرم ميكادينوس حيث عثروا على قطع من ناووسها الذي كان من حجر بركان ازرق

وسادت الفوضى في البلاد بعد وفاة نيتوقريس مدة نحو خمسة قرون اما التاريخ فقد اضرب عن ذكرها كأن مصر لم تحسب في ذلك الوقت في عديد البلدان ولما نهضت في ايام الدولة الحادية عشرة ظهرت تمدن جديد وعاصمة وعوائد جديدة

— مختصر —

ان العهد الممفيسي او عهد المملكة القديمة يشمل تاريخ الدول العشر الاولى · فالدولتان الاولى والثانية

اكملتا وحدة مصر السياسية التي كان قد شرع بها مينيس فالدولة الرابعة انشأت الاهرام الثلثة الكبرى لعهد كيبوس وكيفرن وميكادينوس ونحتت في الصخر تمثال ابي الهول او اسفنكس · والدولة السادسة اكملت ما شرع به السلف من الطرف الصناعية فاخضعت الحبشة وسوريا الجنوبية وانشأت عدة آثار نافعة · وقد اشتهرت في جملة ملوكها نيتوقريس وكان آخر عهد مملكة ممفيس الفوضى التي طال امدها ومع ذلك قد بلغت البلاد في عهدها من التقدم في الداخل ومن اتقان الفنون درجة لم تنتهِ اليها في عهد من تقدم·



الفصل الخامس

العهد الثيبي

من السلالة الحادية عشرة حتى العشرين

(٣٠٦٤ — ١١٠٠)

عاصمتها ثيبة

ملخص

ا — من الدولة الحادية عشرة الى غزو الملوك الرعاة . افتتاح اتيوبيا . بحيرة موريس — اللابرنتس (الالغاز)

ب — الملوك الرعاة — غزوات الملوك الرعاة للدلتا — حكومتهم — ابعادهم

ج —في دول تيبه التلث الفاتحة التامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين . توطميس الثالث ـ رعمسيس الثاني ـ رعمسيس الثالت

اشتهر عهد ملوك ثيبة اي الملوك الذين اتخذوا ثيبة مبأة لهم بالآثار العظيمة والفتوحات الكبيرة . وقد

تخلل تلك الاثار وهذه الفتوحات ذل ادرك ملوك ثيبة . ولما طردهم الملوك الرعاة من الدلتا وابعدوهم منها مدة ست مئة سنة لم يتيسر لهم الاقامة في مصر العليا إلاَّ شرط ان يؤدوا الجزية للغزاة

١ — من الدولة الحادية عشرة حتى افتتاح الملوك الرعـاة

بدء عهد دول ثيبة الغامض — لما افاقت مصر من غفلتها مدة خمس مئة سنة كانت قد تناست التقاليد القديمة فبدلت اعلام ألاسر وألقاب ارباب المناصب والكتابة والعاصمة والديانة واصبحت ثيبه مركز السلطة الملكية . ونابت الهة الجنوب وهما اوزيريس ايدوس وامون ثيبه عن الهة الشمال وهما بتاح ممفيس ورا هايو بوليس .

وفقدت مصر قسماً من المدن التي افتتحتها وتخلت عن مستعمرات سينا واسترجعت اثيوبيا استقلالها . وتأخرت

الفنون حتى انقلبت لعهد نشأتها وما وجد من الاثار كان خشناً ليس في شيء من الاتقان والاحكام

وقلما عرفت الدولة الحادية عشرة وجل ما حفظ عن ملوكها الستة عشر انهم نشأوا في ثيبه فلم يغادروا لنا اثراً مذكورا

عظمة الدولة الثانية عشرة — ما نقل التاريخ عن دولة من الدول المصرية ما نقله من الحقائق واثار المجد الحقيقي عن الدولة الثانية عشرة لان ملوكها اشتهروا بالهندسة والحرب وعضدوا الفنون والزراعة فلم يكلوا لحظة عن العمل في ما يكسب بلادهم عظمة ومجداً . واشهر ملوكها أسوارطاسن الثالث مفتتح اثيوبيا وامنمهه الثالث منشيء بحيرة موريس واللابيرنت اي الالغاز

ان اسورطاسن الثالث افتتح الاثيوبيا — ان قبائل اثيوبيا او نوبيا من نسل كوش بن حام كانت نازعة دائماً الى الثورة فاستظهرت عليها ملوك مصر مراراً

ولكن لم تستطع تدويخها واذلالها لانها كانت قد استرجعت استقلالها في خلال الفتن التي ثارت في اخر عهد ملوك ممفيس

ولما استوثق الملك لفراعنة الدولة الثانية عشرة دوخوها ومع ذلك لم يتمكنوا منها جيداً ولم يخضعوا خضوعاً مطلقاً الا لعهد اسورطاسن الثالث

ولما رأى هذا الملك ان لاسبيل لتقييد تلك الجهات الفسيحة بواجبات قضت حكمته في تضييق نطاق البلاد المفتتحة فأبقى نصف اثيوبيا في حوزة الكوشيين شرط ان تؤدي الجزية وجعل حدود هذا النصف سمنه بجوار جنادل النيل الثانية · وهناك سلسلة صخور صوانية تقطع وادي النيل وتؤلف عدة مجاري مياه يتعذر اجتيازها إلاّ في ابّان ارتفاع المياه او فيضانها

وقد ابتنى اسورطاسن على كل من ناحيتي الصخور

التي تكتنف المضيق حصناً امتلك بهما النهر والوادي

بحيرة موريس واللابيرنتوس او الالغاز — ان امنمهه الثالث قد خلد ذكره باثاره العظيمة منها بحيرة موريس واللابيرنتوس

كان هم ملوك مصر تلافي ما ينشاء من الاضرار عن ارتفاع فيضان مياه النهر وهبوطه فخطر ببال أمنمهه الثالث ان يقوم بمشروع عظيم وما لبث ان ابرزهُ الى حيز العمل وبلغ بهِ حد الاتقان اذ اراد ان يبني حوضاً وسيع الاطراف يحرز فيه ما يفيض من مياه النيل في سني الخصب فتجري تلك المياه في القني الشتوية لتروية الاراضي عند قلة ارتفاع الفيض اتقاء الجدب وهذا الحوض هو بحيرة موريس

ولم تزل آثار السدود التي بنيت لاحراز المياه شاخصة حتى اليوم بجوار مدينة الفيوم· وكان ارتفاعها ثلثة امتار ونصف المتر وعرضها نحو خمسين مترا · وكان

يصل الحوض بالنيل قناتان ذات سدود لتضبط دخول الماء وانصرافه وهناك ايضاً قناة ثالثة انشئت افرغ ما يفيض من مياه النيل في بحيرة طبيعية لم تزل حتى اليوم معروفة ببركة القرون

وجعل امنمهه الثالث مقامه في مصر السفلى حيث ابنى قصراً ومدفناً مع ابقائه ثيبه عاصمة البلاد · وبعد وفاة الملك اتخذ القصر الذي كان قائماً عند مدخل البحيرة هيكلاً وسماه اليونان لابيرنتوس اوالغازاً · وكان يتألف هذا الهيكل من ثلثة الاف غرفة نصفها تحت الارض مشتبكة ببعضها البعض اشتباكاً يتعذر على الاجنبي التجول فيهِ دون ان يتيه

وكان في وسطه اثنتا عشرة ردهة فسيحة قائمة على الاعمدة · وكان مدفن الملك كسر اللابيرنتوس وقد دفن فيه لاربعين سنة من ملكهِ · ومع اتساع شهرته وعظم مجده تناسى القوم ذكره شيئاً فشيئاً · وقد عزا

القوم البحيرة والالغاز بعد حين الى ملك وهمي يسمى مور يس

واستقرت سلطة الدولة الثالثة عشرة في البلاد اربعمائة وثلاث وخمسين سنة حافظت في خلالها على آثار الدولة الثانية عشرة · ولم تزل اكثر تماثيل ملوك هذه الدولة من طرف الصناعة كما يشهد بذلك تمثال سفيكوتب المنصوب في متحف اللوفر · ويتوضح من عدة ادلة ان مصر كانت لذلك العهد دولة عظيمة يسوسها ملك واحد

ولكن انتقل شيئاً فشيئاً مركز هذه الدولة من ثيبه التي بقيت نحواً من سبعمائة سنة قاعدة الملك الى مدن الدلتا · ومما هيأ هذا الانتقال هو ان فراعنة الدولة الثانية عشرة ولا سيما فراعنة الدولة الثالثة عشرة كانوا قد تخلوا عن مدن الجنوب راغبين في توطن مدن الشمال وهي مانوس وسايس وبوباست وتانيس · واما فراعنة

الدولة الرابعة عشرة فقد كانت عاصمتهم خاسو او خويس في وسط الدلتا ·

ب — الملوك الرعاة : عاصمتهم تانيس

ان الملوك الرعاة غزوا الدلتا — كان ملوك الرعاة من قبائل الكنعانيين الذين خرجوا من خليج العجم الى شرقي الفرات واقاموا في الارض التي دعيت باسمهم ارض كنعان · وكان ذلك عام ٢٣٠٠ قبل دعوة ابرهيم واجتاز قسم من هذه القبائل الصحراء فهبطوا الى وادي النيل الخصب

واتفق هبوطهم الى ذلك الوادي في زمن ملائم جدًا للغزو لان الدولة الرابعة عشرة التي انقطع ملوكها الى خاسو كانت قد اعملت فيها الحروب الاهلية ومزّقت اهلها الفتن فاتسع بها المجال للغزاة فدخلت بلادها وقلبتها وخربت من مدنها وهياكلها ما خرّبت واحرقت

ما احرقت بعد ان نهبت ما فيها . ولما فرغ البرابرة من افتتاح الدلتـــا اختاروا لهم ملكاً يدعى سايتس فجعل ممفيس مبأته

وكان قد بقي في ثيبه اي في جنوب البلاد امراء من الاسرة الملكية يتولون تلك الناحية تحت سيطرة الفاتحين

حكومة الملوك الرعاة—اشتهر الهيكسوس او الملوك الرعاة لاول امرهم بالقساوة الفظيعة فحنق عليهم الشعب واضمر لهم الحقد مدة طويلة وكان ينعتهم بالرذل والرجس والبرص ولكن ما لبثوا ان تمدنوا تمدن المدحورين . فجروا على عوائدهم ونطقوا بلغتهم ودانوا بدينهم غير انهم ادخلوا الى البلاد اشهر معبوداتهم قسراً

وأعاد الملوك الرعاة بلاط الفراعنة الى ما كان عليه من الابهة والعظمة فاحدقت بهم الموظفون من كبار وصغار وفتحوا هيا كل تانيس عاصمتهم واقاموا فيها

آلاثار الجديدة وقد وجدوا في اخربتها تماثيل وانصبة من نوع السفنكس تشهد لهم في اتقان الفنون· وفي عهد الملوك الرعاة دخل يعقوب مصر حيث صادف فيها استقبالاً حافلاً

طرد الملوك الرعاة — دامت السلطة الاجنبية في مصر مدة ستة قرون الى ان استأصلتها ثورة امراء ثيبه اما الحروب فطالت نيفاً ومئة سنة

ولما انقطع الملوك الرعاة الى معسكرهم الحصين في افاريس دافعوا ما استطاعوا مدة طويلة عن انفسهم فطردهم منه اهمس الاول الى ان اوصلهم الى سوريا

واستأذنت بعض قبائل الكنعانيين في استبقاء قسم من اراضيها وبالاقامة في البلاد فأذن لها ومنها اولئك الصيادون الاقويا البنية الطويلو الوجوه الذين لم يزالوا مستقرين على ضفاف بحيرة المنزلة· وكان اهمس مؤسس الدولة الثامنة عشرة

ج — بعد ان طرد ملوك الرعاة من مصر شعرت هذه بحكم انعكاس الفعل انها في حاجة الى الاعتساف والظلم تشفياً مما احتملته من ذلك فنزعت الى الغزوات فوسعت تخومها حتى بلغت بها من جهة الفرات والدجلة ومن جهة اخرى النيل الازرق وقد امتازت ثلث دول بحملاتها الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون وكل منها اشتهرت بملك اشتهرت الدولة الثامنة عشرة بتوطمس الثالث والتاسعة عشرة برعمسيس الثاني او سيزوستريس والعشرون برعميس الثالث

الدولة الثامنة عشرة . توطمس الثالث — كان بدء الغزوات لعهد الدولة الثامنة عشرة ولكن قبل توطمس الثالث . ان اثيوبيا التي كانت قد استرجعت استقلالها شيئاً فشيئاً لعهد الملوك الرعاة قد رأت ذاتها مكرهة على الخضوع والتمدن كتمدن ثيبه والتكلم بلغتها والجري على عوائدها والتدين بدينها وقبول جاليتها والبناء على

هندستها • فجعلها ملوك الدولة الثامنة عشرة امارة وولوا عليها غالباً ولاة عهدهم الذين كانوا يلقبون بامراء كوش

واخضعوا ايضاً قبائل الكنعانيين في سوريا حتى امتدت سيادته الى نهر الفرات• وامتازت امة الروتنيو القوية على سائر الامم بمحاربتها النفوذ الاجنبي ولم تخضع إلاّ كرهاً وسنأتي على بيان ما نال توطمس الثالث من الاذى بسببها

توطمس الثالث – ولي هذا الملك بكفالة شقيقته حتاسو التي كثرت اطماعها وذهبت بها تلك الاطماع الى ان نازعت الرجل صورته فاتخذت لها لحية عارية وزها الملك في ايامها • واشتهرت بحملتها البحرية اذ سيرت خمس سفن الى بلاد البونت اي الى بلاد العرب بقصد افتتاحها • وفتحت بذلك طريق بلاد البخور الذي جرى عليه خلفاؤها

وبعد وفاة حتاسو قبض توطمس الثالث على ازمة

الملك وقد ابدى في زمن قريب من الاعمال ما يدل على انهُ اهل للقيام بادارة المملكة · وحاولت الامم الاسيوية المروق من طاعة الدولة الثامنة عشرة لدن ارتقاء توطمس الشاب الى كرسيها وتألفت من اجل ذلك العصب فقاتل توطمس الامم المتحالفة في ما جدو فظهر عليها عند الصدمة الاولى واستولى على ماجدو حيث لجأت اشتات الثائرين وتمكن من اخضاع سوريا وما بين النهرين وحمل ايضاً الملك في السنين التالية عدة حملات ظفر فيها بالغنائم والاسلاب الكثيرة

وبلغت مصر في ايام توطمس الثالث منتهى القوة · واستتب النظام والنجاح في جوّها ومدت سلطتها في الخارج الى حيث شأت وطاب لها · وشملت مملكة الفراعنة الفسيحة الجوانب البعيدة الاطراف بلاد الحبشة والسودان ونوبيا واشور وما بين النهرين وبابل وارمينيا وبلاد العرب · وقد تغنت الشعراء باثار توطمس الثالث

ونقشت على مسلة وجدت في هذه الايام في كرنك

وهذا ما وجد منقوشاً على المسلة من كلام الاله آمون لتوطمس :

« أتيت . اتيت لاخولك قوة تسحق بها البرابرة في آسيا وتأسر زعماء الروتنيو ابصرهم جلالك المغشى بزينتك ابان الحرب عندما تقبض على اسلحتك وانت على مركبتك

« قدمت لامنحك قوّة تسحق بها ارض الشرق واريهم جلالك كثور حدث ثبت الجنان ذي قرون لا يقوى عليها شيء

« قدمت لامنحك قوّة تسحق بها الشعوب المقيمة في جزرها ويسمع زئيرك العائش في اعماق البحر واريهم جلالك كمنتقم ينتصب على ظهر فريسته

«قدمت لاخولك قوة تلاشي بها الشعوب المستقرة في مستنقعاتها وتوثق ارباب الرمال فتأسرهم وأريهم

جلالك كابن آوى سيد السرعة الرائد بين الناحيتين من الجنوب الى الشمال .»

ان الدولة الثامنة عشرة التي كان بدء عهدها مقروناً بالفوز والمجد قد استمرت على ذلك الى ان زالت بالاضطراب والشغب اذ كانت ثمرة فتوحاتها العديدة زائلة واسترجعت سوريا وسائر جهات آسيا استقلالها في امدٍ قريب

الدولة التاسعة عشرة رعمسيس الثاني او سيزوستريس :

ان اول ملوك هذه الدولة قد عملوا بداءة بدءٍ على توطيد الأمن والراحة في داخل البلاد ثم حاولوا ان يردوا لملك الفراعنة حدوده القديمة وقد جاء في الكتابات المنقوشة على آثارهم ان معظم مساعيهم كانت مكللة بالفوز . وقد احرز والد سيزوستريس ستي الاول انتصارات باهرة في سوريا فاستظهر على قبائل الكبتا (الحثيين) المخيفة النازلة في حوض نهر العاصي بدل الروتنيو الذين افنتهم

محاربة الاجنبي · فقامت سوق الحرب في ايام ستي ولكن على طريقة بربرية اذ قطع الاشجار واتلف المزدرعات واخذ من العدو غنائم وافرة وقد افادته هذه الغنائم لانشاء عدة آثار مذكورة واخص منها بالذكر قصر كرنك تلك الردهة الفسيحة القائمة على الاعمدة وقد نقشت على جدرانها تاريخ حروب ستي

ومع ذلك لم يكن فوزه وطيد الدعائم لان قبائل الكبتا (الحثيين) التي قهرها قد قامت لتثأر منه باستئناف القتال ولما كان فرعون قد مل القتال وقّع مع اعدائهِ الذين لم يقووا على تدويخهم تدويخاً تاماً عهداً يجعل حدود النفوذ المصري عند ينابيع نهر العاصي · ولما ضاق المجال على مصر بين فلسطين وفينيقيا ارتدت كرهاً الى الوراء

رعمسيس الثاني — فاق هذا الملك بشهرته سلفاءه وولي الملك لحياة ابيه ستي الاول وحارب سوريا اذ كان بعد فتياً لا يتجاوز العاشرة من سنيه · وكانت كل اعماله

تؤذن بمضاء عزيمته وتعد الامة بملك يعيد لها عهد توطميس الثالث المعروف بالتقدم والفلاح · ولئن كان رعمسيس ملكاً باسلاً فانهُ لم يبلغ بمجده وفوزه مبلغاً يؤهله الى ان يلقب بما اقب بهِ نفسه ملك العالمين»

وبينا كانت السلم قد استتبت في كل انحاء المملكة اخلف زعيم الكيتا او (الحثيين) عهده مع رعمسيس وشهر عليه الحرب · فزحف هذا الملك بعسكرهِ حتى وادي نهر العاصي · وهنالك غرّه على التقدم الى الامام رواد كذبة ففعل ولم يحاذر خطراً مغادراً وراءه معظم جيشه ولكن ما لبث ان التقى بالحثيين فخاض الاخطار العظيمة وثبّت قدمهُ في المجال غير هيّاب ولا وجل الى ان بادرت عساكره الى انقاذه · وكانت الحرب شديدة عند التحام الفريقين فأسفرت عن اندحار الحثيين فطلبوا السلم فأجابهم رعمسيس الى ذلك

ولكن قام الكنعانيون وراء العساكر الظافرة وهاجوا

يريدون الايقاع بها وساعدهم الحثيون فاضرمت النار وقتئذٍ في سوريا من ضفاف النيل حتى الفرات . ودامت الحرب خمس عشرة سنة وابرمت على اثرها السلم بين المصريين والسوريين وصار هولاء حلفاء اولئك وليس من اتباعهم

فعظم الامر على رعمسيس ولم يرَ ما يعزيه و يسليه في خيبته إلاَّ الاطناب فى حروبه فدعا اليه الشعراء وطلب اليهم ان ينظموا القصائد في حروبه ولا سيما في ما ابداه من البسالة في محاربته الحثيين عندما انفرد في المجال والاعداء من حوله «بيميني ارمي النبال و بيساري اقلب الاعداء انا وحدي كبعال امامهم في ساعته . وقد تحطمت بازاء خيلي الفان وخمسمئة مركبة من مراكب العدو التي كانت تحيط بي . يطلبون ايديهم للقتال فتخونهم وضعفت قلوبهم في صدورهم ووقع الرعب في اعضائهم فخدرها فتاهوا عن النبال ونسوا كيف يرشقونها

ووهت عزائمهم فلم يقووا على نقل الرماح واسقطتهم في المياه كما يسقط فيهـا التمساح فاضجعوا على وجوههم متراكمين بعضهم فوق بعض وانا في وسطهم افتك فيهم لا أُريد ان يلوي احد منهم على شي او ان يلتفت الى الوراء . والساقط منهم لا يقوم .»

فهذه الالفاظ الطنانة لاتسلي رعمسيس عن الذل الذي نالهُ في مسالمة ملك الحثيين الاذلاء على شروطٍ تساوِيا فيها وذهب رعمسيس الى ان تزوج ببكر بنات ملك الحثيين ودعا حماه لزيارة وادي النيل

وكما غالى الملك وباهى بفتوحاته قد غالى ايضاً بآثاره وقد قيل عنهُ انهُ « الملك البنّاء العظيم » والحق يقال ان الابنية التي شيدت بعنايته كانت عديدة مذكورة منها الهيكلان العظيمان الفاخران اللذان بناهما تحت الارض في ايبسامبول من نوبيا ومتحف رعمسيس في ثيبه والمسلات في القصر وتمثال ممفيس وكل ذلك

ايذاناً بمجده . وما كان احراه بهذا المجد لو خلا من الشوائب ولا سيما من الاعجاب بنفسه الذي حدا به الى محو اسماء سلفائه التي كانت منقوشة على آلاثار التي شيّدوها ليخلد اسمه في موضعها . وما اكثر مواقع هذا الانتحـال

وقد وضح بالبرهان ان الشعب لم يتمتع بالراحة والسعادة في عهد رعمسيس الذي ولي الملك مدة سبع وستين سنة . وقد تغلبت فيه الاميال الفاسدة والاستبداد على المزايا التي يتحلّى بها الملك فأذل العبرانيين وابهظ عانقهم فانشأوا بمناظرة المصريين وضرباً بالسوط مدينتي بيتوم ورمسيس وهو الذي اصدر الامر الفظيع المؤذن بقتل اولادهم الذكور . ولم تحصر قساوته في معاملة العبرانيين وقد اطلعنا على رسالة لكتبي في مدينة رمسيس يبيّن فيها ما كان عليه من الشقاء سكان البادية الذين كان جباة الاموال يرسلونهم الى السخرة

بعد سابهم غلاتهم

فمن اجل ذلك انتهى عهد سيزوستريس الى الانحطاط والتقهقر فبعد ان كانت الفنون في بدء عهده زاهية وآثارها زاهرة ذوت في آخر ذلك العهد فلم تنتج إلاَّ ما كان غليظًا خشنًا · ووقف البرابرة على ابواب البلاد وغزاها مرة بعد مرة الليبيون من الاصل الهندي الاوربي المعروف بعينيه الزرقاويين وشعره الاصهب ذلك الشعب الذي غشي افريقيا وطرد من ليبيا الشعب القديم المنسوب الى حام · ولما ملَّ ملك مصر مقاتلتهم سكت اضطرارًا عن احتلالهم غربي الدلتا · وبذلك انتهى عهد اشهر الفراعنة بالجاه والترف

منفتاح — هو ثالث ابناء سيزوستريس وقدورث عن ابيه مشاكل ومعضلات استفحل امرها عليه بما ارتكبه من الهفوات وكان في الستين من العمر عندما قبض على ازمة الملك وكانت ايام ملكه معضلة بالغزوات

والاضطرابات والبلايا المتنوعة

وحارب الليبيين ليردهم عن بلاده غير انه لم يجرأ على النزول الى حومة الوغى بعلة ان الاله بتاح قد حظَّر عليه ذلك . ومع اعتزاله القتال استظهر عسكره على العدو . وقد اباح للقبائل الاجنبية المتوطنة الدلتا البقاء في مواطنها شرط الاعتراف بسيادة ملك مصر عليها .

ومنفتاح هو فرعون العنيد الذي انكر على موسى خراج العبرانيين من مصر ولكنه اكره على اخراجهم ففقدت مملكة مصر بخروجهم ثلثة ملايين نفس من قوم فطروا على المسالمة والكد

وتنازع منصب منفتاح في شيخوخته بعض الامراء من السلالة الملكية فنشبت القلاقل والاضطرابات واتصل شررها الى ما بعد وفاته حتى قامت الدولة العشرون . وتمزقت مصر ووهت عزيمتها حتى عجزت عن

النظر الى ما يجري في ظاهرها من الحوادث ولذلك تسنى للعبرانيين بقيادة يشوع افتتاح ارض كنعان دون ان يلقوا معارضاً . وكانت هذه الارض ملك اسيادهم القدماء .

الدولة العشرون — ان رعمسيس الثالث هو ابن مؤسس الدولة العشرين وآخر ملوك مصر العظماء . استظهر في وقعة عنيفة جرت بين رافيا وبالوز على اعتصاب قبائل التكريين والليسيين والسوريين التي تعمدت غزو الدلتا براً وبحراً وقد قال رعمسيس على اثر انتصاره .

«انا الملك رعمسيس قد فعلت فعل الابطال الذين يرفعون قدرهم فابسط يدي على شعبي يوم اشتباك القتال . فالذين انتهكوا حرمة تخومي لا يحصدون الارض وايام حياتهم معدودة للدخول في الابدية ... والذين كانوا على الشاطىء سقطوا في الماء وقلبت سفنهم

وطرحت اموالهم في المياه ٠٠٠ »

واسترجعت مصر حدودها لعهد رعمسيس الثاني على اثر الحملات التي قام بها رعمسيس الثالث في سوريا وبلاد العرب وشبه جزيرة سينا

ولما فرغ من توسيع نطاق مصر في الخارج عمد الى توسيع تقدمها ونجاحها في الداخل فروّج الفنون والصناعة والتجارة وزاد الثروة الخاصة والعامة ورتعت مصر لعهده في بحبوحة التقدم والفلاح مدة طويلة

الانحطاط -- ان الحروب التي استعرت نارها مدة اربعة قرون قد انهكت مصر واستنزفت قوتها وهيأتها للانحطاط مع ان خلفاء رعمسيس أبوا الحرب وتحاشوا نيرانها وقصروا همهم على توطيد اركان السلم والسكينة ولكن ما لبثت دلائل القلق ان وضحت من خلال اوقات السكينة . فتحفز الصناع والعملة للمقاومة والاعتصاب على مثال الاعتصاب المعروف عند عملة

اليوم . وضعفت شوكة الآداب فكثرت الجرائم يوماً فيوماً وتوصل القوم الى انتهاك حرمة المدافن طمعاً بما فيها من الذخائر ولم يقوَ الثقاف والشرطة على صيانة المومياء الملكية وصد سفلة التيبيين عن فعلاتهم

وبينا كان الانحطاط عاماً شاملاً كان آمون وكهنته يتعززون فتغلبت اخيراً سلطة الكهنة ونفوذهم على سلطة الملوك وانتهى زمام الملك الحقيقي الى رئيس الكهنة آمون حرحور حاكم اثيوبيا وقائد العساكر الوطنية والاجنبية العام وذلك لعهد رعمسيس الثاني عشر .

وبعد وفاة هذا الملك اتخذ الحبر آمون لقباً يليق بسلطته وضفر على راسه التاج الملكي بكل اعجاب وكان ذلك لقرن ونصف قرن من وفاة رعمسيس الثالث العظيم

مختصر

ان عهد ملوك ثيبه الذي قسمهُ الملوك الرعاة بغزواتهم قسمين كان عهد آثار قديمة لايام الدولة الثانية عشرة وفتوحات لايام الدول الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين

ففي ايام الدولة الثانية عشرة انشأَ اوسورطاسن في سمنه على النيل انشاءات عظيمة ليتمكن بها من افتتاح اثيوبيا وحفر امنمحه الثالث بحيرة موريس وابتنى اللابيرنتس او الالغاز

وفي عهد الدولة الرابعة عشرة اي لعام ٢٣٠٠ اقبل الملوك الرعاة من سوريا فاستولوا على مصر السفلى مدة ستة قرون فاتخذوا تانيس مباءةً لهم ورحبوا بالعبرانيين فطردهم ملك ثيبه احمس مؤَسس الدولة الثامنة عشرة

وفي ايام الدولة الثامنة عشرة لما تنصَّل توطمس

الثالث من كفالة اخته حتاسو اذل اثيوبيا واخضع غربي آسيا حتى الفرات

ولما كانت فتوحاته في اسيا ضعيفة استأنف العمل ستي الاول وابنه رعمسيس الثاني لعهد الدولة التاسعة عشرة ومع اصلائهما الحثيين حرباً عواناً لم يتمكنا من المحافظة على كل سوريا · فاضطهد رعمسيس الثاني العبرانيين اما ابنه منفتاح فقد اطلق سبيلهم · وفي عهد الدولة العشرين ذاد رعمسيس الثالث عن المملكة بكل اقدام فصد البرابرة والتكريين واهل البادية والفلسطينيين الخ واسترجع سوريا بعد انسلاخها مدة عن بلاده ·

وانتهى عهد ملوك ثيبة بالفوضى وتغلبت سلطة الكهنة على سلطة الفراعنة ملوك الدولة العشرين وقاموا في الملك مقامهم

الفصل السادس

عهد ملوك سائس

من الدولة الحادية والعشرين الى الدولة الثلاثين

(من عام ١١٠٠ الى ٣٣٢)

عواصمهم تانيس وبوباست وسائس

ملخص

ا — فتن وفتوحات (من عام ١١٠٠ الى ٦٥٦) التخلي عن ثيبه — التانيتيون البوباستيون والسائسيون

ب— تقدم وعظمة(من عام ٦٥٦ الى ٥٢٥) إبستمخوس الاول (من ٦٥٦ الى ٦١٧) نخو (من ٦١٧ الى ٦٠١) اماسيس (من ٥٧٠ الى ٥٢٦)

ج — الافتتاح الفارسي (٥٢٥) وقعة بلوز

بعد ان توسعت اطراف مصر لعهد ملوك الدول الفاتحين على اثر الحروب التي شهرها على الشعوب من ضفاف النيل الازرق حتى ضفاف الفرات تقلص ظل

سلطتها وانحدرت حدودها القديمة وتوالت عليها ايام الشدة وتلاشت سلالة رعمسيس عجزًا ووهنًا

والفتن الداخلية التي كانت علة ذلك التلاشي او الانحطاط قد زادت خطرًا بغزوات البرابرة الجديدة التي طال امدها نحو اربعة قرون

اما ملوك سائس فقد تمكنوا من ضبط شؤون المملكة واكسبوا مصر بعض المجد والتقدم . ولكن لم يكن ذلك إلاَّ في اثناء قرن واحد لان الفرس قد غزوا مصر ومحوها من جدول الامم

١ — فتن وغزوات (من عام ١١٠٠ الى ٦٥٦)

من حرحور الى ابسمتخوس الاول

التخلف عن ثيبه — ان ثيبه المدينة التي بلغت ذروة المجد من قبل قد تهيأت للانحطاط والسبب في ذلك حاجات جديدة ماسة . ففي عهد الدولتين التاسعة عشرة

والعشرين اقام رعمسيس الثاني ومنفتاح ورعمسيس الثالث في لدلتا ليصدوا عن البلاد غارات البرابرة الذين كانوا يطرقون ابوابها مرة بعد مرة · والذي حدا بهم الى اتخاذ الدلتا في مكان ثيبه مباءة لهم هو ان هذه كانت بعيدة لا تمكنهم من تلافي الخطر الذي كان يهددهم · ومنذ ذاك الحين اخذ مركز الدولة او عاصمتها بالانتقال متجهين بها وجهة الشمال حتى استقروا بها في مصر السفلى تارة في تانيس وطورًا في بوباست

ماوك تانيس — لم يخلف حرحور من يستطيع اكمال ما شرع به · وفي عهده نودي بسمندس من التانيت ملكاً واعترف بسلطته سكان الدلتا واواسط مصر وأسس الدولة الحادية والعشرين ونشبت منذ ذاك الحين الحرب بين الاسرتين وكان الفوز فيها لملوك تانيس ·

فعمل فراعنة تانيت جهدهم على تعمير تانيس

العاصمة الجديدة ولمع ضياء مجدهم في الخارج وصاهر احدهم سليمان . ودعتهم الحاجة الى زيادة جنودهم المأجورين لترسيخ قدمهم في الداخل ودرء الاخطار التي كانت تهددهم من الخارج ولكن قد اسلموا بهذه الطريقة مملكتهم الى البرابرة لان الجنود الذين كان معظمهم من الليبيين قد اتخذوا لهم قواداً من الامراء اعضاء الاسرة المالكة وهولاء ما لبثوا ان استولوا على مصر بالاعتماد على جنودهم فكانوا يرفعون ويخفضون من شاؤوا من الملوك ويقومون احياناً مكانهم

البوباستيون — وكان في جملة من ضفر على راسه تاج مصر وقبض بيده على ازمة الملك شيشونق او (شيشق المذكور في الكتاب) وكان هذا الملك من ابناء اولئك القواد. اما ابناء حرحور واحبار الاله آمون فقد انقطعوا الى نباطا في اثيوبيا حيث انشأوا مملكة مستقلة .

وكان شيشونق ملكاً ذا بأس وقوة لم يخش سطوة سليمان وقد أجار يربعام من غضبه . وفي السنة الخامسة من انشقاق القبائل غشي اليهودية وغزاها لعهد رحبعام فنهب اورشليم وتوغل في فتوحاته حتى ماجدو . ولم يكن من غرض لهُ في هذه الحرب إلّا الاعجاب بقوته . وعقيب وفاتـه تخلى خلفاؤُه عن حقوقهم في اليهودية .

وسالم خلفاء شيشونق جيرانهم مسالمةً كانت اقرب الى الضعف منها الى حب السكينة طبعاً لان مسالمتهم ادت الى الوهن والضعف فتراخت سلطتهم حتى استرجع ولاة الشعوب المجاورة استقلالهم شيئاً فشيئاً وصاروا على تمادي الايام ملوكاً وكان عددهم زهاء العشرين

السايت — وتغلبت اسرة ملوك سائس على اولئك الملوك الذين كانوا نازعين الى الفتنة والسلب ولكن ما كادت تستقر على كرسي الملك حتى هددتها الاخطار

العظمية بالخمول الابدي · فاستنجد الولاة لكيدهم ملك نباطا وكان كاهناً فزحف هذا بعسكره العديد وفصل الخلاف باخضاعه الجميع لسلطانهِ

وبينا كانت الثورات والفتن تعبث بملوك نباطا تمكن بوخوريس احد اعضاء اسرة ملوك سائس من استرجاع استقلاله واذلال كل ولاة مصر لانه كان ذا جرأة واقدام · وطال امد ملكهِ ومجدهِ سبع سنوات · لانهُ لما ألقى عن عاتقه ربق العبودية بادر للانتقام منه سباكون ملك اثيوبيا فاستظهر عليه واحرقه حياً · وامتدت سلطة سباكون على مصر التي تمتعت في ايامه بالراحة وعملت على تقدمها مدة عشرين سنة

وكان استظهار سركون ملك اشور على سباكون في رافيا (٧١٨) وبالاً على مصر لان سقوطه واندحاره قوّى جانب الولاة العشرين الذين كانوا يحدقون بها فهاجوا وماجوا وكان هياجهم علة الضعف والوهن وقد

بلغ ذلك من مصر مبلغاً عظيماً حتى صارت فريسة تنازعها ملوك اشور واثيوبيا مدة خمسين سنة وفي ذلك الحين قام ابستمخوس احد اعضاء اسرة سائس فقهر الولاة ونزع منهم الولاية واخضعهم لسلطته واستولى على الدلتا والصعيد وأسس الدولة السادسة والعشرين ووحد بين اقسام مصر او ولايتها حتى عاودتها القوة لمقاومة الاجنبي

ب — في آخر عهد المجد القصير

عاصمة سائس

من ابستمخوس الاول الى الفتح الفارسي

من (٦٥٦ الى ٥٢٥)

ابستمخوس الاول (من ٦٥٦ الى ٦١٧) انهض هذا الملك مصر من مقعدها الخرب فازهرت في عهده الصناعة والآداب والفنون وعنه حفظت الرسوم والصور والانصبة من ذهب وفضة والخواتم والحلي وكلها متقنة

الصنع · ورمَّ ايضاً في الوقت نفسه الميا كل والقني واصلح الطرقات ونما السكان بتنشيطه لهم

وكانت السياسة الخارجية موضوعة على خطة الحكمة والضبط لان ابستمخوس لم ينزع الى الفتوحات وقد اقتصر في بعثاته على تدويخ سكان سواحل فلسطين البحرية وقصر همه على صيانة مصر من الغزوات التي حملتها من العذاب صنوفاً فانشاء الحصون في الجنوب اتقاء هجمات الحبشة وفي الشرق صداً للاشوريين وغرباً ارهاباً لليبيين · ومع ذلك قد ارتكب هذا الملك خطاءً فاضحاً باغضاب الجندية · فاكرم من استأجرهم من اليونان والايونيين والكاريين الذين ساعدوه على الاستواء على كرسي الملك وجعلهم حراساً لهُ · فلما رأى الجنود الليبيون والوطنيون انهُ قد تخلى عنهم احتشدوا مسلحين وتوجهوا الى اثيوبيا · فبادر ابستمخوس للاعتراض في سبيلهم طالباً اليهم العدول عن عزمهم فلم يعبأُوا به

وكان عدد هولاء الجنود مائتين واربعين الفاً وكان خروجهم من مصر ضربة عنيفة اذ جرّأ السياريين على تهديد الدلتا بالغزو ولما شقّ على الملك ان يحشد عسكراً للذود عن بلاده اضطر الى ان يغريهم بالهدايا للرجوع عنها

نخو الثاني (من ٦١٧ الى ٦٠١) هو ابن ابسمتخوس وقد اعاد ذكر الفراعنة العظماء بنشاطه واقدامه ولو أُتي ما أُوتوه من اسباب التقدم والقوة لكان ماثلهم وحاكاهم في ايامه. وفضلاً عن الجيش العظيم الذي خلفه لهُ والدهُ انشاء السفن الحربية التي مكنتهُ من بسط سلطته على البحر الاحمر والبحر المتوسط وحاول ان يصلح الترعة التي انشأها ستي الاول بين البحرين فطمرتها لرمال في اواخر الدولة العشرين فلم يفلح واكره على ترك العمل بعد ان فقد الوفاً من جنوده

ولكن ما لبث ان افلح في مشروع آخر جليل

وهو ان الصوريين والقرطجنيين كانوا قد جهروا سواحل افريقيا الغنية بالذهب والعاج والعطارة والخشب الفاخر وكانوا يغارون على تلك السواحل البعيدة فيمنعون الامم الاخرى من الوصول اليها عن طريق البحر المتوسط فعمل نخو على الاهتداء الى طريق جديد فارسل عرضاً واتفاقاً بحارين من الفينيقيين في خليج العرب

فاتجه الفينيقيون وجهة الجنوب واستمروا على هذه الحال عدة اشهر وعن يمينهم البر الذي كان يمتد امامهم والشرق عن يسارهم

ولما كان الخريف نزلوا الى البر فبذروا الحنطة التي جاؤا بها معهم واقاموا في تلك الجهة ينتظرون ابان الحصاد حتى اذا انتهوا منه استأنفوا الابحار . وبينا هم في عرض البحر بدا لهم ما ادهشهم واخذ بمجبهم وهو ان الشمس قد بدلت مجراها فعدلت عن الشروق عن يمينهم وذاك لانهم كانوا قد تجاوزوا وهم لا يدرون جنوبي

افريقيا واخذوا في طريق الشمال وما زالت سفنهم تمخر في البحر حتى ادركوا اعمدة هرقل فدخلوا منها الى مرافئ مصر . فدام هذا الطواف في البحر ثلث سنوات وحفظت التواريخ ذكره غير انهُ لم يجدِ التجارة نفعاً

وبعد ذلك فتنت نخو الغزوات فعزم على غزو آسيا لكبر سن نابوبولصر ملك بابل الذي قلب دولة اشور فتوجه نحو الفرات سالكاً الطريق الذي سلكته مراراً العساكر المصرية ماراً برافيا وغزة وعسقلان ومضايق الكرمل وماجدو واعالي الاردن ووادي العاصي واخيراً حماه . وكان يأمل نخو ان يجتاز واديي الاردن والعاصي دون ان يلقى معترضاً ولكن ما كاد يخرج من مضيق الكرمل حتى التقى بطلائع العدو اي بطلائع عسكر يوشيا ملك يهوذا فبعث اليه نخو رسلاً تفاوضهُ بالسلم فاصمّ يوشيا أُذنيه عن كلامهم

والتحم الجيشان في بساتين ماجدو عام (٦٠٨) فقتل

ملك يهوذا واستأنف نحو المسير الى الفرات ولم يستقر الاّ على ضفافهِ . ووضع العساكر المصرية للمحافظة في المواقع الخطرة ثم عاد فتلقى الاكرام والتعظيم من الولاة الذين كانوا في سوريا واجلس يواقيم الذي كان يماثلــهُ على كرسي مملكة يهوذا . واسترجعت مصر سلطتها على سوريا بعد خمسة قرون من زوالها عنها

ولم يطل خضوع سوريا لمصر لان نبوخذنصر بن نابوبولصر زحف بعسكره يريد محاربة نخو فتقدم هذا موقناً بالاستظهار عليه . وقد قيل فيه . « من المقبل من هناك اقبال النيل فيندفع جنده اندفاع مياه النهر هو المصري الذي يقبل اقبال النيل وكالنهر الذي تتدفق مياهه . يصعد فيملأ الارض بفيضه وسيغرق المدن وسكانها . تقدمي ايتها الخيول واسرعي ايتها العربات . »

ان الذي كان يسير معجباً للقتال قد دحر في كركميس (٦٠٥) وطارده نبوخذنصر ولما بلغ بلوز

وتأهب للزحف الى مصر بالغه منعى ابيهِ فرجع حالاً
الى بابل. فنجا نخو بنفسه ولكن فقد كل فتوحاته ومات
بعد عام (٦٠١) دون ان يثأَر من عدوه . وخلفه ابنه
الحدث ابسمتخوس الثاني على الملك وكان عهد ملكهِ
قريب المدى لم يذكر من تاريخهِ إلاَّ زحفه على
اثيوبيـا .

ابريس (اوحفرع الكتاب) (من ٥٩٥ الى ٥٧٠)

كان آخر ملوك سائس وقد اراد التدخل في شؤون
فلسطين لمعاضدة صدقيا ملك اورشليم ومناصرته على
نبوخذنصر الذي كان يهدده . فلم يجدِ تدخله نفعاً اذ
انتقم من نبوخذنصر بغزوه ولايات الدلتا الشرقية

ولما اراد الاستيلاء على كيرين اخفق مسعاه وقد
ابتنى اليونان هذه المدينة نحو عام ٦٢٥ قبل المسيح

ولما كان سكان كيرين يضايقون قبائل ليبيا
استصرخت هذه ابريس فارسل لنجدتها جيشاً مصرياً

فدحر ولما نمى الخبران الملك قد خانه اقاموا مكانه ضابطاً يدعى امسيس فقهر ابريس المنكود الحظ في ممفيس وقبض عليه وخنقه

امسيس او اهمس (من ٥٧٠ الى ٥٢٦) رأى هذا المغتصب توطيداً لسلطته ان يتزوج بابنة ابسمتيخوس الثاني ولكن لما كان خامل الاصل لم يؤدِ لهُ الشعب بدأَة بدء الاكرام الواجب فستر خموله بحذاقته وفطنته ودرايته ومع ذلك لم يقوَ على استمالة شعبه ·

وقد قال هيرودوتس كان عهد افسيس موصوفاً بالتقدم ولم يعادله فيه إلا القليل من سلفائهِ فاثرى المصريون لايامهِ بالاتجار ونصر هذا الملك اليونان لاتصال العلائق التجارية بينهم وبين امته فأباح لهم ليس فقط الاقامة في نوكراتيس وانشاء الهيا كل لآلهتهم في ارض مصر بل ارسل التقادم الفاخرة لهيا كلهم في بلادهم · وحذا حذو سلفائه في تنشيط اصحاب الفنون

فابتنى الهياكل والمسلات العديدة والتماثيل من نوع الاسفنكس والانصبة والاعمدة وبالجملة انهُ قد خيل لسكان البلاد ان قد عاد اليهم عهد ابسمتخوس الزاهر

ج — الفتوح الفارسي (٥٢٥)

وقعة بالوز — لما كان امسيس معاصرًا لقورش العظيم وقع القلق في نفسهِ من تقدم دولة الفرس وانبساط ظلها . فخطر لهُ بداءة بدء ان ياخذ الاهبة لنفسه بمحالفة اعدائه ثم رأى من الحكمة ان يخطب مودة الفاتح فعاش معهُ بكل سكينة وأَمن

اما كميس خلف قورش فقد حدثهُ الطمع لحداثة سنه بالاستيلاء على مصر

وكانت وفاة امسيس عندما وصلت عساكر الفرس الى بالوز وعجز ابنه ابسمتخوس الثالث عن ملافاة الخطر الشديد فدحر عسكره في بالوز ودخلت مصر في

حوزة الفرس . وبعد ان كان قد عفا كمبيس عن ابسمتخوس قضى عليه بالعذاب لانهُ اتهم بالمؤامرة وكان دخول مصر في حدود بلاد الفرس عام(٥٢٥)

ولم تخمد جذوة الحقد في نفس المصريين فحاولوا مرارًا ان يلقوا عن عاتقهم ربق الخضوع لملوك فارس فاسترجعوا استقلالهم لستين سنة من عام ٤٠٦ الى ٣٤٥ (في عهد الدول الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين) وكان اخر ملوكهم نكتانبو الذي حارب الفرس دون طائل الى ان قام الاسكندر مقامهم عام ٣٣٢

مختصر

حرحور رئيس كهنة آمون خلف رعمسيس الثاني على الملك ولكنه فقد مصر السفلى اذ خرجت من طاعته واعترفت بسمندس مؤسساً للدولة الحادية والعشرين

التي جعلت مبأَتها تانيس · وحدث نزاع بين اسرة حرحور وملوك تانيس اسفر عن فوز هولاء · وأَدخل ملوك تانيس الاجانب في الجندية ولاسيما الليبيين وولي امر مصر كلها شيشونق من بوباست قائد العساكر المستأْجرة · فمرقت اثيوبيا عن طاعته ودخلت في طاعة خلفاء حرحور · فأَجار شيشونق يروبعام ونهب اورشليم في عهد رحبعام

وادى ضعف ابناء شيشونق الى تقسيم مصر بين عشرين اميرًا · وتمكن ملوك سائس من الولاية عليهم واستجار الامراء برئيس كهنة اثيوبيا الذي اخضع الكل · واسترجع بوخوريس احد ملوك سائس استقلاله وولي مصر كلها مدة سبع سنوات ولكن قهره سباكون رئيس كهنة اثيوبيا وملكها وقتله

وفي عشرين سنة من ذلك العهد استظهر سرغون الاشوري على سباكون في رافيا (٧١٨) وعاد العشرون

اميرًا الى مراكزهم فاخضعهم ابسمتخوس ملك سائس ٠ ونجحت المملكة وتقدمت لعهد ابسمتخوس الاول (من ٦٥٦ الى ٦١٧) وتوطد فيها ألامن والسلم ولكنهُ ارتكب خطاء في اغضاب الاجانب المستأجرين الذين انحازوا الى اثيوبيا ٠ نخو الثاني (من ٦١٧ الى ٦٠١) انشاء سفنًا حربية وحاول ان يصلح ترعة البحرين فلم يفلح وارسل البحارين الفينيقيين للتجول حول افريقيا واستغوتهُ الفتوحات فدحر في ماجدو (٦١٨) يوشيا ملك يهوذا وغزا سوريا واجلس يواقيم على ملك اورشليم ولكن استظهر عليه نبوخذنصر في كركميس وخلت يده من كل فتوحاته (٦٠٥)

ولم يطل عهد ابسمتخوس الثاني بن نخو بالملك (من ٦٠١ الى ٥٩٥) وخلفه ابريس (من ٥٩٥ الى ٥٧٠) وفي اثناء حملته في كيرينايك قتله عسكره وولوا اهمس او اماسيس مكانهُ (من ٥٧٠ الى ٥٢٦) وكان

التقدم والمجد حليفي مصر فعمل على رعاية جانب ملك الفرس قورش ومات حين هدده كامبيس بن قورش وفي وقعة بالوز التي دحر فيها البسمتخوس الثالث (٥٢٥) كان استيلاء الفرس على مصر. ثم استرجعت استقلالها من ٤٠٦ الى ٣٤٥ وابعد الاسكندر الكبير الفرس عام ٣٣٢ .

الفصل السابع

الديانة المصرية

ملخص

اله الكهنة — الثالوث المصري — الثواليث المحلية — المعبودات الحيوانية — ابيس — خلود النفس

من المشاهد البهجة بل من اعظمها شأناً ما يبدو لنا من آثار التمدن الزاهر في مصر لاربعة او خمسة الاف سنة قبل المسيح اي في الاعصار المتوغلة في القدم .

وهذا التمدن واضح في مصر التي وضح فيها ايضاً تاريخها وانجلى . ففي ما اخلفهُ ملوكها من الآثار التي لا تعفى والمدافن العديدة والادراج والانصبة والتماثيل اسفار لم تستودع فقط ذكر حوادثها السياسية والخارجية بل تاريخ ديانتها وصناعتها وعوائدها وعيشتها الخاصة

فنبدأُ في الكلام عن الديانة التي أَثرت في التمدن المصري وبها استضاءَت الامة المصرية واستصبحت

اله الكهنة —والتالوث المصري— كان المصريون معتصمين بالدين اعتصاماً شديداً اذ كانوا يدخلونه في جميع اعمالهم سواء كان في حياتهم الخاصة او العامة . وكانت كهنتهم تعتقد في الالهة اعتقاداً سامياً الى حدٍ خيل معهُ انهُ ملابس لاعتقاد موسى الموحى اليه . اذ كانوا يعتقدون بالهٍ واحد في الجوهر ولكنه ثلثة في الجسم وهذا الثالوث يتأَلف من ابٍ وامٍ وابن . وهذا الاله المثلوث والواحد معاً كان متصفاً بكل صفات الالوهية

وهي العظمة والازلية والاستقلال والارادة السامية والرحمة غير المتناهية

الثواليث المحلية — وتألفت عدة ثواليث محلية اي لكل مدينة ثالوث ففي الدرجة الاولى ثواليث ثيبه (امون وموت وقونس) وثالوث ممفيس (بتاح وسوقت وايموتاس) وثالوث ابيدوس (اوزيريس وايزيس وهورس)

واشركوا هذه الالهة بالكواكب فشبهوا را الشمس بأمون واوزيريس وبتاح وجعلوا ايزيس القمر واما الاله الذي لم يشرك المصريون به احداً فهو اله النيل . وقد اقاموا لهُ في كل ولاية الهياكل والكهنة وكانوا يحتفلون بعيده في انقلاب الشمس الصيفي وقبل ان تفتح القني التي تفيض فيها المياه على الاراضي

ومن الروايات المنقولة عن المصريين انهم كانوا يطرحون في تلك المياه بكل احتفال فتاة من النبيلات وقد تزينت بزينة العرس . وكان يقال لها خطيبة النيل

المعبودات من الحيوانات — وذهب المصريون الى الاعتقاد ان المتهم قد تقمصت اجساد حيوانات ولم يقتصروا على تمثيل الالهة بصورة بشرية اي بصورة رجل او امرأة بل مثلوها بصورة مشتركة بين البشرية والحيوانية كأن يكون الجسم جسم انسان ولكن الراس رأس حيوان كرأس هرة او لبؤة او كبش او باز . وتوصلوا الى ان عبدوا التمساح والكلب والسنور والكركي ولا سيما الثور أبيس الذي كانوا يدعونه حياة بتاح الثانية ونفس اوزيريس . واقاموا الهيا كل ايضاً للحيوانات الدنيئة ونكبوا بكل من كان يجرأ على ان يمد لها يداً بالأذى

روى ديودورس انهُ بينا كان يتجول في مصر (لخمسين سنة قبل المسيح) قتل روماني مقيم في الاسكندرية هرًّا عرضاً واتفاقاً فتألب في الحال الشعب عليه وقتله مع انه كان رومانياً ومع توسلات الملك

الذي كان يناط امره بملوك رومية وخوفه الشديد من ان يزال الملك عنه'

ومن الراجح ان الكهنة كانوا يعتبرون تلك الحيوانات صورة الهتهم الحية واشكالها الحسية على ان عبادتهم لها كانت موجهة الى غير منظور ٠ اما العامة فقد ثبت ان عبادتهم كانت محصورة في الحيوان لا تتعداه ولم يكن دينهم إلاَّ وثنياً محضاً وقد قال فيهم بوسويت ٠ كان كل شيءٍ في مصر إلهاً إلاَّ الله

ولما اعتبر المصريون الثورابيس مظهر الالوهية التام اخذوا يعنون في تمييزه من سائر الثيران ومن ميزاته ان يكون اسود ذا غرة مثلثة وان يكون على ظهره رسم عقاب او نسر باسط جناحيه وعلى لسانه صورة خنفساء دوية عزيزة على بتاح واخيراً يجب ان يكون شعر ذنبه مضاعفاً ٠ وكان هذا الثور عائشاً في معبدٍ كسر هيكل بتاح في ممفيس

وكانوا يؤدون لهُ الاكرام الواجب للالهة مدة خمس وعشرين سنة حتى اذا انصرمت هذه المدة غرقه الكهنة في عين ماء مكرسة للشمس وحنطوا جثته واودعوها قبراً يزوره الاتقياء ويضرع اليه المتعبدون لان ابيس كان الهاً في حياته ومماته

خلود النفس — كان المصريون يعتقدون في حياة أخرى ولا يرون في الموت الا تبديل الحياة. والانسان عندهم كان يعيش تحت الارض كما كان عائشاً عليها. ولئن كان الجسد يخمد فان مثالهُ الكامل يحيي بعده. وكانت تقوم حياة المثال بالمحافظة على الجسد او الهيكل الاصلي . ومن هنا يستدل على مزيد عناية المصريين في دفن الموتى اذ كانوا يحنطون الاجساد على طريقة فقدت منذ امدٍ مديد. وكانت الموميا تبقى بعد تحنيطها في امنٍ من التلف

وبعد ان كانوا يحنطون الجثة كانوا يودعونها

ديماساً تختلف زينته باختلاف مقام الميت . وكانوا يسدّون مدخل الديماس بقطع من الصخر ضخمة ضناً بكرامة الميت ان يدانيها رجس

ومن عقائدهم ان مثال الجثة الحي كان يعيش في القبر فلا يزايله الاّ طلباً للرزق عند اغفال الانسباء الاتيان بالتقادم اليه

ومن الامور المتناقضة التي لم يخطر ببال المصريين كشف النقاب عنها ان النفس لم تكن تقيم مع المثال بل كانت تفارقه لتمثل بحضرة اوزيريس وقضاة الجحيم الاثنين والاربعين . حيث كانت توزن اعمالها في ميزان الحقيقة والعدل الذي لا يزلّ . فالنفس المذنبة كانت تسقط في الجحيم حيث تقتات وتشرب من المواد الدنيئة وتطاردها العقارب والحيات وحيث تلقى الموت بعد احتمال العذاب الواناً

اما نفس البار فكانت تتمتع بالغبطة بعد التجارب

العديدة وتصير رفيقة اوزيريس ينبوع الرحمة الذي يقدّم لها اشهى الاطعمة ·

مختصر

كانت الديانة في مصر تلابس حياة المصريين من كل ناحية · فالكهنة كانوا يعترفون بوحدانية الله وكانوا يذهبون في الالوهية مذاهب سامية · ولكن العادة التي جروا عليها في اتخاذ البشر والحيوانات امثلة لالهتهم ولّدت في الشعب عبادة الالهة المتعددة · وترك الكهنة انفسهم الثالوث المصري الاصلي لعبادة الثواليث المحلية · فعبدت ثيبه آمون وموت وكونس وممفيس بتاح وسوقت وايموتيس · وابيدوس اوزيريس وايزيس وهوريس · وكانوا يشركون عادةً عبادة امون وبتاح واوزيريس بعبادة را اي الشمس · وكان النيل دائماً الاله الوطني العظيم · وفي جملة الحيوانات التي عبدها العامة

الثورابيس فانهُ كان عندهم في المنزلة الاولى من المعبودات

وكان المصريون يعتقدون بحياة اخرى . وكان الميت في القبر يتقمص او كان لجسده مثال حي اما نفسهُ فكانت تحاكم بحضرة اوزيريس فتنال اما النعيم وإما الجحيم حسب اعمالها



الفصل الثامن

المجتمع الانساني في مصر

ملخص

ا — الملك — مزايا المملكة — البلاط — الادارة — الانظمة والمحاكم

ب — الطبقات المتميزة — النبلاء الكهنة ابطال الحرب

ج — الشعب الصناع او الاعيان = الاكارون او الفلاحون

ا — في الملك

مزية الملكية — كان الملك رأس المجتمع الانساني في مصر وكان لقبه فرعون · ولم يكن فرعون فقط ملكاً بل كان الهاً · ولما كان خليفة الالهة الذين ولوا وادي النيل ومن نسلهم كان مظهرهم الحي وفيه يتجسم الاله · ولذلك كان ينادى به دائماً « سي را » اي ابن الاله الشمس · ويحمل في يديه شعار الالهة العظام الذي

كان يتألف من صليب الحياة الذي كان يماثل بنوع عجيب الصليب المسيحي والكلب والسوط والصولجان ذي رأس كلب سلوقي و يجعلون على رأسهم اكليلاً عليه صورة افعى مذهبة بهيئة مهددة

واذا مثل احد الرعية بين يديهم أطرق في الارض منحني الظهر مستنشقاً التراب امامهم وساتراً وجهه بيديه مخافة نار لحظاتهم وقدم لهم عرض الحال وهو يهمس بما يفيد تذلله لهم

وكان الشعب يعبد الملوك في حياتهم وكان لهم كالالهة فيئة من الكهنة يقدمون لهم البخور وسائر التقادم واحياناً كانوا يحرقون البخور لصورهم

وكانت الآداب التي يجب المحافظة على العمل بها بحضرة الملك الاله صارمة جداً . وكانت اعمال الملك في حياته العامة والخاصة اي في اسرته مضبوطة على قواعد لا تتغير ولا تتبدل . ومع سلطتهم المطلقة على

الرعية كانوا مستعبدين للدين وللعوائد . فاذا وقفوا المواقف العامة زانهم الجلال والهيبة والوقار ولكن اذا خلوا في منازلهم زحزحوا عنهم خطة التحجب وعافوا مؤونة الاحتشام ولذلك نرى رعمسيس الثاني مصوراً وهو يدفع مع حليلته واولاده البيادق على رقعة الشطرنج

وجاء بعد المؤرخين اليونان ان الملوك اذا قضوا نحبهم كانوا يحاكمون بكل احتفال بحضرة مجلس الامة فيحكم هذا إما بدفنهم وإما بانكاره عليهم . ولكن هذه الرواية فرية لان الملك كان الهاً في حياته وبعد مماته . وكان يدخل مقر الالهة المصريين حيث يلاقي من خلفائه التكريم الواجب للالهة كما لاقى اوزيريس وبتاح او آمون

البلاط — وكان يحدق بالملك حاشية عديدة . وكان لهُ حلاقون يحلقون شعر رأسهِ ولحيته . ومزينون يصطنعون لهُ الزينة من الشعور العارية سواء كان لرأسه

او للحيته . وغلمان يقلّمون اظافره ويصقلونها ومطيبون
يطيّبون اعضاءه بالزيت والمراهم الذكية العرف ويزججون
حواجبه ويصبغون شفتيه ووجنتيه . وكان لهُ اطباء
يعنون بتمريضه واستحضار العلاج وتقديمه وتجريعه .
وما كان اكثر عدد الذين كانوا قائمين بخدمته لارصاد
الالبسة والمحافظة على الحلي والجواهر والتيجان والاكلة
ولاعداد الملاهي والمرقص وآلات الطرب والندماء
وكان لهُ كثير من الطهاة والسقاة والخبازين والجزارين
وصناع الحلوى والصيادين والقناصين ومقدمي الاثمار
والسحرة والمشعوذين والعرّافين ومفسري الاحلام والرواة
الذين كانوا يسلون الملك بالامور المستغربة كأن يدلّون
العصا بحية او بوضع رأس حيوان موضعه بعد قطعه

وكان يحتاج لايواء نسائه واولاده ليس فقط الى
قصر فسيح بل الى مدينة . وكان البناء من خشب
وأجرّ وهن الاركان لايدوم اكثر من عمر بانيه . وقد

كثرت القصور في ايام الفراعنة لان كلاً منهم كان يرغب في ان يكون له قصر خاص به يبنيه على هواه ولا يألفه فيه ذكر السلف الذي يزعجه

وكانت منازل الحاشية والمأمورين القائمين بخدمة خزائنه واراضيه واهرائه قرب القصور الملكية . وكان الفراعنة يملكون بداءة بدء جميع ارض مصر غير انه لم يبقَ لهم بعد بناء الهيا كل واقطاع ما اقطعوا منها المقربين منهم الا نصف اراضي مصر. ولم يكن التعاطي بالنقود معروفاً عند المصريين فكانوا يؤدون الضرائب من غلاتهم

الادارة — وكانت مصر مقسومة الى ولايات لا تعادل الولاية في مساحتها الولاية في فرنسا وقد تراوح عددها بين الست والثلاثين والاربعين . وكان يدير شؤون تلك الولايات ضباط تحت سيطرة الملك واحياناً يتوارث الولاية الامراء

وكان للملك في الادارة اعوان من الكتبة قد انتظمت شؤونهم انتظاماً دقيقاً وتوفرت المهام لديهم وضبطت الحسابات عندهم اتم الضبط

التشريعة والمحاكم—كانت الشريعة في عهد الفراعنة قائمة بادارة الملك وقد اطنب بوسويت في وصف الشريعة المصرية حيث قال انها كانت بسيطة وعادلة . وكانت كافية لصيانة الاملاك والشرف والحياة لانها كانت موطدة على العدل وكان يعاقب القاتل بالقتل ومثله من شهد القتل ولم يسع في منعه . وكان يجازي اشد المجازاة من حلف زوراً او اعتدى على العرض وكانت الانظمة المدنية موضوعة ايضاً على قواعد الحكمة لصيانة حقوق الخاصة . وكانت المواثيق وعقود البيع والاجارة معززة

وكان الملك المشترع والقاضي معاً . ولكن لايحكم عادة الا في القضايا الهامة ويعهد الى من في امرته بالفصل

في المشاكل التي ليست بذات بال . وكان القضاة في الولايات الكهنة اذ كانوا ايضاً ولاتها . وكان الحكم يستلزم دعوة الشهود والنظر الدقيق في البينات خطاً . وفضلاً عن ذلك كانت تدعو الحاجة الى اليمين والى الضرب .

فاذا كان الجرم خفيفاً يؤدب المجرم بالعصا والسجن والغرامة . واذا كان من نوع الجناية فبالاعمال الشاقة وجدع الانف وقطع الاذن والشنق وقطع العنق والتعليق على الخشب

— ب — الطبقات المتميّزة —

وكان في مصر بعد الملوك ثلث طبقات متميزة من المجتمع الانساني وهي النبلاء والكهنة وابطال الحرب . النبلاء — كانت طبقة النبلاء تشمل ابناء الملوك والامراء من الأسر المستقلة قبل تأسيس المملكة وأسر

كبار المأمورين او وزراء الملك . وكان النبلاء يقومون بمهام المملكة ويعفون من الضرائب وكان شعارهم عصا من خشب الطلح

وضعفت حال النبلاء واستعبدوا في الدلتا حيث اتسعت اطراف اراضي الملك وارتفع شأنهم في مصر الوسطى والعليا وتمكنوا من تعزيز استقلالهم غير انهم كانوا يؤدون الاتاوة للملك . وكان لمصر ولايات وامارات تؤدي الجزية لملوكها

الكهنة — وكانت طبقة الكهنة تحاكي طبقة النبلاء اذا لم نقل انها كانت تعلوها . وكانت سلطة الكهنة نافذة قوية لانهم كانوا الوسطاء بين الشعب والالهة وفضلاً عن ذلك لانهم كانوا من ارباب الوظائف والمناصب في باب المملكة فكان منهم الولاة والقضاة حتى قوّاد الجيش وكانوا من اصحاب المعارف والعلوم ليس فقط في الامور الدينية بل في الامور الزمنية اذ كانوا ذا ضلع

في الهندسة والحساب والنجوم والآداب وبعد هذا وذاك لانهم كانوا يؤوّلون ويفسرون للملك اشارات الالهة وكلماتها لان الملوك كانوا يشاورون صور الالهة اذا عزموا على عمل خطير. ومع غلاظة الطريقة التي كانوا يجرون عليها في التأويل والتفسير لم يتزعزع ايمان الشعب

وكان الشعب يحترم الكهنة ويجلهم وقد عاد عليهم هذا الاجلال وذاك الاحترام بثروة طائلة لان تقوى الملك والاعيان كانت تحدو بهم الي ان يقفوا للهيا كل الاراضي الفسيحة . وقد بلغت هذه الاوقاف على تمادي الزمان نحو ثلث ارض مصر . وكانت عوائد تلك الاوقاف وتقادم المتعبدين ولحوم الذبائح تعود الى الكهنة وكان هولاء يعفون من الضرائب والسخرة والخدمة في الجنديــة

ولكن كان يترتب عليهم في مقابلة ذلك ان يقوموا بعدة فروض دينية اما الفروض الصحية فقد

كانت على ما قال هيرودوتس كثيرة . اذ كان يفرض عليهم المحافظة على نظافة ابدانهم واثوابهم . وكان ثوبهم من الكتان الابيض الناصع وحذاؤهم من ورق البردي وليس من سواه

ابطال الحرب — لم يكن للجنود نفوذ الكهنة وثروتهم ومع ذلك كانت طبقتهم متميزة يغارون على حقوقهم ويحسدون عليها . وهذه الطبقة المؤلفة من رجال لا يعرف لهم اصل كانت تقبل خاصة رجال البادية والزنوج والحبشان واسرى الحرب والشاردين من ليبيا وما يلي البحار لان المصري لم يخلق نازعاً الى الحرب ولا للخدمة طوعاً . وكان حراس الملك من الجنود المستأجرة الذين كانوا يقومون ايضاً بقيادة الجنود الوطنيين ابان الحرب وكان لهم اراضٍ عائدها زهيد غير انه كان كافياً للقيام بحاجاتهم وحاجيات عيالهم . وكانوا يعفون من الضرائب والسخرة وارتفع على تمادي الايام شأن الجنود

حتى هابهم الملوك وامراء مصر

— ج — الشعب —

وكانت العامة في مصر من الصناع والحراس الذين لاشأن لهم ولا مزية وكانت كل الضرائب تبهظ اعناقهم ·

الصناع — كان الصناع يسكنون المدن والقرى ومن اجل ذلك كانوا يسمون من اهل الحضارة غير انهم لم يكونوا في شيء منها · لان المتمدنين او ذوي الحضارة حقاً كانوا من خدمة الهيا كل او المأمورين الذين يتصلون بخدمة الادارات الملكية او الاميرية · وكانوا يرتزقون من عوائد ثابتة لا يؤدون ضرائب ولا تلين مناكبهم للسخرة · وكانوا من ذوي المعارف لا يحتفلون بالعملة الذين يمتهنون بالمهن للارتزاق بل كانوا يستخفون بهم ويزدهوهم جهرة

وكان الصناع وارباب المهن والمحترفون من بنائين وخياطين وحدادين حتى اللصوص يجتمعون جماعات جماعات . وكان يفرض عليهم تأدية عدة ضرائب منها على الاشخاص ومنها على العقار والصناعة او الحرفة وفضلاً عن هذه الضرائب كانوا يضطرون الى الخدمة دون بدل في مايدعوهم اليه الملك او الامراء سواء كان للعمل في القصر او في الابنية . وكان كل ذلك يضايق الصناع ويجعل عيشتهم مريرة . وقد وجد مكتوباً على درج «لم ارَ اصلاً حداداً سفيراً او ساكباً مندوباً لمهمة ولكن رايته عاملاً في كوره خشن الاصابع كالتماسيح ورائحته نتنة كرائحة السمك الزنخ . والنقاش الذي يعمل بازميله يشتغل ليلاً على ضوء المصباح . والنحات لا يتوقف عن العمل حتى تتلف يداه والحلاق لذي يشتغل حتى المساء اذا جلس للطعام فعلى ابهامهِ : أأقول لك ماذا يفعل البناء؟ ان العمل يتلف يديه فيأكل نفسه بنفسه

لان ليس لهُ خبز إلاَّ اصابعه ·»

الاكارون او الفلاَّحون— واشد ما كانت عيشة الفلاح او سكان البادية فقلما كان يملك شيئاً لان الارض كانت للملك او للامراء او للكهنة او للجنود وكانت جل مهنته إما الخدمة وإما الفلاحة· وكان يترتب عليه ان يؤدي لصاحب الارض عشر غلاته وللحكومة ضريبة التمتع بالاقامة وكانت تجبى تلك الاموال على طريقة تناهت في العنف والقساوة

ومن العادة الا يتخلى الفلاح عن ملكه الاضربًا وما كان ليشق عليه الاقامة على هذه الطريقة لولا السخرة التي كانت تستغرق معظم وقته · فانه كان يسخَّر في فلاحة ارض الملك والامير والدعامة وترميم السدود واصلاح بنائها وكري المستنقعات والابنية العامة كالاهرام والمدافن الملكية والهياكل وكان يكد ويجد من الفجر الى الليل فلا يستريح إلا ساعة واحدة

وقت الهاجرة اي في ابان الحر الشديد ومعرضاً لتهديد الناظر وهول عصاه

والفلاح اليوم مثال الفلاح لعهد الفراعنة لايملك احيانا الا مأوى حقيراً يبنيه من تراب النيل في يوم واحد لا يزيد ارتفاعه عن مترين وعرضه عن خمس عشرة قدماً مربعاً ويسقفه بالاغصان والهشيم . ويكب الفلاح على العمل من الصباح الى المساء دون ان يستريح يوماً واحداً وليس عليه من الثياب الا ما يستر به بدنه ولا ما يلتهمه الا بعض الاثمار ورغيف من الذرة المخبوز في رماد روث الحمار او الجمل المجفف ولا يدري بما يحدث في المعمور حتى في مصر

وارض مصر خصبة جداً لا يحتاج الفلاح لاستثمارها الاثمار العجيبة الا معالجتها بالادوات القديمة الصنع كالمعول والمحراث والخطاف ذو الثلاث شوكات من خشب غير ان الفلاح لم يعمل الا لاسياده ففي

القديم كان يعمل للملك ولاصحاب المناصب من الطبقات المتميزة واليوم يعمل لحاكم البلاد واعيانها

مختصر

ان الملك او فرعون يرأس الهيئة الاجتماعية في مصر وهو ليس فقط ذا سلطة مطلقة بل اله في حياته وبعد مماته . وللملك غلات نصف الارض سواء كانت ملكاً له أو ضرائب وله حاشية عديدة حافلة وادارة منتظمة يسود فيها الكتبة . والشريعة ما يريده ويقوم بتنفيذها ستة وثلاثون والياً اوقاضياً

والهيئة الاجتماعية في مصر على ثلاث طبقات متميزة منها النبلاء الذين تمكنوا من المحافظة على استقلالهم في اواسط مصر واعلاها وتوجب عليهم فقط تأدية الأتاوة . والكهنة الذين يملكون ثلث ارض مصر يقومون بالفروض الدينية و بعدة مهام اخرى . والجنود معظمهم

غريب مستأجر من سكان ليبيا
وآخر درجات الهيئة الاجتماعية او في معزل عنها
الفلاحون واصحاب المهن والصناعات والحرف والحراثون
وعليهم تلقى كل الضرائب والسخرة

الفصل التاسع

تفاصيل التمدن المصري

ملخص

المنازل — العوائد — علم الاداب — العلوم — الفنون

المنازل — ان المنازل التي بناها الفراعنة كانت موضوعة على رسم معلوم واما سائر المنازل فكانت مبنية على خطة غير قانونية لانها كانت مجموع مجازات وازقة ضيقة ندية لا ينفذ اليها النور . وكان في جنباتها مجاري مياه صغيرة او مستنقع كثير الوحول تستقي منه النساء الماء للمنازل وتشرعه المواشي لارواء غليلها

وهناك ساحة فسيحة غير منتظمة يظللها شجر الطلح او الجميز فيستظل فيها فلاحو الضواحي مرتين او ثلثاً في الشهر لاقامة السوق وانفاق سلعهم في هياط ومياط . وكانت جدران قصر الامير او الحاكم وقصور الاغنياء والخاصة المحاذية الطريق جرداء مشيدة مفرضة كجدران القلاع والحصون

اما منازل وجوه المدن فكانت مبنية باللبن او الاجر المشوي على النار او المجفف بحرارة الشمس وبعضها وقليل ما هو يتألف من طبقتين او ثلث ولكلها مصاطب اودكاك تنقطع اليها النساء لتدبير معدات المنزل او لمشافهة الجيران . وليس لمستوقداتهم من منفذ الا ثقب في عقد البناء

وكانوا يفرشون غرف المنازل على غاية من الزهد ويطلون جدرانها بالوحول واحياناً بالجير واحياناً بطلاء احمر او اصفر يرسمون به ما عندهم من المؤن والاكواز

وبعض المشاهد او المناظر لداخلية • وتقوم الحصيرة عندهم مقام الفراش فيضطجعون عليها وهم لابسون اثوابهم وفي ايام الصيف يضعون الحصائر على السطح ليرقدوا عليها • وكل رياشهم او اثاث منازلهم محصور في متكإٍ او متكائين من حجر ضخم وبعض الكراسي والصناديق لاحراز الالبسة وقوارير للعطارة من الخزف او من حجر مصقول وبعض الجفان او القصاع من حديد او خزف

اما القرى والدساكر التي يتوطنها الزراع فترى عن بعد حسنة المنظر بما يرتفع فيها من النخل والجميز والمنازل المدهونة بالجير ولكن اذا دنا منها الناظر لا يرى الا ما يبدو لديه اليوم من حقارتها وقذارتها • وتشبه تلك المنازل خرائب أو اكواخاً من اللبن او الطين ضيقة الارجاء منخفضة السقوف يكاد يستوي فيها نزيلها قائماً وما عدا بضع منازل تختص باغنياء تلك القرية او

الدسكرة فانها تمتاز بنظافتها وحسن بنائها

العوائد — كان المصريون معروفين بالعفة والكد واحترام الشيوخ والرفق بالعبيد ومواعين بالملاذ المألوفة في الهيئة الاجتماعية والمحاضرة والموسيقى والالاعيب ولا سيما في الاغاني

وكان الممتهن والقروي في مصر قديماً كالممتهن والقروي اليوم لا يندفع الى العمل الا بالاغاني والاراجيز والحداء ومن اخلاق العامة عندهم قلة المبالاة والتسليم والاحتمال ·

وكان القروي المنكود الحظ يستأنف العمل طروباً بعد ان يؤدي كرهاً او ضرباً بالعصا ما يتقاضاه منه جابي الاموال الاميرية · وكان المصريون يسترسلون الى الخرافات فيستنجدون السحر والعرافة والتطير بالنجوم دفعاً لمقدور او ازالة لروح شرير وكانت هذه الخرافات داخلة في طبهم فكان الطبيب اذا اشار بعلاج قسم

اشارته قسمين احدهما سحري والآخر طبي

وكانت تمتاز مآتم الاعيان عندهم ببعض مميزات خاصة غريبة في بابها . اذا قضى العليل نحبه خرجت نساء عائلته وقد لطخن رؤوسهن ووجوههن بالوحول وطفن شوارع المدينة هائمات نادبات لاطمات صدورهن ثم يعدنَ الى حيث أُودعت الجثة فيحدقن بها مولولات نائحات باصوات شجية يقاطعها تصعيد الزفرات والنحيب وكان يحكي نحيبهن الزئير . ويدوم ذلك مدة عدة ايام وتقوم غالباً في مقدمة جوق الباكيات نوادب مستأجرات .

الآداب والعلوم — كان المصريون يعنون في طلب علم الاداب وكان في عديد علمائهم وادبائهم ملوك كانوا يتيهون بتصانيفهم ويباهون بتآليفهم فلم يتركوا موضوعاً الا خاضوا فيه حتى الفريات التي كان يمازجها شيء من الاثار الدينية وكان لفراعنة ممفيس خزانة

كتب ذات شأن مسطرة على البردي ومنذ ذاك الحين نشرت الكتب الدينية والفلسفية والتاريخية والفلكية والهندسية والطبية والرياضية. وكانت العلوم والآداب عندهم متخاصرة واشد ما كانت حاجة المصريين الى الهندسة لانشاء الابنية الضخمة ولتقرير مساحة الاراضي بعد فيضان النيل

الفنون — برع المصريون في الفنون والصنائع ولم تحصر هذه عندهم في اصطناع ما يحتاجون اليه في عيشتهم بل كانت تتناول اسباب الترف كالمصنوعات الخشبية والصياغة والصباغة والخزفية والزجاجية والميناء وقد غادر صناعها اثاراً في منتهى الاتقان كما وضح ذلك في متحف الجيزة بجوار القاهرة او في متحف اللوفر ومما خلد شهرة المصريين ما تركوه من آثار الهندسة والنقش. واشهر عهد ازهرت فيه الهندسة المصرية عهد ملوك ممفيس الذين ابتنوا الاهرام وهذه الابنية الجمة

بدأت في اول عهد الدولة الرابعة وانتهت في الدولة الرابعة عشرة لان كل ملك بل كل امير بل كل اميرة كانت تعنى في ان يكون لها مدفن خاص . وكانت هذه الابنية الواقعة على ضفة النيل اليسرى وفي غربي ممفيس كسلسلة جبال مفرضة تمتد شمالاً وجنوباً الى ابعد مسارح النظر

واشهر هذه الابنية واكبرها ثلثة قائمة في جوار ممفيس على صرد الجيزة وقد انشأها كيوبس وكيفرن وميكارينوس . ولم يقض الاجنبي في كل زمان العجب من ضخامتها ولا سيما من ضخامة اثنين منها هرم كيوبس وهرم كيفرن . وكان يبلغ من قبل ارتفاع احدها مئة وخمسة واربعين مترًا اما الآن فعلوه مئة وثلثة وثلاثون والآخر كان علوها قديمًا مئة وثلثة وثلاثين مترًا اما الآن فصار مئة وواحدًا وثلاثين

لا تعتبر الاهرام من حيث ضخامتها بل هي من

عجائب الصناعة وموضوع العجب في عظم شكلها و بساطته والتناقض في النسبة بين صغر الانسان وعظم افعال يديه التي ترتد عنها العين كليلة ولا يحيط الفكر بها · ومن المدهشات ايضاً ما في داخلها من الآثار البالغة غاية الاتقان · كالدهاليز والدماميس والمدافن التي لا ينفذ اليها النور منذ استيداعها مومياء المالك · ولا يقع النظر في ذلك البناء على شيء من الصلصال بل قد احكم وضع الاحجار بعضها فوق بعض على طريقة مضبوطة يتعذر معها ادخال شعرة بين الحجرين · وكان كل ذلك موزوناً على قواعد علمية راسخة حتى ان الزلازل التي زلزلت صرد الجيزة لم تخلخل حجراً من احجار البناء و تحطه عن مركزه مع ثقل الاحجار المرصوفة فوقه الذي يتجاوز ثقلها الوف الالوف من الكيلوغرامات

وعهد اتقان النقش والحفر قديم ايضاً عندهم يرجع به الى عهد ملوك ممفيس فالمصريون لم ينشئوا التماثيل

والانصبة لمجرد بيان حركات اصحابها ومعانيها وهيئاتهم التي تروق ارباب الفنون في اليونان بل يجب ان يحكم في التماثيل المصرية من النظر الى مقاصد واضعيها فان هولاء كانوا يتعمدون تمثيل ملامح الميت في تمثالهِ لزينة مدفنه وليس لبيان جماله فعليه يجب ان تعتبر طرفة من طرف الصناعة التماثيل المصنوعة في عهد ملوك ممفيس كتماثيل كيوبس وكيفرن والكاتب المتربع ورئيس السخرة والسيدة نوفريت

واشتهر الصناع في عهد ملوك ثيبه اشتهار زملائهم في عهد ملوك ممفيس غير انهم لم يبلغوا في الاتقان والنظام درجتهم . ومن الدول التي امتازت في عهد ثيبه بعنايتها في الصناعة والفنون ثلث وهي التي عرفت بفتوحاتها اي الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون . اي لعهد تيطمس وستي ورعمسيس . واشهر مبانيهم الابنية التي زينوا بها ثيبه عاصمة ملكهم ذات المئة باب .

ولم يبق من اثار ثيبة التي قام اليوم مقامها اربع مدن حقيرة الاقصر وكرنك على ضفة النيل الغربية وقرنه ومدينة حبو على الضفة اليسرى منه إلاّ بقايا شاخصة ناطقة بعظمة المدينة القديمة · وما رفعت عين جوالة او سائح على اثار قديمة في طريقه تماثل بقايا هيا كل آمون في الاقصر وكرنك

وقد بنت الدولتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة هيكل الاقصر على ضفاف النيل وقد شيد اشهر ما اشتمله من البناء ستي الاول ونجله رعمسيس الثاني وظل هذان الملكان يزيدان في الابنية التي انشأها سلفاؤهما حتى بلغ طول احد الهيا كل في عهدهما مئتين وستة وخمسين مترًا · واقام ستي زقاقًا من الاعمدة الضخمة يأخذ رصفها بابصار الناظر اليها من النيل

وبنى رعمسيس الثاني قبالة هذا الزقاق فناء فسيحًا يتأخمه عن الجانبين رصيفان مؤلفان من اربعة وسبعين

عموداً . وجعل لهذا الفناء رتاجاً جدرانه من حجارة ضخمة قديمة العهد نقش عليها تاريخ انتصاراته ونصب قبالة هذا الباب ستة من تماثيله يبلغ علوها خمساً واربعين قدماً ومسلتين عظيمتين نقلت احداهما الى ساحة الكونكورد في باريس حيث تقوم اثراً من الآثار الغريبة .

ومع عظم هيكل الاقصر قد فاقه هيكل كرنك وكان الهيكلان على مسافة ساعة من الآخر يصل بينهما طريق عريض فيها عدة تماثيل من الاسفنكس والاكباش تحجب بعضها اليوم المنازل الحقيرة او الرمال والبعض الآخر لم يزل منظوراً

وقد اشتغلت في بناء هيكل آمون عرش المسكونة ثمان عشرة دولة و بلغت مساحة البناء الفاً واربعمئة قدم ولا يخفى ان الهيكل كان ايضاً قصراً ومن الادلة على عظمه وضخامته ان الردهة القائمة على الاعمدة التي هي

خمس البناء كله تستوعب كنيسة نوتردام في باريس ·
وردهة الاعمدة هي اغرب ما صنعته يد الانسان وقد
حوت ستة عشر رصيفاً من الاعمدة تضمن كلها خمس مئة
واربعة وثلاثين عموداً · يبلغ ارتفاع اثني عشر منها
مع تيجانها ثمانين قدماً وقطرها ثلثاً وثلاثين قدماً بحيث
يتعذر على خمسة رجال ضمها· و يستحيل تمثل مثل هذه
الآثار الضخمة على من لم يرها مرأى العين بل يشق على
رائيها ان يبدي ما وقع في نفسه من مرآها· وقد قال
شامبوليون الحدث «ان المئة والاربعة والثلاثين عموداً
القائمة في ردهة كرنك تستوقف التصور دهشة في سفحها
و يرتد عنها حيرة وذهولاً»

وقد نصب في مايلي تلك الردهة مسلة الملكة
هاتسو التي يبلغ ارتفاعها مئة قدم وهي ارفع مسلة في
مصر لان ارفع مسلة في المعمور المسلة المنتصبة في ساحة
ماري بطرس في رومية حيث بلغ علوها مئة وخمس

اقــدام ·

واما الابنية القائمة على ضفة النيل الشرقية ولئن كانت لم تبلغ من الهيبة مبلغ الابنية التي ذكرنا فانها لم تعدم في التاريخ ذكرنا · ففي القرنه قصر فاخر ابتناه ستي الاول ويقال له قصر القرنه وقصر رعمسيس الثاني ونصب يمثل هذا الملك جالساً على العرش وقد بلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً اما اليوم فقد تحطم قطعاً وهناك ايضاً نصبان يبلغ ارتفاع كلٍ منهما عشرين متراً وقد عرف احدها بتمثال ممنون

وفي مدينة حبو قصر بناه رعمسيس الثالث ولم تزل آثاره واضحة الى الان · واعجب ما يقع عليه النظر في شرقي النيل وادي الملوك المشهورة او مدافن ملوك الدولة التاسعة عشرة المبنية وسط الجبل في معزل عن العمارة حيث لا يلقى الا الذئاب والنسور والغربان والبوم ولا سبيل منها الى السهل الا مجازات ضيقة

على الهوات العميقة اما المهندسون فقد بنوا اليها طريقاً في الصخر في صدر الدولة التاسعة عشرة . وقد نحت في تلك الصخور اجداث عدة ملوك واشهرها عشرة واجملها مدفن ستي الاول المنحوت في كنف صخرة على بعد مئة متر وقد غشيت جدرانها النقوش المتقنة والرسوم البديعة التي تمثل رحلات النفس بعد الموت وتجاربها ومحاكمتها وقبولها في جملة الارواح واخيراً تمجيدها

وفي عام ١٨٨٦ عثروا في وادي الملوك على مدفن رعمسيس الثاني الذي اطبق على مومياء الملك التي كانت لم تزل محفوظة بنوع غريب .

لم نأت في ما تقدم من الكلام الاعلى ثيبه ومافيها من الآثار ومع ذلك كان كلامنا عنها في نهاية الايجاز على ان ملوك الدول الفاتحة لم يعمروا ثيبه بالآثار المشهورة بل مصر كلها ولا غرو اذا اخذت هذه الآثار العجيبة بابصار اليونان وذهبت بافكارهم مذاهب الحيرة

فقد دعوها ام العلوم ومنها استنار واسترشد ليكورغوس وصولون وبيتاغورس وافلاطون وغيرهم من اشهر علماء الاعصر الخالية

مختصر

ان المصريين عنوا في الآداب والعلوم ولا سيما في علمي الفلك والهندسة وخلدوا لهم الآثار في الفنون والهندسة والنقش في ايام الدولة الرابعة من دول ممفيس والثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين من دول ثيبة



تاريخ اشور وبابل

الفصل الاول

في جغرافية ناحية الدجلة والفرات

١ — لمحة عامة

ان الناحية التي قامت فيها مملكتا نينوى وبابل العظيمتان سهل فسيح لم تعرف حدوده معرفة صريحة يحده شمالاً جبل طوروس وشرقاً صرد ايران وجنوباً خليج العجم وغرباً رمال الصحراء المحاذية سوريا وبلاد العرب ٠

وقد امتازت تلك الناحية وعظم شأنها بالفرات والدجلة اللذين يخترقانها على بعد مداها

ولئن كان قد اختلف مصب هذين النهرين ومساحة مجراهما فزاد الفرات الدجلة طولاً نحواً من

ست مئة كيلومتر فانهما يصبان من جبال ارمينيا ويمتازان بهذه الخاصة وهي بينا يكون مجراهما في الجبال سريعاً يطمئن في السهل و يصلح للملاحة فالفرات يجري في صوميصات التي عرفت من قبل بصاموصات والدجلة ينساب في ديار بكر او اميدا القديمة

يخرج الدجلة من الجبل ضعيفاً ثم تغزر مياههُ بما يصب فيه من الانهر التي تأ تيه من بلاد المادبين والفرس و ينتهي بها توًا الى البحر ٠

اما الفرات الذي يفضل الدجلة بغزارة مائه عند مصدرهِ فانه ينساب في الصحراء ملتوياً ومنعطفاً مغادراً معظم مائهِ للقني فلا يبقى منه عند ملتقاه بالدجلة إلاَّ القليل

وقد اتحد النهران اليوم ليؤلفا شط العرب الذي يصب في خليج العجم ٠ وكانا يصبان قديماً في مواضع مختلفة من البحر يبعد الواحد من الآخر نحواً من عشرين

فرسخاً . ومنهما القسم السفلي من الوادي بما ألقيا فيه من طينهما ورمالهما

ب — اقسام ناحية الدجلة والفرات

كان في حوض الدجلة والفرات البلاد الآتية وهي ما بين النهرين وبابل واشور وشوشا ة

ا — كانت بلاد ما بين النهرين القسم الاعلى من البطاح الواقعة بين النهرين ويقل سقوط الغيث في هذه البلاد ويشتد الحر فيها ابّان الصيف ومع ذلك خصبت تربتها بما اتخذه اهلها من الذرائع لسقي الاراضي

ب — كانت بابل القسم السفلي من تلك البطاح وكانت ارضها مع شدة حرارة الشمس فيها اخصب من ارض ما بين النهرين وهناك غوطة وحدائق متصلة من صدر هذه البلاد حتى ساحل خليج العجم تلاحبت فيها اغصان الاشجار المثمرة وغيرها كالتين والتفاح والنخل

واللوز والجوز والمشمش والفستق والكرم والدلب والسرو والطرفاء والطلح ·

وكانت الحبوب تنتج عادةً للواحد مئتين واحياناً ثلاث مئة · ويبلغ عرض ورق الحنطة والشعير اربع اصابع وكان يقوم عندهم زيت السمسم مقام زيت الزيتون · وكانت غلة النخل كثيرة ذات قيمة ثمنها يتناولون الخبز والخمر والخل والعسل والكعك وكل انواع الانسجة وكان الحدادون يعتاضون عن الفحم بنويته وقيداً ويتخذونها ايضاً بعد كسرها ونقعها في الماء علفاً مسمناً للثيران والضان · وكان يكثر السمك في القسم السفلي من الفرات · ولم يعوزهم الا الحجر من النوع الابيض والرخام والصوان وقد اضطر المهندسون الكلدانيون ان يقتصروا على استعمال الآجرّ في البناء مع انه كان واهياً لا يضمن لهم ثبات ما يبنون

ج — قامت اشور على ضفتي اعالي الدجلة بجوار

جبال ارمينيا وبلاد الماديين وقد اختلف شكل ارضها ففي الجنوب والغرب كانت منبسطة مستوية . وفي الشمال والشرق ذات حزون وانجاد واغوار . وبينها وبين ما بين النهرين تفاوت في صفاء جوها وشدة حرارتها الخانقة وخصب ارضها . ويكثر فيها المطر والثلج في ابان الشتاء وتهب في ابان الصيف العواصف ويتساقط البرد والغيوث المدرارة وبينا الارض فيها خصبة جداً كانت في جهات اخرى رقيقة جديبة محجرة .

د — كانت شوشانة او بلاد عيلام واقعة في جنوب اشور يفصل بينهما نهر غندس من سواعد الدجلة . وارضها خصبة كارض بابل وفيها الغابات الظليلة .

— مختصر —

كان يسقي ناحية الدجلة والفرات نهران عظيمان ينبجثان من جبال ارمينيا وقد اختلف مصبهما قديماً في خليج العجم وكانت تلك الناحية تقسم اربعة اقسام وهي ما بين النهرين وبابل واشور وشوشانة · وكانت ارض ما بين النهرين وبابل وشوشانة خصبة جداً اما ارض اشور فكانت كثيرة الحزون وقد توطن الاقسام الاربعة اقوام اشداء ابطال حرب



الفصل الثاني

في اصل اشور وبلاد الكلدانيين

ملخص

ا — في قسم الخرافات — نينوس وسميراميس
ب — في القسم التاريخي — نمرود في بابل — واشور في نينوى — اقسام بابل او بلاد الكلدانيين لاول امرهما — اقسام اشور لاول امرها — نشأة مملكة اشور

— في قسم الخرافات —

لم ينجل تاريخ بابل واشور لاول امرهما ولم يتمحص من الخرافات التي ادخلها عليه اكتزياس الطبيب اليوناني الذي كان يقيم في بلاط ارتكزرسس ميمنون الفارسي وديودورس الصقلي الناقل عنهُ الا في ايامنا هذه • ونحن نروي هنا ما روياه اذ انزل على تمادي الايام منزلة الحقيقة وهذا ما رواه ديودورس

واول ملكٍ ذكره التاريخ في اسيا نينوس ملك أشور الذي افتتح في مدة سبع عشرة سنة البلاد الواقعة بين البحر المتوسط ونهر الهند · وبنى على عدوة الفرات مدينة سماهــا نينوى · ثم زحف الى بقتريانا بمليون وسبعمائة الف جندي من المشاة ومائتي الف فارس وعشرة الاف وستمائة عجلة وسلح جنوده بالفؤوس وفي اثناء حصار بقتريا استلفتت انظاره زوجة احد ضباطه ببسالتها وكانت تدعى سميراميس فتزوج بها وخلفته في الملك مع انه رزق منها ابن يدعى نينياس ·

وأتت سميراميس باعظم ما اتاه نينوس من الاعمال فلم تكتفي بالمحافظة على ما اخذه زوجها من الفتوحات فاخضعت لصولتها سوريا وفينيقيا وقبرص في البحر المتوسط ومصر وقسماً من ايثيوبيا وبنت بابل واسوارها وقصورها وارصفتها وجسرها وانشأت نفقاً تحت الفرات وحوضاً ضخماً لاحراز ما يفيض من مياه النهر · ولها

ايضاً يدٌ في بناء الطرقات وتمهيدها والمرتفعات للمدافن او اساساً للمدن وانصرم اجلها على اثر حملتها على الهند

وخلفها في الملك ابنها نينياس وكان جباناً يميل الى الرخاء والتأنق في عيشته وجرى على خطته خلفاؤُه مدة ثلاثة اجيال حتى سردنبال الذي بلغت منهُ الشهوة حد الافتتان والجنون ·

وكان عائشاً بين النساء يلبس من ملابسهن ويغزل بمغزلهن وعلى منوالهن · فبصر به وهو على هذه الحال اثنان من الولاة المتصلين به وهما ارباسس المادي وبلازيس البابلي فخجلا وغضبا حتى حملا عليه يريدان خلعه من الملك الذي لا يستحقه·

ولما احس سردنبال بدنو الخطر تنبهت فيه مزايا الابطال التي كانت تمتاز بها عترته فجهز العساكر وقام في طليعتها لمقاومة العصاة وما زال بهم حتى دوخهم وقبل ان يمزقهم مالت العساكر التي اقبلت لنجدته من

بقتريانا عنه الى العدو واضطر ان ينحجز في نينوى حيث قاوم العدو سنتين ٠

ولما كانت السنة الثالثة طغت مياه الدجلة لكثرة الامطار فقوضت قسماً من الاسوار فتذكر حينئذٍ سردنبال ما قاله لهُ الوحي اذ ضمن لهُ الفوز الى ان ينقلب النهر عليهِ فأحرق نفسهُ في قصره ونساءه وخزائنه وكنوزه مخافة الوقوع حياً في ايدي رعاياه ٠ فاقاموا لهُ مدفناً في هرمٍ من اهرام احد هيا كل نينوى العظمى ونقشوا على ضريحه تاريخاً يليق بهِ وهو : « ملكت واكلت وشربت واحببت ما استضأت عيني بنور الشمس علماً مني بقصر الزمان الذي تعيش فيه البشر ٠» وقد ثبت اليوم ان نينوس وسميراميس ونينياس وسردنبال لم يكونوا الا اشخاصاً لا اثر لهم في حقيقة الوجود الانساني ٠

ب — القسم التاريخي

١ — مملكة بابل — لم تكن هذه المملكة إلاَّ مدينة بابل العظيمة المعروفة التي تبلبلت فيها الالسنة فكانت هذه البلبلة علة تشتت البشر ·

ومع تشتتهم كان قد مكث في البلاد لمة من الاخلاط تغلب فيهم العنصر المتسلسل من حام · وانشئت مملكة بولاية نمرود بن كوش على ضفة الفرات السفلى واتخذ نمرود بابل (باب ايلو) مباءة لهُ فوسع نطاقها وعمَّرها حتى استحق ان يدعى مخططها ·

وخلد هذا الصياد ذكره في اذهان الشعب ولذلك قد علق القدم اسمهُ على جميع الاخربة المذكورة في بلاد الكلدانيين وذهبوا الى ان برج بابل الذي وجدت آثاره في موقع مماكة بابل هو برج نمرود

ب — اشور — دعيت اشور باسم مخططها اشور

ابن سام الذي خرج من بلاد الكلدانيين الى عدوة الدجلة حيث توطن اخربتها وخطط فيها نينوى وكالح وراسن · وكان عدد الساميين الذين مكثوا في بلاد بابل بعد تشتت البشر عظيماً اذ لم يهجر كلهم الى عدوة الدجلة وقد تمكن هولاء من التغلب على تمادي القرون على ما سواهم من الاقوام واستوسق لهم الامر حتى بسطوا نفوذهم في نينوى بدليل تكلم سكان البلادين بلغة واحدة وجريهم على آداب واحدة ومذهب واحد ·

اقسام بلاد بابل لاول امرها—كانت البلاد لاول امرها اقساماً يتولاها عدة زعماء كانوا يقيمون في اور ونيبور واكاند وبابل ·

واشهر هذه المدن بابل غير ان اور وطن ابرهيم كانت لا مشاحة اعظم منها شأناً واجل خطراً وقدراً وكانت قائمة على عدوة الفرات الغربية على مسافة قريبة

من خليج فارس٠ وكانت اور لاول امرها مستودع التجارة وكانت سفنها تمخر في المياه حتى بحر الهند ٠

واشهر ملوك بلاد الكلدانيين القدماء سرجون الاول ٠ ويعزو هذا الملك نفسهُ الى منشاء غريب كما سطر على نصب اقيم لهُ فى اكاندمباءته حيث يقول: « ان سرجون الملك القدير هوانا ٠ وضعتني امي في مكان خفي على ضفة الفرات ٠ أودعتني سفطاً من القصب غشتهُ بالحمر والقتني في النهر ٠ فدفعني النهر الى اكي ساقي الماء فرباني تربية ابنٍ لهُ ٠ وتقدمت بفضل الالهة عشتار وقبضت على زمام الملك ٠»

ويقال ان الهياكل العظيمة قد اقيمت في ذلك العهد ٠ وبلغت بقايا اعظمها المسمى اوروك نجداً محيطه سبعون متراً وعلوه خمسة وثلاثون وقد استعمل في بنائه نحو من ثلاثين مليون قطعة من الاجر ٠

ويفتخر احد ملوك بابل بانشاء قناة في كلدة تعرف باسمه

وهذا ما وجد مسطورًا : « انشأت قناة حامورابي بركة رجال بابل · فاستبدلت البور بارضٍ تسقيها المياه · واوليتها الغزارة والخصب وجعلتها مقرّ غبطة ·»

اقسام اشور لاول امرها — وكان نظام اشور لاول امرها يحاكي نظام كلدة وكانت بلاد اشور تتالف من مدن عديدة · منها الاصار وكالح وراسن وقلعة نينوى وكلها كانت قائمة على الدجلة او في جوارهِ · وكانت هذه المدن كمدن بابل في ولاية الكهنة ·

نشأة مملكة اشور — كما ان بابل من بلاد الكلدانيين قد تغلبت واعتزت على جميع المدن القائمة على عدوة الفرات السفلى هكذا نينوى بسطت سيطرتها على جميع المدن الاشورية الواقعة في اعالي الدجلة · اما نينوى فكانت ذاتها في بادىء امرها تحت سيطرة بابل ثم خضعت لمصر التي ضرب عليها الجزية ملوك دولتها الثامنة عشرة ولا سيما تيطمس الثالث ولكن ما لبث

ان تملصت من ربقة الخضوع لمصر في عهد الدولة التاسعة عشرة وللملوك الكلدانيين ايضاً .

وحدث ان شبّت الفتن في كلدة فسنّت للملوك اشور التدخل في شؤون بابل الداخلية بعلة الاهتمام لمساعدتها على ان الغرض من ذلك التدخل كان لمجرد اخضاعها وادخالها في سلطتهم وكان هذا الحادث الذي جرى في عام ١٢٧٠ وسيلة لنشأة المملكة الاشورية وامتداد ظلها وبعد صولتها لانها اتمت بهِ فتوحاتها في ما بين النهرين وبلغت بـهِ مساحتها من ارمينيا حتى خليج فارس .

— مختصر —

يعزو اليونان تخطيط نينوى الى نينوس و بابل الى سميراميس زوجته اما الرواية الصحيحة فهي ان مخطط بابل هو نمرود بن كوش حفيد حام ومخطط نينوى

قوم من الساميين جلوا عن بابل · وتغلب عنصر سام
على عنصر حام في بلاد الكلدانيين واشور وكانت بلاد
الكلدانيين او بابل مقسومة الى عدة ممالك صغيرة مستقلة
عواصمها اور واكانه ونيبور وبابل · وكذلك اشور كانت
تقسم الى ممالك صغيرة نينوى والاصار وكالح وراسن
وعظم امر بابل ونينوى حتى ثاراتا على جاراتها الاولى
في بلاد الكلدانيين والثانية في اشور · وكانت اشور
قد خضعت للملوك كلدة فما لبثت ان تملصت من ربقهم
واخضعتهم لسلطتها على تمادي الايام · وكان ذلك في
عام ١٢٧٠ وامتدت حينئذٍ مملكة اشور من جبال
ارمينيا حتى خليج فارس ·

الفصل الثالث

مملكة اشور

(من عام ١٢٧٠ الى ٦٢٥)

ملخص

ا — تقدم وانحطاط (من ١٢٧٠ الى ٧٢٥) حروب وانتصارات — انحطاط

ب — نهضة مملكة اشور (٧٤٥) تغلت فلاصار الثاني (من عام ٧٤٥ الى ٧٢٧) سلمصر الرابع (من٧٢٧ الى٧٢٢)

ج —منتهى مجد المملكة الاشورية في عهد دولة سرجون (من ٧٢٢ الى ٦٢٥) سرجون (من ٧٢٢ الى ٧٠٥) سنحاريب (من ٧٠٥ الى ٦٨١) اسرحدون(من ٦٨١ الى ٦٦٨) اشور بانيبال (٦٦٨)

د — سقوط نينوى (٦٢٥)

نشأت المملكة الاشورية عند انصرام اجل العهدين للذين ازهرت فيهما مملكة الفراعنة اي لعهد ممفيس وثيبه. وكان اجل مملكة اشور ست مئة وخمساً واربعين

سنة (من ١٢٧٠ الى ٦٢٥) وقد انحطت بعد التقدم العظيم في مدة قصيرة نحو عام ٧٥٩ انحطاطاً واضحاً حتى خيل للبعض انه عنوان التلاشي ولكن ما لبثت ان نهضت في عام ٧٤٥ فبلغت ذروة المجد بعد الملوك السرجونيين ولم يكن الا قرن واحد من زهوتها حتى سقطت على اثر محاربة الماديين والبابليين ٠

١ — تقدم وانحطاط (من ١٢٧٠ الى ٧٥٩)

حروب ملوك اشور وانتصاراتهم — اخضع ملوك اشور بابل واستولوا عليها فثقلت وطأة سلطتهم عليها فحاولت بلاد الكلدانيين نبذها بالقوة فقضت القرون في القتال ولئن كانت لم تفز باسترجاع استقلالها فانها قد تمكنت من اذلال السائدين عليها ٠

واضطرت أشور ان تدفع عنها ليس فقط غارات بابل المضطربة بل حملات القبائل المتوطنة سهول ما بين النهرين وجبال ارمينيا وشوشانه واسيا الصغرى وسوريا

حتى مصر . وقد دخلت جنود اشور الى ثيبه فنهبتها وامتد ظل مملكة اشور من خليج فارس حتى البحر المتوسط ومن ضفاف الفرات حتى جبال بلاد الماديين

انحطاط اشور (٧٥٩) لما كانت تلك الحملات قد استنزفت موارد مملكة اشور لاتساع نطاقها انحطت المملكة انحطاطاً مابعده انحطاط وتمكن الخدر من عروقها حتى ظنها القدماء انها قد تلاشت ورجح عندهم استيلاء الماديين والبابليين على نينوى لضعف شوكة سردنبال وتماديه في الغواية منذ عام ٧٥٩

ومع ذلك لم يحسب سقوط نينوى لذلك العهد إلاّ فرية غير ان الآثار قد شهدت بانحطاط اشور وتقاص ظلها عن البلاد التي كانت قد افتتحتها وانتهاج ملوكها نهج التواني والكسل

ب — نهضة مملكة اشور (٧٤٥)

تغلث فلاصار الثاني (من عام ٧٤٥ الى ٧٢٧)

ان الهرج الذي شب في البلاد أدى الى جلوس هذا الملك على تخت الملك فأعاد لمملكة اشور مجدها وعزها وبسط سلطته على بابل واخضع الامارات المستقلة في جنوبها حتى البحر وظفر بملوك سوريا المتحالفين وغزا بلاد مادي وانجد احاز ملك يهوذا عندما تهدده فاقح ملك اسرائيل ورصين ملك دمشق وقسّم مملكة اسرائيل التي انحصرت في حدود السامرة وضرب الجزية على الفلسطينيين وحاصر رصين في دمشق واستولى على البلاد وقتل ملكها وضمها الى مملكة اشور . وقبل ان يزايل تلك النواحي عقد جلسة دعا اليها جميع الملوك الداخلين في طاعته عام (٧٣٢) فلبى دعوته خمسة وعشرون ملكاً . وقدم في جملتهم احاز ملك يهوذا ليؤدي الجزية ويشكر لمنقذه

قضى تغلث فلاصار نحبه حتف انفـه في كالح وكانت مدة ملكه ثماني عشرة سنة قضاها في تعزيز شأن بلاده كما جاء في تاريخ مملكته (٧٢٧)

سلمنصر الرابع (من ٧٢٧ الى ٧٢٢) وخلف تغلث فلاصر سلمنصر الرابع وكان معاصرًا لسباكون ملك مصر. ولما خاف الفينيقيون واليهود والفلسطينيون تغلب اشور عليهم استنجدوا سوءملك مصر اما سلمنصر فانـه قد استولى على هوشع ملك اسرائيل والقاه في الدهاليز ثم عمد لمحاصرة السامرة وبينا هو يحاصرها اضطر لقمع الثورة في صور قبل الاستيلاء عليها فجعل الجند من حول المدينتين نطاقًا دام مدة سنتين وكانت هذه المدة كافية لاستنزاف قوى مملكته وبقية حياته. وكانت وفاته ضربًا من ضروب الغرابة لانه توارى عن العيان بطريقة خفية دون عقب. وخلفه سرجون احد كبار ضباطه عام (٧٢٢)

ج — ان اشور بلغت ذروة المجد في عهد السرجونيين

(٧٢٢الى ٦٢٥)

وكانت دولة السرجونيين قد اشتهرت بالاعمال العظيمة غير ان مدتها كانت قصيرة لم تتجاوز القرن الواحد · فبعدان اجهدتها الحروب وانهكتها الانتصارات في الحملات على بابل وسوريا ومصر وعيلام وارمينيا سقطت بازاء قوة جديدة نشأت في الحجاب وهي قوة الماديين والفرس ·

واشهر ملوك الدولة السرجونية هم سرجون (من ٧٢٢ الى ٧٠٥) وسنحاريب (من ٧٠٥ الى ٦٨١) واسرحدون (من ٦٨١ الى ٦٦٨ (واشور بانيبال ٦٦٨) ·

سرجون — (من ٧٢٢ الى ٧٠٥) ان هذا الملك

اتمّ فتح السامرة الذي كان قد بداء به سلفاؤهُ فاستولى على المدينة وقرض مملكة اسرائيل (٧٢٠) ودحر سوء ملك مصر وهانون ملك غزه في رافيا (٧١٨) فقبض على هانون اما ملك مصر فانهُ نجا بواسطة احد الرعاة الذي توسط بهِ القفر ٠ وعنت سوريا كلها لسلطة السرجونيين الآصور ٠

وعقيب ان انتصر سرجون مراراً في حملاتهِ على بلاد مادي وارمينيا عطف على بلاد الكلدانيين يريد قتال مرودخ بلأدان ملك بابل العاصي ٠ فاستولى على بابل واستحوذ الخوف على مرودخ فاركن الى الفرار اما العدو فاقتص اثره وما زال بهِ حتى ادركهُ على ضفاف خليج فارس فقهره عام (٧٠٠) وحجبه عن الابصار ٠ وهذا ما كتب : ترك صولجانه وعرشه بازاء رسولي وقبل الارض ٠ وجلا عن قصوره وانهزم ولم يقف لهُ بعد ذلك احد على اثر » ونودي بسرجون في بابل

ملاك كلدة ·

وغطى على مجد سرجون في آخر ايامه فشله في تدويخ ارمينيا بعد ان استرجعت استقلالها وفي ادلال عيلام عام ٧٠٦ فمات على اثر ذلك بعهد قريب اذ قتل في عام ٧٠٥ في قصره دورماريوكين الذي كان يعنى باكمال بنائه والذي انكشفت آثاره في خرساباد وكانت ايام ملكه العهد الذي بلغت فيه اشور ذروة المجد والعظمة

سنحاريب (من ٧٠٥ الى ٦٨١) ونشبت الفتن والثورات على اثر مقتل سرجون فاسترجع مرودخ بلأدان سلطته على بابل ونادى ملوك فينيقيا وجاهروا بالاستقلال وتلا الفلسطينيون تلوهم وذهب حزقيا ملك يهوذا الى ان قطع علائقه مع اشور معتمداً على نجدة مصر بالرغم من نصائح اشعيا له بالتزام حدود المسالمة ·

فظفر سنحاريب بداءة بدء بمرودخ بلأدان الذي

لجأ الى ملك عيلام فأقام سنحاريب مقامه ملكاً على بلاد الكلدانيين ابن احد السحرة الذي ربي في قصره كما يربى الكلب الصغير ٠ وفى عودته من محاربة بابل اعمل السلب والنهب في القبائل المتوطنة وسط الفرات فرفع زعيمها على سارية وغزا مواشيهم وعاد الى نينوى مثقلاً بالاسلاب مكللاً بغار المجد والابهة ٠

ثم حول وجهه الى سوريا فتغلب على فينيقيا واذلها وسحق الفاسطينيين وقهر في التاكو عام (٧٠٠) امراء الدلتا الذين بادروا لمظاهرتهم ٠ واستولى على جميع معاقل يهوذا واقام الحصار على مدينة اورشليم فقاومت مقاومة القانط من النجاة ولبس حزقيا وشعبه اثواب الحداد واخذوا يضرعون الى الله ويستصرخونه فأباد من الاشوريين بالطاعون مئة وخمسة وثمانين الف رجل وانهزم سنحاريب بنفسه ومنذ ذاك الحين لم يقع نظر الفلسطينيين عليه ٠

وكان قد نشب في بلاد الكلدانيين فتن شغلته عن الغزوات في انحاء أخرى اذ نهض لمقاتلته سكان عيلام او شوشانه فانتقم منهم سنحاريب انتقاماً مبيناً وهذا ما قاله « هدمت المدن وقوضتها وحولتها رمادا وصيرتها قفراً واطلالاً » وثار البابليون على سنحاريب فقاموا لمناصرة سكان شوشانه فسحقهم سنحاريب في وقعة مشهورة بجوار كالولي في عدوة الدجلة القصوى ·
ولقيت بابل جزاء عصيانها بتقويض معظمها

وكانت وفاة سنحاريب مفجعة كوفاة سرجون ابيه اذ قتله اثنان من بنيه في الهيكل فطرد ابنه الثالث اسرحدون القتلة وولي الملك

اسرحدون (من ٦٨١ الى ٦٦٨) وفي السنة الخامسة من ايام ملكه عمل على اخماد نار الفتنة التي شبت في القسم البحري من بلاد الكلدانيين بمظاهرة الشوشانيين حيث انشأ ابن مرودخ بلأدان لنفسه

ولايته واتجه من هناك الى فينيقيا لمعاقبة صيدا فهدمها وذبح كبرأها وابعد الملك والسكان الى اشور

ولما فرغ اسرحدون من الحرب في فينيقيا توجه الى اورشليم فاستولى عليها وساق الملك منسى الى بابل ثم خلّى سبيله شرط ان يؤدي لهُ الجزية عن يدٍ وهو صاغر . وما لبثت بلاد العرب ان دانت لسلطة ملك اشور فولى عليها ملكة نشأَت في قصره في نينوى

ولما استظهر اسرحدون على جميع جيرانه استأْنف الجري على الخطة التي كان قد نهجها من قبل والده وتعمد اكمال ما بدأَ بهِ وهو الزحف على مصر ولم يمنعهُ من الحملة عليها الّا تلك النازلة الهائلة التي نزلت بالعساكر الاشورية وهي في سفح اسوار اورشليم عام ٧٠٠ فتقدم اليها ودخل وادي النيل عن طريق بالوزا و طينه اليوم فقهر الحبشان الذين كانوا قابضين على زمام الاحكام فيها وبدد شملهم وردهم الى بلادهم . ففتحت لهُ ممفيس ابوابها

ونهب ثيبة وقسم مصر الى عشرين ولاية وجعلها في امرة نكو الاول ملك سايس . وكان مرجع تلك الولايات المتحدة الى مملكة اشور التي ضربت عليها إتاوة . وفضلاً عن ذلك انزل الحاميات الاشورية في حصون الدلتا . ودعي اسرحدون بعد هذا التقسيم ملك مصر وثيبه واثيوبيا عام (٦٧٢)

ولم يطل امد سلطته على مصر لان الاشوريين طردوا منها في السنة الثالثة من دخولهم اليها . ولما شاخ اسرحدون واعضلت علته تخلف عن الملك لابنه عام (٦٦٨) وانقطع في بابل حيث قضى نحبه لسنة من انقطاعه . ولهذا الملك فضل في بابل لا ينكر اذ نهض بها لاول سنة من ملكه من الضعف والذل اللذين صارت اليهما في عهد سنحاريب

وكان اسرحدون من احب ملوك اشور الى رعاياهم وقد أتى من الاعمال العظيمة ما لم يأته ملك

من قبل وكان رفيقاً برعاياه حليماً في معاملته من قهرهم واذا كان قد أتى في عهدهِ شيئاً من ضروب القساوة فقد دعي اليه مضطراً

اشور بانيبال (٦٦٨ ؟) فما كاد يستقر هذا الملك على تخت الملك حتى زحف لتدويخ الثورة في مصر فاخضعها لسيطرة اشور . ولم تستفد مصر من ثوراتها المتجددة إلاّ النكبات اذ عم النهب في ثيبه واجلى سكانها الى الاسروالاستعباد

ولما استتب الأمن في مصر اتجه اشور بانيبال الى شوشانه لاخماد جذوة الفتنة التي شبت فيها فنكل بها واذاقها صنوف القساوة الاشورية فكشط جلود قوادها احياءً بعد ان كف بصرهم وشنّع فيهم

وكانت الثورات آخذة بعضها برقاب بعض فعقيب ان فرغ اشور بانيبال من اخماد ثورة شوشانه دعي الى اسكان الهياج الذي ثار في بابل لعهد اخيه فضايق عليه

حتى اشتد الجوع في المدينة واضطر المحصورون « ان يأكلوا لحوم بنيهم وبناتهم » وأخيرًا اكرهت المدينة على التسليم ومات الحاكم حرقاً وكثر البلاء في الشعب .

ولما انتهى من التنكيل ببابل عمد الى معاقبة شوشانه لانها اظلت المنهزمين المتمردين فيها وأبت تسليمهم فزحف اشور بانيبال اليها فاستولى على سوزا وحمل منها الغنائم الطائلة وأجلى الالهة منها واضرم النار في الغابات المقدسة الجميلة التي لم يتوسطها احد وبالجملة انه خرب البلاد كلها واخضع من نجا منها للولاة الاشوريين ومحا من المعمور آثار مملكة عيلام القديمة .

ولما عاد الى بابل قرن الى عربته الملوك الذين قهرهم فجروها الى باب الهيكل حيث شكر للالهة صنيعهم عنده . واما آخر عهد ملكه فلم يزل مجهولاً

د — سقوط نينوى عام ٦٢٥

وكان سقوط نينوس في حين كانت قد بلغت من الغبطة والمناعة مكاناً لم تبلغه من قبل فتعاقبت عليها الحروب حتى انهكتها مع تعدد فوزها فيها . وغشيها اخيراً البرابرة من الشمال والسيماريون (سكان القريم اليوم) والسيكثيون فانبثوا في جميع انحائها وما لبثت ان سقطت بمهاجمة سياقصر ملك الماديين ونبوبلاسر حاكم بابل عام(٦٢٥) اذ اعتصبا عليها يداً واحدة وانقرضت مملكة اشور بانقراض نينوى ولم يمر من انقراضها بضع سنوات حتى اصبحت اثراً من بعد عين ولما تمادى عليها زمان اعمى على الباحثين موقع العاصمة الحقيقي . ولم تدمع عيون الشعب لسقوط المدينة العظيمة التي ابكت عيوناً واراقت دماء غزيرة

وكان الانبياء قد تنبأوا بانقراضها :

« قد ارتفعت المقمعة على وجهك · احرس الحصن راقب الطريق شدد الحقوين مكن القوة جداً ولكن دون طائل · فراغ وخلاء وخراب وقلب ذائب وارتخاء ركب ووجع في كل حقوٍ واوجه جميعهم سوداء مشوّهة « اين مأوى الاسود ومرعى اشبال الاسود حيث يمشي الاسد واللبوة وشبل الاسد وليس من يخوّف · يا ملك اشور جرحك عديم الشفاء كل الذين يسمعون خبرك يصفّقون بايديهم عليك ·

واقتسم ملك بابل وملك مادي دولة الاشوريين فنشأ على اخربة نينوى مملكتان عظيمتان وهما مملكة الكلدانيين حيث انحدر تاريخ الشرق المتمدن ومملكة الماديين في الجهات التي كانت مجهولة اي في الشمال الشرقي والشرق حيث استقرت شعوب حديثة النشأة لم يكن لها ثمّ تاريخ يذكر

فاستولى سياقصر ملك الماديين على اشور وار باضها

وضم ملك بابل الى بلاد الكلدانيين ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وعيلام ٠

مختصر

ان مملكة اشور التي تأسست عام ١٢٧٠ ادركت تقدماً عظيماً وارسلت عساكرها الى انحاء بلاد الكلدانيين اي الى ما بين النهرين وشوشانه واسيا الصغرى وارمينيا وسوريا حتى مصر فذهبت من خليج فارس حتى البحر المتوسط ومن الفرات حتى جبال مادي

وفي عام ٧٥٩ خسف بدر سعدها وفي عام ٧٤٥ نهضت لعهد تغلث فلاصر الثاني (من عام ٧٤٥ الى ٧٢٧) وسلمنصر الرابع (من عام ٧٢٧ الى ٧٢٢) وانتهت الى ذروة المجد والعز في عهد سرجون (من ٧٢٢ الى ٧٠٥) الذي خرّب مملكة اسرائيل (٧٢٠) وتأيد عزها في عهد سنحاريب (من ٧٠٥ الى ٦٨١) الظافر

بالبابليين لعهد مرودخ بلأدان وبالفينيقيين وامراء الدلتا والشوشنيين ولكن فاز به ملك الموت في سفح اسوار اورشليم(٧٠٠)وتأيد عز اشور في عهد اسرحدون (من ٦٨١ الى ٦٦٨) واشور بانيبال اللذين زحفا بعساكرهما حتى مصر العليا ولكن سقطت سقوطاً سريعاً عام (٦٢٥) على اثر هجوم سياقصر ملك المادين ونابوبلاسر ملك بابل . وقامت مملكة الكلدانيين مقامها على ضفاف الفرات

الفصل الرابع

مملكة الكلدانيين

(من ٦٢٥ الى ٥٣٦)

ملخص

ا — مجدها — نبو بلاسر (من ٦٢٥ الى ٦٠٤) بختنصر وحروبه واعماله (من ٦٠٤ الى ٥٦١)

ب — سقوطها — بلتشصر وقورش (٥٣٦)

كانت مدة مملكة الكلدانيين قصيرة لم تبلغ القرن الواحد · وعقيب ان ادركت في ايام بختنصر الملك حظاً وافراً من التقدم والعمران انحطت سريعاً وانقرضت كمملكة اشور بتعاقب الحروب من الماديين والفرس عليها

ا — مجد بابل —

نبوبلاصر (من ٦٢٥ الى ٦٠٤) لم يزعج هذا الملك في ايامه الا نكو ملك مصر في حملته على اشور ·

لما فرغ نكو عام (٦٠٨) من محاربة يوشيا ملك اورشليم والانتصار عليه في ماجدو (اللجون) زحف بعسكره الى الفرات وانقلب راجعاً عنه دون ان يلقى في طريقه معترضاً لان سوريا كانت قد خرجت من طاعة البابليين ودخلت في حوزة مصر

وفي ثلث سنوات من تلك الوقعة اي نحو عام ٦٠٥ انفذ نبوبلاصر ابنه بختنصر للانتقام من نكو وكان هذا قد خفَّ لملاقاة عدوه فواقعهُ في كركميش على الفرات · ودارت الدائرة في تلك الوقعة عليه فنكص على عقبيه قاصداً مصر · اما بختنصر فاقتص اثره ولما وصل من اقتصاصه الى بالوزني اليه خبر وفاة ابيه فبادر الاوبة الى بابل

بختنصر (من ٦٠٤ الى ٥٦١) وامتازت ايام هذا الملك بطول المدة والحروب المجيدة والاعمال العظيمة · وقضى حياته في مقاتلة اليهودية وفينيقية ومصر · ولم

يجلَ من آثار حروبه إلاّ حملاته على اورشليم

فني الحرب الاولى أ كره بختنصر ١ عام ٦٠٣)
الياقيم او يهوياقيم ملك يهوذا على التزام طاعته بعد ان
حاول نبذها وفي الحرب الثانية عام (٥٩٩) نهب
خزائن الهيكل وذخائره و كنوز الملك واجلى الى بابل
ايكونياس(كنياهو) فتى في الثامنة عشرة من العمر جزاء
ما جنته ايدي ابيه الياقيم الذي انقذه الموت من غضب
ملك بابل

وفي الحرب الثالثة (من ٥٨٩ الى ٥٨٨) التي
شبت على اثر ثورة جديدة حاصر بختنصر اورشليم ثلثة
عشر شهراً وما زال بها حتى استولى عليها فذبح ابنـاء
الملك صدقيا و كبراء مملكته ثم فقاء عيني صدقيا وارسله
مقيداً بالسلاسل الى بابل ٠

واحرق المدينة وخربها وأجلى الجنود والكهنـة
والكتبة والاعيان الى بابل ولم يبقَ في البلاد الا

القرويون ولذلك صاح إرميا «طرق صهيون نائحة لعدم الآتين الى العيد كل ابوابها خربة كهنتها يتنهدون عذاراها مذللة وهي في مرارة صار مضايقوها رأساً نجح اعداؤها لان الرب قد اذلها لاجل كثرة ذنوبها ذهب اولادها الى السبي قدام العدو.»

عظمة بختنصر واعماله — وبعد صيت بختنصر بما انشأه في بابل الى مدى لم يدركه بحروبه اذ أقام فيها من الآثار العظيمة ما يخلد ذكرها على ممر الاجيال.

وكانت بابل في فسيح من الارض يحيط بها سوران فيهما مئة باب من الشبه وكان السور ضخماً جداً حتى كان يتيسّر لعربتين متحاذيتين الكر عليه . وقد ابتنى السورين بختنصر الملك .

وقد بلغت مساحة الارض التي يحيط بها السور الاول ٥١٣ كيلومترًا مربعـاً اي قدر مساحة ولاية السين في فرنسا. وكان يحيط السور الثاني بارض مساحتها

٢٩٠ كيلومترًا مربعاً وهذه المساحة تربي على مساحة لوندرا البعيدة الاطراف ·

وكانت تمتد بابل الواقعة داخل السور الصغير على مسافة بعيدة من ضفاف الفرات تتدفق منها المياه وسط ارصفة جسيمة ·

وكان لهذه المدينة اسواق مستقيمة بعضها يمتد عرضاً والبعض الآخر يفضي الى النهر وقد زهت بما فيها من اسباب الترف والثروة التي انتزعتها من الامم بتغلبها عليها · واشهر مبانيها ما يأتي

اولاً — قصر الملك — كان هذا القصر جامعاً بين المنعة والفخامة والزخرفة مذكوراً بحدائقه المعلقة وسطوحه الفسيحة المكسوة بالاشجار التي كانت ترتفع بعضها فوق بعض على عمد وقناطر معقودة بالحجر فتبدو لرائيها كرابية مكسوة بخضرة الرياض والبساتين

ثانياً — هيكل بعلوس — وكان وسط هذا الهيكل

برج حصين ذو سبع طبقات بعضها فوق بعض وفي العليا منها معبد فسيح يرقى اليه بسلم من الخارج. وكان وسط هذا المعبد تمثال بعلوس من الذهب يمثله جالساً ويبلغ ارتفاعه اربعين قدماً . وهناك ايضاً مائدة ذهبية وعرش درجه من الذهب ايضاً ويقال ان هذا البرج كان برج بابل الذي تخرّب من قديم العهد فجدد بختنصر بناءه

— سقوط بابل —

بابل بعد بختنصر — كان بختنصر الملك والحق يقال عظيماً . فلم يقتصر في ايام ملكه على انشاء ما سبقت الاشارة اليه بل عني جهده في مصالح سائر مدن مملكته فجدد بناء القناة الملكية المشهورة التي كان قد ابتناها من قبل الملك حامورابي عام ١٣٠٠ واحتفر بحيرة كبيرة لتكون حوضاً تسقى منهُ السهول ومهد

السبيل للملاحة في خليج العجم بانشائهِ مرفاء عظيماً في تار يدون عند مصب النهر · ولكن الخيلاء قد تمكنت منهُ حتى افضت بهِ الى الجنون · فظن نفسه إلهاً وأَراد ان تجثوكل ركبة لتمثالهِ الذهبي الذي نصبهُ لنفسهِ · وكان هذا الاثم الفظيع باعثاً على اختلال عقله فنفر من الناس وماثل الحيوانات فجعل يا كل العشب الذي تأ كله ·

وقدر لهُ الله ان يعود الى الملك قبل وفاته · وكان أَجل مملكته بعدوفاته قصيراً اذ قتل ابنه أويل مرودخ لسنتين من قبضه على ازمة الملك (من ٥٦١ الى ٥٦٠) وتعاقب على هذه المملكة اربعة ملوك في مدى عشرين سنة وكان آخرهم بلتشصر الكافر الذي ازاحه قورش ملك الفرس والماديين عن الملك وقتلهُ في الليلة التي دنس فيها آواني هيكل اورشليم · وانقرضت مملكة بابل (عام ٥٣٦ قبل المسيح)

ولم يبقَ اليوم من اثار بابل شيء مذكور وجل ما يرى من خرباتها ركام من الآجر والتراب ٠

مختصر

ان مدة مملكة الكلدانيين القصيرة (من ٦٢٥ الى ٥٣٦) قد انحصرت شهرتها في ايام بختنصر الملك التي عرفت بطول الامد والاعمال العظيمة (من ٦٠٤ الى ٥٦١) اذ قوض اورشليم (٥٨٨) وعمر بابل وزخرفها زخرفة غريبة ٠ وفي خمس وعشرين سنة من وفاة بختنصر استولى قورش ملك الفرس على بابل لعهد ملكها بلتشصر (٥٣٦) ولم يبقَ اليوم من آثار تلك المدينة العظيمة إلاّ ركام من الخزف او الاجرّ ٠



الفصل الخامس

ديانة الكلدانيين

ملخص

الالهة — الهياكل — العبادة — الموتى والمدافن والحياة المستقبلة

لما كانت نينوى تنزل بمنزلة المستعمرة كانت ديانة الاشوريين والكلدانيين وعوائدهم وحكومتهم ولغتهم وكتابتهم وفنونهم متشاكلة

وقد اعتقدت الشعوب التي توطنت ضفاف الدجلة والفرات ان في المعمور ارواحاً لا تحصى بعضها يستقر في اعماق الارض والبحار والبعض الآخر غير منظور يهب مع الهواء ويتطاير في الجوّ ٠

ومن تلك الارواح ماهو طيّب ومنها ماهو خبيث فالخبيث منها يمثل بصور سمجة ذات هيئة مهدِّدة ٠ ولم

يكن بين تلك الصور اغرب من الصورة التي كانت تمثل الريح الوبيلة التي تهب من الجنوب الغربي فانها كانت تمثل بجسم كلب مرتكز على ساقين في طرفيهما اظافر نسر ولها ذراعان في اصابعهما مخالب وقد اتصلت بهما اربع اجنحة منتشرة وكان لهذه الريح وجه انسان ممسوخ ركزت فيه عينان كبيرتان ومستديرتان ركبت فيهما اهداب كثيفة وقد تجردت صفحتا الوجه من اللحم وانفتحت الشفتان عن اسنان ضخمة وكان لها قحف منبسط الشكل نبت عن جانبيه قرنا عنز وكان كل ما في هذه الصورة في نهاية السماجة يخيف الاله الذي كانت تمثله

وكانوا اذا ارادوا احياناً تمثيل الارواح الخبيثة يجعلون رأس حيوان من نسر او كلب او اسد ممسوخ على بدن انسان اما الارواح الطيبة فكانوا يمثلونها بتركيب راس انسان في جسم حيوان وكان الطف رمز عندهم

ان يجعلوا رأس الانسان على اجسام ثيران مجنحة ينصبونها على ابواب الهياكل والقصور لحراستها

وكانت تلك الارواح الخبيثة والطيبة على اختلاف تأثيرها على الانسان من حيث الاضرار بهِ او المحافظة عليه خاضعة لالهة اقوى منها ذات فعل يوازن تأثيرها او يلاشيه

وذهبت العامة بتصورها الى ان جعلت تلك الالهة القديرة في عديد الكواكب فكان عندهم الاله انو (اي الجلد المرصع بالنار المتلألئة) والاله سمار الشمس والاله سين القمر والاله ايشتار الزهرة الهة الجمال والاله نبو (مركور) عطارد والاله ميرودخ (يوبيتر) المشتري اله الحرب ونرجل (مارس) المريخ إله العراك ونينيب (ساتورن) زحل الة القوة او هرقل الاشوري الذي عرف بتماثيله الشاخصة في متحف اللوفر التي تمثله بهيئة مخيفة وقد تأبط اسداً يريد خنقهُ وتدرج الكلدانيون

والاشوريون بالعقائد الى ان اعتقدوا بوحدانية الاله وبلغ بهم التصور الى حدٍ اعتقدوا عنده ان الهاً جليلاً قديراً يسمو بسلطته على سائر الالهة من سيارات وثوابت وهذا الاله هو المشتري

وكان الاله العظيم في نينوى اشور الذي كان يتلفظ بهِ الملوك في كل لحظة وكان اشدد الحكم العظيم يولي التاج والنصر ويكافئ الاخيار ويعاقب الاشرار ·

وكان الاله بابل بيل رب الارباب الاله الحقيقي وكان يمثل بصورة بشرية عليها شارات الجلال والهيبة والوقار تكسوها حلة الملوك وعلى راسه تاج نبت فيه قرنا ثور رمز القوة

الهياكل — وكان لاشور وبيل هياكل ليس فقط في نينوى وبابل بل في اكثر المدن · وكانت تلك الهياكل فسيحة الارجاء مربعة الشكل متعددة الطبقات ذات سطوح متسلسلة على شكل درج بعضها فوق بعض

يعلوها معبد صغير نصب فيه تمثال الاله · وكان هذا المعبد الهيكل الحقيقي · ولم تكن هيا كل الكلدانيين فسيحة كهيا كل مصر بل كانت تصعد في الجو درجات بعضها فوق بعض على شكل هرمي · وكانت حصينة جداً يفزع اليها الوف من الخلق عند دنو الخطر فينتشرون على سطوحها الفسيحة المتعددة الطبقات

ومما قضى بانقراض هذه الابراج واستحالتها الى ركام غير معروفة الشكل هو انها كانت مرتفعة ومبنية بالاجر ·

العبادة — كان يخيل للكلدانيين والاشوريين ان العالم معضل بالارواح الشريرة التي تطاردهم فمن اجل ذلك كان من الواجب عليهم استصراخ الالهة العليين لدفع شرها · وكانوا يعتقدون ان مستقبل الانسان قائم بالامانة على تكريم الالهة ولذلك كانوا يستقاون كل ما كانوا يفعلونه تكريماً لها ففي كل يوم كانوا يقدمون

على المذابح الرطب والدقيق والعسل والسمن والخمر والاثمار . وكان الكهنة يسكبون السكائب في الهيا كل صباح مساء . وكانت ضحاياهم عادة من الثيران والنعاج واكثر ما كانوا يضحون منها في ايام الاعياد .

ومن عوائدهم التي لم يعهد بمثلها عند سواهم من الشعوب ان يقيموا المآتم بعد الاعياد فيلتزم فيها الخاصة والعامة الصوم كفَّارة عما يفترضون التفريط بهِ من اصول العبادة المفروضة عليهم نحو المتهم .

وكان سكان بابل الموصوفون بالخلاعة والميل الى الشهوات يجعلون في جملة الفروض الدينية بعض عوائد شائنة على ان سكان نينوى المتصفون بالنزوع الى الحرب كانوا قساة يستحلون تضحية اسرى الحرب

الوفاة والمدافن والحياة المستقبلة — لئن كان الكلدانيون والاشوريون ينكرون تحنيط موتاهم شأن المصريين فانهم كانوا يعنون بهم عناية شديدة . فبينا يكون

اهل الميت في عويل ونحيب كانت النوادب تغسل جثة الفقيد وتطيبها وتجعل عليها الخر حلة وتبرج وجنتيها وتزجج حاجبيها وتقلد جيدها بعقد وتجعل في اصابعها الخواتم وتعرضها على سرير مزين ويكون في رأس هذا السرير مذبح تقدم عليه تقادم الموتى التي كانت من الماء والبخور والكعك وعقيب استعراض الجثة ردحاً من الزمان كانت تدفن أو تحرق قبل الدفن حسب رغبة اهلها .

وكانت اجداثهم في نهاية البساطة خالية من الزخرفة فمنها ما يكون على شكل دهليز صغير معقود بالآجر او ابنية مستديرة الشكل او بيضاويته ومنها ما ما يكون على شكل جرار من الخزف تحشر فيها الجثة . وكانوا يدفنون مع الميت جراراً وجفاناً من الخزف لطعامه وشرابه اليومي المؤلف من خمر وبلح وسمك وطيور وطريدة . واذا كان الميت رجلاً كانوا يودعون

الى جانبه اسلحة كالرمح والجعبة والنبال وعصاه . واذا كان امرأة دفنوا معها الحلي والجواهر والازهار والطيوب والامشاط واداة التبرج والزينة

ولم يكن الباعث عندهم على مزيد العناية بالميت الرغبة في تكريمه او عاطفة حنان مست قلوبهم ، بل الخوف من غوائل الاهمال . لانهم كانوا يعتقدون ان الميت اذا لم يجد في مدفنه ما يحتاج اليه من القوت او ما كان يحبه في حياته عادت روحه الى ذويه لتنتقم منهم فتبعث فيهم القلق والارتباك وتزيد عدد الارواح الخبيثة التي تطاردهم .

وعقيب دفن الميت بمدة من الزمان يحاكم فاذا كان تقياً تكافأ بمشاطرة الالهة الغبطة وهذا ما جاء في احدى ترنيماتهم الدينية « يأتون البار بالماء الصافي وتضمه بين ذراعيها ايات زوجة انو ويقله ياو الى مقر القداسة . ينقله الى وسط العسل والدسم . ويفرغ في فمه المـاء

السحري» واذا لم يكن من الانقياء عوقب اشد العقوبات واتي أمر العذاب فيضرب بالبرص والعلل الوبيلة والعطش والجوع والبرد الى الأبد

مختصر

كان الكلدانيون والاشوريون يعتقدون ان العالم معضل بالارواح الخبيثة او الطيبة وكان يسمو على هذه الارواح الالهة من السيارات والثوابت . انو (الجلد) سمار (الشمس) سين (القمر) ايشتار (الزهرة) ميرودخ (المشتري) نبو (عطارد) نرجل (المريخ) نينيب (زحل او هرقل الاشوري) وكان يسمو على هذه الالهة في نينوى الاله اشور وفي بابل بيل او ايلو .

وكانت الهيا كل ابراجاً عظيمة ذات سبع او ثمان طبقات تتخذ عند الحاجة حصوناً ومعاقل . وكانت العبادة قائمة بعدة فروض ظاهرة وبالقرابين اما الصوم والتوبة

فكانا من الواجبات في بعض الايام ٠ وكانت مدافن الموتى خالية من الزخرف فيشخص منها الميت الى ناحية بعيدة مظلمة ليحاكم فيكافاء او يعاقب حسب اعماله ٠

الفصل السادس

الهيئة الاجتماعية

في اشور و بابل

ملخص

ا — الملوك قصورهم وادارتهم — الكهنة — الجيش — الشعب — المدن والسكان — العوائد

الملوك — كانت سلطة الملك في اشور و بابل كما كانت ولم تزل في الشرق مطلقة غير ان الملوك عندهما لم ينزلوا كما نزلهم المصريون منزلة الالهة ٠ بل كانوا بشرا يقبضون بيدهم على زمام السلطتين الروحية والزمنية ٠

وكانوا يدعون الملك نائب الالهة ولذلك كان مطلق السلطة في الارواح والاجساد ·

ومن عجيب ما انتهى الينا من الكتابات شدة اعتصام الملوك بالدين فكانوا يسمون انفسهم نواب الالهة وخدامهم · فباسمهم يشهرون الحروب ويكرهون المدحورين على التذلل بحضرة صورهم واليهم يعزون الفضل في النصرة على الاعداء وجملة القول انهم كانوا اذل المتعبدين لهم·

وكان الملك اذا جلس في الحفلات جعل عليه حلة مزخرفة فوق قباء طويل ذي اهداب مطرزة ابدع تطريز وارسل شعره المعقود الاطراف ولبس تاجاً مخروط الشكل وقبض بيده على صولجان طويل يعادل قامة الانسان · وكانت شعار الملك في قديم العهد كشعار الملوك الاسيويين في ايامنا اذا خرج بين الشعب حمل العبيد وراءه الظلة والمروحة

قصور الملوك — كان ينزل الملوك في قصور يدل ظاهرها على انها حصون ومعاقل حقيقية . وكانت تقام هذه القصور على مشارف صناعية ففي اشور حيث تكثر الاحجار كانت تلك المشارف قائمة على قطع من الصخر ولنا في استجلاء مساحتها وهندستها مثال في اطلال القصر الذي ابتناه سرجون في دور ساروقين اوفوسايل الاشورية التي قامت اليوم مقامها قرية خرساباد على مسافة اربعة عشر كيلومترًا من الموصل او نينوى القديمة .

كان هذا القصر من طبقة واحدة يبلغ ارتفاعها من الاساس وارصفة الجدران ثمانية عشر مترًا ولكن كانت مساحته فسيحة جدًا تبلغ مئة الف متر مربع وكانت غرفه ومقاصيره معقودة لا ينفذ اليها النور إلا من الباب او من نوافذ صغيرة في اعلى البناء وذلك ضنًا بالرطوبة في داخلها . وكانت السقوف قبابًا او سطوحًا

وكانت الجدران مبنية بالاجر يربط بعضها ببعض الطين او الحمر وكانت ضخامتها من اربعة الى خمسة امتار واحياناً ثمانية ٠

وكانت تستر قطع الاجر تارة بصفائح من الحجر المنقوش نقشاً ناتئاً وطوراً بالصور وغالباً بقطع من الاجر المزدان بالرسوم المختلفة الاوضاع ٠ وكانت الابواب مبنية بالاحجار الضخمة على شكل ثيران ذات وجوه بشرية رمز القوة العاقلة ٠

الادارة — كانت الولايات تقسم الى قسمين منها ما كان في ادارة عمال يسميهم الملك ومنها ما كان في ادارة ولاة خاضعين لسيطرته وهذا القسم كان يشمل الولايات المفتتحة وكانت هذه الولايات تجري على انظمتها القديمة وشرائعها الخاصة وتحافظ على اسرتها الملكية شرط ان تؤدي التكريم والجزية لصاحب السيطرة وان تقدم لهُ قسماً من الجنود

واما القسم الاول من الولايات فكانت تدار شؤونه بولاة يختارهم الملك ويفصلهم متى شاء لانهم كانوا من ضباط قصره . فيجبون الجبايات ويتولون قيادة الحاميات ويحشدون الرديف مساناة ويحافظون على النصفة والعدل في الرعية . وكان لهولاء الولاة اعوان من الكتبة الذين كانوا ذا شأن خطير في الولاية سواء كان في ادارة الاحكام او في المجامع وبالجملة كان سكان الفرات يجلونهم اجلال سكان وادي النيل لهم

الكهنة — لما كان الملك نائب الالهة ورئيس احبار قد اضطر الى ان يعهد بالقيام بالفروض الدينية الى اكليروس قانوني

واذ كان الكهنة وزراء الالهة وتراجمتهم وكانت مهنتهم او خدمتهم متصلة اتصالاً محكماً بجميع اعمال الرعية احرزوا نفوذاً عظيماً وثروة طائلة . فانتظموا في مجالس الملك حيث كانت اصواتهم فيها مرجحة وتولوا

قيادة العساكر وقاموا باجل مهام المملكة خطارة

وكانوا يستوردون المال والغلات من اراضي الهيا كل الفسيحة الانحاء التي كان يتسع نطاقها يومياً خلا ما كانوا يستفيدونه من الضحايا والذبائح التي كانت تقدم للالهة فيقتنع هولاء منها بالقتار المتصاعد او برائحتها الزائلة . وفضلاً عن ذلك كله ان الكهنة كانوا يتعاطون مهنة الصيارف فيسلفون الرعية الحنطة والمعدن بربىً فاحش . واخيراً انهم انشأوا المصانع التي كانت تستصنع فيها اسباب الترف وغيرها

ومن معظم موارد ثروة كهنة الكلدانيين السحر والعيافة والتنجيم اذ كانوا يعتدون انفسهم عارفين بطوالع البشر من الكواكب والنجوم قادرين على طرد الارواح الشريرة وابعاد ارواح الموتى واستدعائها وتأويل الاحلام وأتيان المعجزات وشفاء الامراض الوبيلة والمجهولة .

الجندية — كانت العساكر الكلدانية تماثل العساكر المصرية اما الجنود الاشورية فانها كانت ذات هيئة تدل على عزة نفس وقوة وبأس · وكانوا يدربون على الاساليب الحربية مرارًا بامرة ملكهم فيحسبون توقل الجبال وتسلق التلال واقتحام الحزون والشعاب وبناء الجسور واجتياز الانهار سابحين بمساعدة الارماث ضربًا من اللهو · كان المصري يخرج الى القتال عريانًا لايدفع عنه إلاّ كمّة محشوّة بالقطن ودرع خفيفة ومجول من جلد على ان الاشوري اذا دعي الى ساحة الوغى تصفح بالحديد شأن الفرسان في الاعصر المتوسطة · وقد انجلت مضارب الجنود وحياة الجندي في رسوم وصور اشورية نائئة ·

كانت مضارب الجنود في نهاية البساطة قائمة على وتد كثير الفروع وجل ما فيها من الرياش منضدة قائمة على قوائم ظبي وبعض كراسي ومتكئات تطوى

وتنشر . وكانت الجفان والمؤن معلقة باغصان الوتد . فالجندي كان يطحن الحنطة ويهيئ رأس الضأن للطبخ ويصنع الخمر وكان يعهد بمراقبة القدر الى احد الرفاق او الى امرأة

اما خيمة الملك فكانت في نهاية الزخرفة وكانت توضع الى جانبها العجلة التي تركز فيها شعارا الملك وقبالة العجلة مذبح يحرق عليه البخور

وكان الكهنة والسحرة والعرافون يرافقون الجنود اين اتجهوا فيقدمون بحضرة الملك والجنود صباح مساء الضحايا ويتلون الصلوات لنجاح الحرب وادراك الفوز فيها .

الشعب — كانت رسوم المعارك وصور المواقع والحروب والجنود كثيرة في ابنية الاشوريين واكثر منها صور الملوك التي كانت تمثلهم باسلحتهم وخوذهم ودروعهم كما كانت تنظر اليهم مرتعدات شعوب اسيا في

اثناء مرورهم بها · وكانوا قصار القامة شديدي العزيمة يدل نتوء عضلاتهم على شدة بأسهم وقوة بنيتهم وتؤذن استقامة انوفهم وصلابتهـا وكبر عينيهم وكل هيئتهم بجنسهم السامي اواليهودي · اما الشعب المتألف من الاكارين والممتهنين والمحترفين والتجار فلم يرَ لهُ رسم في جميع آثار الاشوريين

ولا يخفى ان الشعب لم يكن عندهم شيئاً مذكوراً لانه لا يؤثر في السياسة ولا في الثروة وبالجملة لم يكن لهُ نفوذ في امرٍ من الامور · اذ كانت جميع الاراضي خاصة بالملك والكهنة او النبلاء وكان يقضى على الاكار ان يكون مزارعاً او اجيراً في مزرعة للارتزاق

ولما كانت المصانع الملكية او الحبرية تستأثر بالصناعة كان يتعذر على الصانع الاشتغال خارجاً عنها واذا اشتغل فيها كانت جعالته دون النزر اليسير

فكان الشعب على ما تقدم في حال من الشقاء

لايضاهيه إلاّ شقاء الفلاح المصري · واشد ما كان شقاء العبيد الذين كانوا يأتون بهم اسرى في الحروب

المدن والسكان — كانت جميع المدن محصنة وكان تحصينها يعد ضرباً من الغرابة لا ترتاح اليه الاذهان لولم تقم الآثار الشاخصة حتى الآن بينة على ما رواه القدماء ·

كان لدور ساروقين مدينة سرجون التي تسمى اليوم خرساباد اسوار تختلف ضخامتها بين اربعة عشر واربعة وعشرين متراً وكانت ضخامة جدران احدابوابها اربعة وعشرين متراً وبلغت ضخامة الجدران مع العضادتين ثمانية وعشرين متراً · وكان لهذا الباب ولتلك الاسوار ابراج مستقيمة الزوايا فيها ثغر لرمي القنابل يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً او يزيد وقد اتفقت الادلة على ان تلك المدن كانت كمدن اليوم باعوجاج طرقها وضيقها وكثرة الوحول والاقذار فيها وكانت احياء

الفقراء معضلة بالكهوف الحقيرة المبنية بالطين و بالمنازل لدنيئة الواطئة المبنية بالاجر غير المجفف وبالاسواق الحافلة بالسكان التي تدوي انحاؤها من كثرة الجلبة واللغط واما احياء الاغنياء فكانت تتخللها الحدائق والبساتين وترتفع في وسطها صروح لا ديّار فيها ولا نافخ ار . وكان يكتنف كل دلك القصور والميا كل التي تعلوها المعابد الموشاة بالذهب

وقد كشفوا منازل بعض الخاصة من المثرين مبنية بالاجر الجميل الذي يبلغ مقياس القطعة منهُ قدماً مربعاً وكان ينبث النور فيها من نوافذ غير متناسقة في اعالي الجدران . وكان باب تلك المنازل صغيراً ضخماً على شكل قنطرة وهو اشبه بباب حصن منهُ بباب منزل وكانت الرده والحجر ذات شكل مستطيل تارة معقودة وطوراً مسقوفة صغيرة مظلمة . ومن المعلوم انهم كانوا يأوون الى هذه المنازل في ابان الحر الشديد وفي

ليالي الشتاء ومتى خفت وطأة الحرّ واقبلت ليالي الصيف آثروا الاقامة على السطوح واتخذوها مضاجع ومبائت ·

وكانت منازل الجميع على اختلاف الطبقات من غني وفقير حتى الملك مفروشة على غاية ما يكون من الزهد لايتجاوز رياشهـا المنضدة والكراسي والمقاعد والصناديق الضخمة لاحراز الثياب البيض والاسرة والحشايا الرقيقة والحصر يطوونها نهارًا ويفرشونها ليلاً والمراجل من النحاس الاحمر والقدر والصحاف والجرار او الاكواز للماء والخمر والفؤوس والمطارق والمدى من الصوان او الشبه

وكان لباس الرجال تارة تنورة قصيرة وطورًا قميصاً لا اكمام لها يبلغ طولها الى ما دون الركبتين وكانوا يجعلون على منكبهم اليسرى شالاً كبيرًا ذا اهداب ويكشفون ذراعهم وخاصرتهم اليمنى · ويحتذون النعال

ويلقون على رؤوسهم كمة معممة . ذلك كل ما كانوا يلبسون . اما الاغنياء فكانوا يزينون معاصمهم بالاساور الضخمة واصابعهم بالخواتم ويقلدون جيدهم بالعقود ويتشنفون بالشنوف والاقراط وكانت النساء تلبس كالرجال غير انهن كن يلقين الشال على مناكبهن كالرداء واحياناً يستبدلنه بثوب طويل يعقدن عليه المناطق .

العوائد – كانوا يدعون الاشور بين روماني آسيا القديمة و بالواقع انهم كانوا شعباً صلباً يميل الى الحرب التي كانت غرض حياتهم وكانوا اقوياء بواسل في المواقع ذوي عزيمة واقدام وصبر على احتمال الشدائد والمتاعب حريصين طبعاً على النظام والتفاني حباً بزعمائهم و بالجملة انهم امتازوا بمزايا الجندي الحقيقي . وكانوا خبيرين في اساليب القتال على اختلاف مواقعه سواء كان في المقاتلة في السهل او في الجبل او في حصار المدن حتى

انهم كانوا بارعين في الحرب بحراً ٠

وكما احرزوا شهرة في الاقبال على الحرب و بالفوز فيها فقد ذكرت لهم ايضاً في المواقع مزايا تتبرأ منها الانسانية لانهم كانوا يتوخون في قتالهم الذبح لاحراز السلب ٠ ولم نقف في تواريخ الحروب التي اتصلت بنا من ملوكهم إلاّ على ذكر مدن احرقت ورجال علقت على خشبة وأسرى قطعت رؤوسها وتشوهت وحاصل القول لم يكن شعب في القديم اشد قساوة منه على مدحوره ٠

وفي ما كتبهُ الملك اشور نرز يبال افصح دليل على قساوة الاشوريين ٠ ولئن كانت تلك الكتابة تنطق بما اجراه تأديباً لمدينة عصته فإن الظافر الذي يأتي ما اتاه في تاديب العصاة من ضروب القساوة لا يستطيع ان يكون رفيقاً رؤوفاً بسواهم من الاعداء وهذا ما كتبهُ :

« اقمت سوراً قبالة ابواب المدينة وسلخت جلد زعماء الثورة وسترت بهِ السور ودفنت البعض في اساسه وصلبت وعلقت البعض الاخر عليه وصنعت من رؤوسهم تيجاناً ومن جثثهم الممزّقة أَكِلَّة . »

وعثروا ايضاً على تمثال ملكٍ آخر وهو اشور بانيبال يمثلهُ مضطجعاً على سريره يشاطر احدى نسائه الجالسة حذاءه ملذات الوليمة . وكان هذا المشهد في حديقة ظليلة ما بين الاوراق والازهار يطربهما رجل ينقر القيثارة والطيور بتغريدها ومناغاتها . وكان معلقاً على شجرة بالقرب من الملك رأس ملك العيلاميين الذي قهره وقبض عليه في الحرب

ففي هذا المشهد وغيره من المشاهد التي يتظاهر فيها الملوك بتقوى الالهة تنكشف نفس الاشوري الجامعة بين الميل الى التهوات وسفك الدماء والرقة والقساوة والتعبد والغلاظة

وكان البابليون يحاكون الاشوريين بالقساوة غير ان اولئك مع اتصافهم بالصفات الحربية كانوا يقصرون عن ادراك درجتهم في الاقتدار على افتتاح المدن وطارت شهرتهم في الصناعة والتجارة .

— مختصر —

لما كان الملك نائب الالهة ورئيس الاحبار العظيم كان مطلق السلطة في الشؤون الروحية والزمنية . وكانت الكهنة تتلو الملك في المقام والسلطة لانه لم يعهد اليهم بادارة الشؤون الروحية فقط بل كانوا في مقدمة اصحاب المقامات الملكية والعسكرية وذهبوا الى ان عنوا في الزراعة والصيرفة وعمل الانسجة والسحر والتنجيم . اما الشعب اي الاكارون والصناع والتجار يرتزقون عادة من العمل في اراضي او مصانع الملك والكهنة والنبلاء والجميع يقتنون مدناً محصنة ينزل منها

الملك والكبراء في قصور كالحصون والعامة يأوون الى الكهوف والاكواخ الدنيئة امـا العوائد والاخلاق فمطبوعة على القساوة وحب الشهوة وسفك الدماء

الفصل السابع

في الصناعة والتجارة والفنون

في الصناعة — كانت الصناعة في بابل متقدمة اكثر منها في اشور وقد اشتهرت في المعمور الانسجة الاشورية ذات الالوان الرائعة وما كان يصنع ايضاً في بابل من الانسجة من صوف وكتان وبعد صيتهما في اصطناع الطرف للزينة كالاسلحة المنقوشة والحلى والعقود والاطواق والانية من ذهب وفضة وشبه والاثاث المزخرف والاجرّ المركب بالمينا

التجارة — لم يكن في القديم بين المدن ما يضاهي بابل في التجارة الأصور. لان مركزها الطبيعي على ضفاف نهرين عظيمين واقعين بين عدة بحار كان يجعلها محط رحال التجارة وصلتها بين الشرق والغرب . وقد كانت مدة قرون سوق تجارة آسيا وموعد تجار المعمور كله .

ولما زار اسكندر الكبير اخربتها لقرنين من سقوطها او يزيد تعجب من حسن موقعها الى حدٍ حدثته عنده نفسه في ارجاع سابق تقدمها وعمرانها

في الفنون — لم يدرك الكلداني والاشوري شأو المصري في اتقان الفنون لان الحروب والتجارة قد صرفت انظار سكان ضفاف الدجلة والفرات عن اتقان الفنون ومع ذلك قد ارتنا منهم آثارهم المهندسين والرسامين والنقاشين

فعلى الاصول الهندسية قامت تلك القصور الفخيمة

الجامعة بين البساطة والفخامة ولم يعفُ رسمها الا في ايامنا وعلى اصول الرسم تزخرفت تلك القصور والهيا كل وازدانت جدرانها بالرسوم وترصع أجرها ترصيعاً بديعاً وقع الينا بعض قطع منهُ

اما صناعة النقش وان كانت قد خلت عندهم من الاحكام والاتقان واطردت الجري على نهج واحد فقد أَتت بآثار عظيمة كتماثيل الثيران ذات الاجنحة والوجوه البشرية التي كانوا يزينون بها ابواب القصور وقد حمل شيء منها الى دار التحف في اللوفر

الاكتشافات الحديثة — كان يرجى بقاء نوعين من ابنية الكلدانيين والاشوريين القديمة وهما الهيا كل والقصور على انهما قد عفا رسمهما في بلاد الكلدانيين او يكاد لانهُ لم يبقَ منهما إلا ركام من الاجر الذي ذهبت بهِ الامطار . ولم يزل في موقع بابل العظيمة رابية عبثت بها الامطار فدلت على المكان الذي قام فيهِ

هيكل بيل الشائخ · ورابية أخرى تشهد لنا بوجود الحدائق المعلقة قديماً وهناك ايضاً عدة تلال من الخزف تؤيد اتساع نطاق الاسوار التي كانت تحدق بالمدينة· واسباب هذا الخراب الشامل ناجم عن ضعف المواد وعن الحروب التي قامت في بابل فاتخذ من استولى عليها المواد لانشاء ثلث عواصم جديدة وهي سلوقيه لعهد خلفاء الاسكندر وكتازيفون لعهد البارتيين وبغداد لايام دولة العرب

وقد تلفت ايضاً جميع هياكل اشور غير ان آثار بعض القصور لم تزل شاخصة حتى الآن· اما السقوف والجدران فقد تقوضت كلها وسقطت في اساس رابية من الخزف فلم تقع عليها ابصار الباحثين وغيرهم ومع ذلك كفى بهذا الاساس وبما بقي من اثار الجدران دلالة صريحة على ما كانت عليه اولاً قصور الاشوريين ولما نقب في تلك الانقاض كشفوا عدة رسوم مفيدة

وتماثيل ونقوش رائعة

وكانت القصور في اشور عديدة اذ كان من عادة الملك ان يهجر قصر سلفه فيبتني قصراً خاصاً به على مثال الفراعنة اتقاء تذكاره وتجنب روح الفقيد . وقد وقف المنقبون على عشرة منها واما قصر سرجون في خرساباد فقد انجلى للعيان برمته

وكان اول المنقبين عن تلك الاثار الموسيو بوتا متولي القنصلية الفرنسوية بالموصل وذلك في غرة اذار عام ١٨٤٣ وقد توفق في ذلك اليوم الى كشف الثيران ذات الاجنحة الموجودة الآن في متحف اللوفر واطرد العمل الموسيو فيكتور بلاس خلف الموسيو بوتا فاهتدى الى قصر سرجون الفسيح الارجاء

ونقب ايضاً السائح الانكليزي لايرد عام ١٨٤٥ فكشف قصر سنحاريب في نينوى وقصر اسرحدون في نمرود ولذلك كانت مجموعة التحف الاشورية في لوندرا

غنية جداً ومع ذلك فان الفضل في احياء الآثار التي طمس عليها الزمان منذ الفي سنة او يزيد في اشور ومصر عائد الى فرنسا



الماديون والفرس

نشأ التمدن القديم في الشعوب المتسلسلة من ابني نوح سام وحام : فالمصريون كانوا من ذرية حام والعبرانيون والكلدانيون والاشوريون من ذرية سام · اما يافث الذي كان مهملاً ومنبوذاً فسيظهر في الدرجة الاولى اذ قلب الفرس والماديون الذين من ذريته مملكة بابل عام ٥٣٦ واخضعوا مصر لسلطتهم عام ٥٢٥

الفصل الاول

جغرافية ايران

ملخص

صرد ايران — بلادا مادي وفارس القديمتان — سكانهما — اسيا الصغرى

صرد ايران — ان هذا الصرد الفسيح الذي تبلغ مساحته خمسة امثال مساحة فرنسا يمتد من بحر الخزر الى بحر الهند وسن الجبال التي تتصل بالدجلة الى الجبال التي تكتنف وادي نهر الهند او السند . وايران صرد جاف اذ تحدق بهِ جبال تحجز عنهُ رياح البحر والامطار . والطقس فيه شديد الوطأة منقلب . ويشتد فيه البرد اشتداده في ولاية فرنسا الواقعة في مثل درجة الجزائر وذلك لان متوسط ارتفاع سهوله عن سطح البحر يبلغ الفًا ومائتي متر . وفصل الصيف فيه خانق

لشدة حرارة الجو وركود الهواء وانعكاس الاشعة على كثب الرمل والروابي والاراضي المالحة التي لاظل فيها ولا ماء

وكانت بلادا مادي وفارس تشغلان قسماً صغيراً من غربي هذا الصرد وتشملان الجبال الواقعة كبرزخ بين بحر الخزر والخليج العجمي ·

وكانت بلاد الماديين واقعة في شمالي البرزخ لجهة اكبتان المعروفة اليوم بهمذان وكانت بلاد فارس في الجنوب الشرقي منه لجهة بارسبوليس التي وضحت اخربتها على مسير اثني عشر فرسخاً من شيراز اللطيفة

بلاد مادي — يفصل القسم الشمالي من بلادمادي عن بحر الخزر سلسلة جبال البرز (او البرج) وقد تحكي بارتفاعها جبال ألبا وارفع جبال البرز دماوند اذ يبلغ ارتفاعها خمسة الاف وست مئة وثمانية وعشرين متراً ·

وقد جمع ذلك القسم الضدين بين اودية بعيدة الغور

مخضلة مخصبة وجبالٍ قاحلة سبخة . ويشتد البرد في الجبال شتاء والحر في الاودية صيفاً . ويهب في تلك الانحاء ريح باردة (قاطعة كحد السيف)

واما القسم الجنوبي او بلاد مادي الحقيقية فتمتد من الصرد الى الصحراء الكبيرة شرقاً . والبرد فيها اخف وطأة من البرد في القسم الشمالي اما الحر فيها فشديد الى حدٍ يتعذر على سكان الوديان احتماله فينزحون الى الجبال . وتخصب الاراضي حيث تنساب المياه ولاسيما في سفح جبال قاف العاليه

بلاد فارس — لم تكن هذه البلاد قديماً إلا جزءاً صغيراً مما هي الآن المعروفة ببرسيستان . وكانت تقسمها القدماء اقساماً وهي : القسم البحري وهو ساحل تلفحه الشمس المحرقة وتثور فيه الرمال والرياح الحارة . والقسم الداخلي سهل تجري فيه المياه من جهات مختلفة كثير الاثمار والمنتجعات والمواشي والقسم الجبلي باردٌ جداً

غير ان الاودية الخصبة الجميلة التي تحيط به تلطف وطأة برده

واما القسم الذي يصلح للاقامة فهو الداخلي وان اختلف فيه الطقس وانتقل من برد قارس الى حر مصهر وتزعج سكانه حيناً بعد آخر الامطار والاعصار والزوابع ولكن تأتيهم ايام يتمتعون فيها بصفاء الجو ولطف الهواء واعتدال الطقس

سكان بلادي مادي وفارس — ينسل الماديون والفرس من الايرانيين من فرع ذرية يافث وكان منشاهم واحداً ينطقون بلغة واحدة ويدينون بدين واحد ولكن قد اختلفت عوائدهم واخلاقهم اذ كان الفرس قساة يميلون الى الحرب منذ نشأتهم والماديون الى الشهوة وعيشة الرخاء وما لبث الفرس ان تسلطوا عليهم بعد ان كانوا في امرتهم

آسيا الصغرى — في الغرب من صرد ايران جبال

ارمينيا البعيدة المساحة ومعظمها جرد وعر وسمج وحشي تجري فيها عيون جميلة وتلعات صافية ويعلو تلك الجبال جبل ارارات الذي تكسو ناصيته الثلوج ويبلغ ارتفاعه خمسة الاف متر او يزيد . وتتصل بجبال ارمينيا جبال آسيا الصغرى التي كان القدماء يسمونها طوروس . اما آسيا الصغرى فهي شبه جزيرة يحيط بها البحر المتوسط والبحر الاسود من جهاتها الثلث وكان سكانها كسكان ارمينيا من ذرية يافث وقد اختبروا في مقدمة سائر سكان تلك الجهات فعل اسلحة الفرس

مختصر

ان صرد ايران فسيح من الارض قاحل منقطع عن سائر جهات آسيا بسلسلة جبال تنتهي عند تخومه الغربية الى بلادين جبليتين وهما بلاد مادي شمالاً وبلاد فارس جنوباً وبتخلل تلك الجبال القاحلة اودية

مخضلة يتراوح فيها البرد الشديد والحر المذيب • وكان سكان البلادين من ذرية يافث ينطقون بلغة واحدة ويدينون بدين واحد غير ان اخلاقهم وعوائدهم كانت متباينة

وكانت جبال ارمينيا الى غربي بلاد مادي تتصل بها اسيا الصغرى ذات الجبال الكثيرة ايضاً وكان يتوطنهما سكان من ذرية يافث



الفصل الثاني

مملكة الماديين

(من ٦٣٢ اي ٥٦٠)

ملخص

ا ــ ايام ملك سياقصر (من ٦٣٢ الى ٥٠٥) تأسيس مملكة مادي (٦٣٢) هجوم السكثيين ــ الاستيلاء على بينوى (٦٢٥) محاربــة الليديين ومحالفة ملكهم اليات (٦٠٨)

ب ــ ايام استياج (من ٥٩٥ الى ٥٦٠) الميل للمسالمة وسقوط استياج منشاء قورش

(ا) عهد سياقصر (من ٦٣٢ الى ٥٩٥)

ان أوائل تاريخ مملكة مادي كاوائل تاريخ مملكة اشور غائبة تحت ظلمات الروايات المختلقة غير ان هذه الروايات او القصص في مادي لم توضع بقلم شاعر

يستفز القلب ويستثير العواطف · والظاهر ان مادي كانت شأن سائر الممالك في القدم منقسمة الى امارات او ولايات صغيرة مستقلة · ان سياقصر اول ملوكها الذين لا ريبة في وجودهم وحقيقتهم (من ٦٣٢ الى ٥٩٥) جمع تحت سلطته كل ولايات مادي واخضع ايضاً امارات الفرس · ويرجحون انهُ موّسس مملكة مادي · وعقيب ان وحّد بين اقسام المملكة توحيداً سياسياً هيأ لها الاسباب التي تمكنها من الفتوحات فنظم الجندية التي لم تكن من قبل الاَّ اخلاطاً من متنكبي الرماح ورماة النبال والفرسان

هجوم السكثيين — ان هجوم اشور على السرجونيد مرة بعد مرة قد انهكها وان كان هجومها قد قرن بالفوز والمجد فافضي بها الى السقوط بعد ان دخلت عهداً من التقدم مذكوراً · فرأى سياقصر اختبار جنوده وفعل سلاحهم الجديد فيه · فبعد ان قهر الاشوريين وعمد

لمحاصرة نينوى تدفق السيكثيون على مادي كالسيل فرفع للحال الحصار وبادر لملاقاة المهاجمين · فاستظهروا عليه لكثرة عددهم وتقاضوه الاتاوة

ولما استولى السكثيون على آسيا واستوسق لهم الامر فيها اعملوا فيها الخراب والدمار دون ان تأخذهم رحمة او تمس قلبهم عاطفة وذلك مدة ثماني سنوات

وانقذوا من الماديين اشور على رغمها فاحرقوا مدنها مباءات الملوك بعد ان نهبوا ما فيها ونال مادي منال اشور فاعمل سياقصر الحيلة فراراً من البرابرة اذ دعا زعيم السكثيين وكبار ضباطه الى مأدبة فاخرة أدبها لهم وبعد ان اسكرهم حزّ رقابهم

الاستيلاء على نينوى (٦٢٥) ولما نبذ سياقصر ربق السكثيين عاود السعي في تحقيق مشاريعه بالاستيلاء على نينوى · فاتحد مع نبوبلصر ملك بابل ابان زيغه وسار يريد المدينة العظيمة وكان سقوطها

سريعاً . فاقتسم الملكان اشور فأخذت الماديون الشمال والبابليون الجنوب . (٦٢٥)

محاربة الليديين — ولما غلظ امر مملكة مادي حدّث سياقصر نفسه بمهاجمة مملكة ليديا في آسيا الصغرى وما لبث ان شهر الحرب على ملك السارد اليات . غير ان الليديين ثبتوا في المجال وصدوا غاراته . وبعد قتال دام ست سنوات وقعت السلم بينهم . ووضعت حدود المملكتين عند مجرى نهر هاليس المعروف اليوم بقزل ارمك . وقد توثقت المحالفة بين المملكتين بتزويج اريانيس كريمة الملك اليات من استياج بن سياقصر (٦٠٨)

ولما انعقد السلم بين مادي وبابل وليديا حفظت الموازنة وتلاشت اسباب الخصام ولم يكن الا القليل من هذا العقد حتى قضي سياقصر نحبه شبعاناً من الايام والمجد (٥٩٥)

ب — عهد استياج (من ٥٩٥ الى ٥٦٠)

مسالمة وسقوط استياج — لم ينزع هذا الملك منزع ابيه الى الحرب فعمد الى توثيق عرى الوئام والاتفاق بمحالفات نسبية فتزوج بابنة اليات ملك ليديا وزوج شقيقته من بختنصر ملك بابل . ولما كان استياج صهر كريزوس ابن اليات وحما بختنصر سكن بالهُ وزالت المخاوف فقضى عيشاً راضياً مدة خمس وثلاثين سنة لا يشغله في خلالها الا القنص والملذات . وما لبث كذلك الى ان قلبه قورش ملك فارس احد اتباعه

منشاء قورش — من كان قورش الظافر باستياج؟ لا يستطيع العلماء والباحثون حتى الان ان يؤدوا الجواب الحقيقي عن هذا السؤال . وذلك لان ما قيل عن اصله لاول امره يعد تخرصاً ووهماً وقد اختلفت ايضاً الروايات في امرهِ لاقل من قرن بعد وفاته واشهرها اربع منها

ان هيرودوتس ينسب اصل قورش الى مندانه زوجة كامبيز ملك فارس وكريمة استياج ويزين روايته بالحكايات والقصص المختلفة قال٠

رأى استياج حلماً ينبئه ُ ان ابن ابنته سيعزله ُ فأمر هربجس احد ضباطهِ ان يهلكه ُ فمست الشفقة قلب الضابط عليه فلم يشا ان يقتله بيده فدفعه الى احد الرعاة وأمره ُ بتنفيذ امر الملك ٠ فلما ابصرته ُ زوجة الراعي اعجبها جماله ُ فربته ُ كابنها٠ ولما بلغ قورش العاشرة من عمره مثل بحضرة الملك ليدفع عن نفسه التهمة التي وجهت اليه٠ ولما عرفه استياج ابقى عليه ولكن لينتقم من هربجس دعاه الى طعام العشا وقدم له ُ من لحم ابنهِ ٠ ولما انكشفت حقيقة الامر لهربجس حلف في نفسه ان يثأر منه ُ

ثم انفذ قورش الى والدتهِ في بلاد فارس ولما كان بضع سنوات من اقامتهِ عندها هيأ هربجس معدات

العصيان وبعث يقول الى قورش انهُ اذا كان يبغي عزل استياج فالسبيل اليه ممهَّد . فان فعل ذلك ينتقم لنفسه ولهربجس وينقذ الماديين من نير الخضوع لاستياج القاسي .

فحضَّ قورش الفرس على العصيان وراح يطلب استياج فارسل هذا عساكره لمحاربته بقيادة هربجس ولا حاجة الى تفصيل ما كان من عاقبة القتال فان هربجس قد خانهُ . وعبأَ استياج الجيوش للمرة الثانية ولكن لم يفلح اذ تغلب عليه قورش وأَسره فخضع حينئذٍ الماديون والفرس لسلطة قورش

فهذه الرواية ليست من الحقيقة بشيء وقد قال اكتازياس بعد تنقيبه في سجلات مملكة فارس ان قورش لم يكن نسيب استياج . ومن آثار قورش المكشوفة حديثاً ما يزيل الوهم في انتسابه الى استياج ويرجح انهُ من اسرة الاخمنيد الملكية وابن كمبيز ملك الفرس

مختصر

أسس سياقصر مملكة مادي (من ٦٣٥ الى ٥٩٥)وتولى امر جميع الامارات المادية و بسط سيطرته على الفرس وانشأ لهُ جيشاً ودفع عن المملكة غزوات وغارات السكثيين وقلب نينوى بالاتفاق مع ملك بابل نابوبلاصر (٦٢٥) واختص بنفسهِ شمالي اشور ثم دحر اليات ملك ليديا واستولى على قسم من مملكته وزوج استياج ابنهُ من ابنة مدحوره اريانيس

ولما كان استياج صهر كريزوس ملك ليديا الجديد وشقيق زوجة بختنصر استتب الامن في بلاده مدة خمس وثلاثين سنة (من ٥٩٥ الى ٥٦٠) وبعد ذلك عزلهُ احد اتباعهِ قورش بن كمبيز ملك الفرس

الفصل الثالث

مملكة فارس — قورش

(من ٥٦٠ الى ٥٢٩)

ملخص

محاربة الليديين (٥٥٤) افتتاح ايران (من ٥٥٤ الى ٥٣٩) افتتاح بلاد الكلدانيين (من ٥٣٩ الى ٥٣٦) آخر مدة سبي اليهود (٥٣٦) وفاة قورش (٥٢٩)

قضى قورش ايام ملكه في اصلاء الحروب فوسع بها نطاق مملكته واحرز شهرة بعيدة حتى عدَّ في جملة الفاتحين العظام في الاعصر الخوالي

١ — محاربة الليديين — كان كريزوس ملك ليديا قد استولى على اسيا الصغرى في مايلي هاليش وعلى مستعمرات اليونان الواقعة على الساحل. ولما كانت هذه البلاد غنية بصناعتها وغلالها كثرت موا د ثروة مملكة

كريزوس حتى صار يعد اوسع ملوك زمانه ثروة ٠
وكان يحرص هذا الملك على مبادئ الحرية جواداً سخياً استمال بسخائهِ وجوده اليونان

وكان يألف بلاطه الفاخر في سارد كثير من حكماء اليونان وفضلائهم كصولون و بياس من بريانس وبيتاقوس من متلين او مدلة وتالس من ميلات

ولما درى كريزوس بسقوط صهره استياج اوجس خيفة من وقوع البلاء في بلاده فاستجار بالاجنبي فحالف نابونيد ملك بابل وامازيس ملك مصر ٠ ووعده اللاقديمونيون اقوى اليونانيين بأساً النجدة والمعونة ٠ وشاور عرّاف دلف فتنبأ لهُ قائلاً : اذا شهرت حرباً على الفرس كانت عاقبة الحرب سقوط مملكة عظيمة وبالواقع ان مملكة عظيمة سقطت ولم تكن هذه المملكة إلاّ مملكته

ملّ كريزوس انتظار حلفائه وتأهبهم للقتال

فغزا في ربيع ٥٥٤ كبادوكيا تاركاً المواضع التي مرّ بها قفرا . اما قورش فاعمل الصيف كله على حشد الجنود وتدريبها ولم يتصدَّ لمقاتلة كريزوس الا في الخريف فالتقيا ولكن لم تنجل نتيجة الملتقى لان فصل الشتاء قد قطع بهما عن القتال فظن كريزوس ان الحرب قد وضعت اوزارها فانقلب راجعاً الى سارد وبدّد شمل العساكر الاجنبيــة التي كان قد استأجرها للمقاتلة في صفوفه . ولم يكن الا القليل من الزمان حتى زحف قورش يريد كريزوس في سارد فلما احس هذا بدنوه على حين غرّة حشد من كان لديه من العساكر وخرج لصده فالتحم الجيشان في صحراء قاحلة قبالة سارد ودارت الدائرة في تلك الوقعة على كريزوس بعد ان دافع فيها دفاع الابطال فانحجز في سارد حيث حاصره قورش ولم يزل بــه حتى استحوذ على المدينة بعد حصار دام اربعة عشر يوماً (٥٥٤) فدخلت العساكر المدينة وفي

اثناء اللغط وهياج الشعب وهياجه كاد احد جنود الفرس يودي بحياة كريزوس وهو لا يعرفهُ فلما رأى ابنهُ الخطر وكان اصم ابكم من بطن امهِ استولى عليه الرعب واخذ منهُ الخوف مأخذاً انطقه لاول مرة في حياته قائلاً «ايها الجندي لا تقتل كريزوس» فلم يعف قورش فقط عن الملك المنحوس الطالع المنكود الحظ بل صادقه واتخذه مستشاراً

افتتاح ايران (من ٥٥٤ الى ٥٣٩) ولما فرغ قورش من محاربة كريزوس توجه الى جهات الشرق الاقصى فطاف صرد ايران حتى نهر ايا كزارتس واخضع كل من مرّ بهِ من الشعوب وابتنى حصناً على ضفاف هذا النهر دعاه كيروبوليس وشغلته الفتوحات خمس عشرة سنة (من ٥٥٤ الى ٥٣٩)

افتتاح بلاد الكلدانيين (من ٥٣٩ الى ٥٣٦) ولم يبق من مطمح ابصار قورش الا بلاد الكلدانيين

وكانت بابل قد اخذت بالانحطاط منذ عدة سنوات فلا تقوى على صد غارات عدوٍ شديد الباس مع تظاهرها بالقوة والحياة

ولما نمي الى ملك بابل ان عساكر الفرس تقصد الفرات امر بالتضرعات والقرابين للاله بيل ونقل الى مباءته جميع الهة المدن الاخري ليتخذ حمايتها مجنا وترساً . اما قورش فلم يرهب احتشاد هذه الحامية المؤلفة من الالهة وعقيب ان فاز بالكلدانيين في وقعة روتو تقدم لمحاصرة بابل . ولما كانت هذه المدينة فسيحة الارجاء عزيزة الجانب كثيرة المؤن والذخائر شق على عساكر الفرس الدخول اليها او الاستيلاء عليها لاشتداد وطأة الجوع فيها فظل قورش في سفح اسوارها زمنا طويلاً دون ان يظفر منها بشيء . ولم يفزبها الا بطريق الحيلة وهذا مفصل الامر

بينا كان البابليون يلهون ويقصفون في يوم عيد

حوّل مياه الفرات الى المدينة ودخل اليها من مجرى النهر وكان ذلك عام ٥٣٦ ق.م.

نهاية مدة السبي — اراد الله ان يكون الظافر ببابل منقذاً للشعب اليهودي الذي كان ينوح غريباً على ضفاف الفرات ؟

«هكذا يقول الرب لمسيحه لقورش الذي امسكت بيمينه لادوس امامه اُمماً واحقاء ملوك احل لافتح امامه المصراعين والابواب لا تغلق انا اسير قدامك والهضاب امهد ١٠ اكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد اقصف واعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف اني انا الرب الذي يدعوك باسمك اله اسرائيل لاجل عبدي يعقوب واسرائيل مختاري دعوتك باسمك»

وبالواقع ان قورش قد أصدر الامر الذي يجيز به لليهود الرجوع الى وطنهم في السنة التي استولى فيها على بابل (٥٣٦)

ولما استوثق لقورش الامر في بابل لم يتخذها مبأة لهُ بل كان يقيم تارة في بازاكادر احدى عواصم بلاد فارس وطوراً في سوز عاصمة شوشانه · وولّى امر بابل كوبرياس القائد الذي دبّر اساليب الحصار ولعل كوبرياس هو داريوس المادي الذي ذكر الكتاب ولايته على بابل بعد وفاة بلطشصر «في الليلة ذاتها قتل بلطشصر ملك كلدة وخلفه على الملك داريوس المادي في الثانية والستين من العمر ·» واستوزر الحاكم دانيال النبي الذي اجلاه من اورشليم الى بابل صغيراً بختنصر الملك وهو الذي كتب النبوة الشهيرة المعروفة بالاثنين والسبعين اسبوعاً التي يظهر عند نهايتها مخلص العالم

وفاة قورش — عاش قورش بعد افتتاح بابل سبع سنوات ثم توارى عن العيان بطريقة خفية والظاهر انهُ لم يمت حتف انفه

وحسب رواية هيرودوتس انهُ طلب ان يتزوج

بتوميريس ملكة مساجت التي كانت تقيم في شرقي بحر الخزر فانكر عليه ذاك٠ فاغتاظ جدًا وشهر عليها حربًا وقع في خلالها ابنها اسيرًا في يد قورش وانتحر جزعًا وقنوطًا ٠ فقامت توميريس والدته لتثأر لهُ فأصلت قورش حربًا كانت القاضية عليه ٠ فقطعت الملكة رأسه وغمسته في ظرفٍ مملوء دمًا بشريًا وقالت :« لقد خسرتني باخذك ابني بالحيلة ولذلك اروّيك دمًا ٠»

وتوصل الفرس بسعيهم الى جثة ملكهم فنقلوها الى بازاكارد حيث دفنت باحتفال في حدائق القصر ويشيرون اليوم الى بناء من الرخام الابيض هو عندهم مدفن قورش ٠

— مختصر —

ان قورش قضى حياته في الحرب فقهر بجوار سارد كريزوس ملك ليديا وعزلهُ عام ٥٥٤ وافتتح

ايران (من ٥٥٤ الى ٥٣٩) و بلاد الكلدانيين (٥٣٦) ولما قهر بابل اطلق المسبيين من اليهود (٥٣٦) وفي السنة السابعة اي عام (٥٢٩) قضى نحبه ومن الراجح انه قتل في محاربته توميريس ملكة ماساجت ولا يزال قبره حتى اليوم في بازا كارد احدى عواصم بلاد فارس

الفصل الرابع
مملكة الفرس — كامبيز
(من ٥٢٩ الى ٥٢١)

ملخص

مقتل سمرديس — افتتاح مصر (٥٢٥) الفشل في قرطجنة والحبشة — قساوة وجنون — الثورة في بلاد فارس ووفاة كمبيز

مقتل سمرديس — كان قورش قد سمى ابنهُ كمبيز خلفاً لهُ وولى ابنه الثاني سمرديس عدة ولايات · ولما

كان كمبيز يريد الاستئثار بالسلطة والانفراد بالولاية والملك قتل اخاه · وقد تمت هذه الجناية على طريقة خفية حتى توهم الشعب ورجال البلاط ان سمرديس قد سجن عليه في احد قصور مادي

افتتاح مصر — (٥٢٥) كان امازيس ملك مصر قد دخل في المحالفة التي انعقدت برأي كريزوس على الفرس · وعقيب ان قهر الليديين سعى في نبذ المحالفة ظهريًا تقربًا من قورش ملك فارس · اما كمبيز الشاب فقد شهر عليه الحروب

ولما بلغ الفرس تخوم مصر بلغهم موت امازيس وتنصيب الشاب بسيتخس الثالث مكانه · وكانت الوقعة في بالوز وقد قاتل فيها الفريقان قتال الابطال غير ان الفرس تغلبوا على المصريين ففر بسيتخس الى ممفيس ولكن لم ينجه فراره من الاسر نخضعت اذ ذاك لامر الفرس مصر العليا كما خضعت من قبل مصر

السفلى ·

ولم يستلزم استئصال سلطة المصريين القديمة المنتشرة منذ اربعة آلاف سنة الا بضعة ايام · وكان في نية كمبيز ان يبقي بسميتخس المنكود الطالع واليا تابعا له رحمة به لولا انه درى بالإئتمار على الفرس · فارسل الملك الى العذاب (٥٢٥)

مقاصده في قرطجه والحبشة — لم يقتنع كمبيز بمملكته الواسعة الاطراف التي لم يعهد بمثلها فقام يطلب قرطجنه واثيوبيا ·

كانت قرطجنه منفردة في موقعها الحصين على ساحل بحر الروم الغربي وكانت سفنها تمخر في البحر حتى تتوغل في جهات اوروبا الشمالية فاستهوت كمبيز بثروتها وذخائرها ولكن لم يساعده الفينيقيون عليها كما ساعدوه على مصر وأبوا ان يسيّروا اساطيلهم لمحاربة مدينة اسستها جاليتهم فاضطر كمبيز ان يقصدها برًّا· وقد

انفذ خمسين الفاً من عسكره لاحتلال واحة عمون ولتمهيد الطرق لاخوانهم فطمرهم الرمل وعفا رسمهم وذكرهم معاً

وقد اخفق ايضاً في حملته على اثيوبيا وذلك لانه قد ارتكب خطاء بيناً في الخطة التي جرى عليها اذ قام يريدها دون زاد ولا مؤونة وقد اتخذ للوصول اليها سريعاً طريق الصحراء بدلاً من ان يجري على مجرى النيل . فسطا الجوع على عسكره واشتدت وطأته حتى اكلوا كل ما كان لديهم من حيوانات النقل ثم اقترعوا بينهم على من يأكلوه وكانوا يأكلون واحداً من عشرة رجال . واخيراً اقفل من بقي منهم راجعاً الى بلاده

قساوة وجنون — ان الفشل الذي ادركه في البلادين قد اثر على عقله فازداد قلقاً واضطراباً وهاج غضبه . ولما عاد الى ممفيس وجد القوم يمرحون ويفرحون بعلة تنصيب اله جديد (الثورايس) فغاظه الاحتفال

فقتل الساسة واذل الكهنة واحتقرهم وجرح الاله جرحاً مميتاً مات على اثره في بضعة ايام وانتهك حرمة مدافن الملوك واحرق تماثيل الاله فتاح وقتل شقيقته ووأد اثني عشر ضابطاً من كبار ضباط حاشيته . و بالجملة انه سار سيرة المعتوه

الثورة في بلاد فارس ووفاة كمبيز — وكان كمبيز قد زايل مصر قاصداً اسوريا ولما بلغها اقبل احد حاملي السلاح الى المعسكر ونادى بصوت جهوري بانفصال كمبيز عن الملك وطلب الى الشعب الاعتراف بسلطة سمرديس بن قورش . وكان قد حدث هياج فى بلاد فارس في اثناء تغيب كمبيز اذ قام كوماتس احد المجوسيين وادعى انه سمرديس بن قورش وموّه على الشعب بما بينه و بين ابن قورش من التشابه فاعترفت مادي و بعض الولايات بسلطته . وكان كمبيز عارفاً ان سمرديس قد قضى نحبه فقام للزحف في طليعة من

بقي من عسكره اميناً على عهده لمعاقبة المغتصب فقضى نحبه بطريقة خفية

روى هيرودتس قال : جرح بسيفه وهو يمتطي صهوة جواده وكانت ايام ملكه سبع سنوات وخمسة اشهر ٠

مختصر

ان كمبيز بكر اولاد قورش (من ٥٢٩ الى ٥٢١) قتل اخاه سمرديس وواقع بسماتيخس ملك مصر في بالوز وعزله ٠ وحبطت آماله في الحملة على قرطجنه واثيوبيا فقضى نحبهُ فجأة وهو ذاهب لمقاتلة كوماتس المنتحل اسم سمرديس في بلاد فارس ٠

الفصل الخامس

منتهى مجد مملكة فارس

وعزها—داريوس الاول

(٥٢١ الى ٤٨٥)

ملخص

جلوس داريوس بن هستاسب على تخت الملك—الكتابة البهستونية — الفتن في عهد داريوس الاول — تنظيم المملكة—الضرائب—حروب داريوس الاول في الهند وبلاد السكيثيين (من ٥١٢ الى ٥٠٦) ثورة المدن الايونيانية (٥٠٠) مملكة فارس عند وفاة داريوس (٤٨٥)

جلوس داريوس على تخت الملك — لم يكن لكمبيز من ولي عهد ولا سمى خلفه عند وفاته ومع اطلاع كبراء المملكة على امر سمرديس المغتصب مكث هذا سبعة اشهر على تخت المملكة دون معارض ولا منازع ولكن ما لبث ان نال جزاء خدعته

ان داريوس بن هيستاسب اتفق مع ستة من زعماء الاسرذوي العزيمة على الايقاع بالمجوسي المغتصب فقتله غيلةً مع اعوانه · ولما كان داريوس من سلالة اخمنيدس الملكية ومن عترة قورش وبالتالي ولي عهده الشرعي نادى بـهِ حلفاؤه ملكاً واقام عيدًا يسمى ماجوفوني اي ذبح المجوس تذكارًا للقتل الذي كان علة ارتقائه تخت الملك

الكتابة البهيستونية — قد اطلعنا على اغتصاب سمرديس المنتحل وارتقاء داريوس تخت الملك بما رواه هيرودتس وبما سطر على صخرة بهيستون القائمة وسط السهل على الطريق المؤدي من كرمنشاه الى حمدان او اكبتان القديمة · وكان على هذه الصخرة عدة كتابات ورسوم ·

وقد افادنا تاريخ ملك داريوس اولاً الثورات التي دعي لتدويخها لدن جلوسه على تخت المملكة · ثانياً

تنظيم شؤون المملكة · ثالثاً حروبه · رابعاً نتيجة ايام ملكه

(١) الثورات والفتن — يؤخذ من الكتابة البهيستونية ان داريوس قد عانى المشاق في توطيد اركان مملكته وتعزيز سلطته لان الفتن كانت قد نشبت لدن جلوسه على سرير الملك في كل ناحية فاهتزت منها بابل وبلاد فارس ومادي وشوشانه وارمينيا· فانفق داريوس خمس سنوات في سبيل استتباب الأمن والراحة (من ٥٢١ الى ٥١٦) وقد قال: «أصليت تسع عشرة حرباً وقهرت تسعة ملوك»

واشهر تلك الحروب او الفتن فتنة بابل اذ ثبتت المدينة في موقف الدفاع بازاء مساوريها مدة عشرين شهراً او تزيد وجاء في رواية هيرودتس ان الملك لم يقوَ على تدويخها وقهرها إلاّ بتفاني زوبير احد قواده اذ جدع انفه واذنيه وجزّ شعره وسهم بدنه بالسوط

وجاز بين البابليين وهو يشكو سوء معاملة داريوس ويطلب الانتقام منه · فوثق البابليون بهِ وسلموه قيادة العساكر وارتاحوا اليه في المحافظة على الاسوار فما كان منه الاّ ان سلم المدينة للفرس ·

(٢) تنظيم المملكة — عقيب ان وطد داريوس الامن في المملكة عمد الى تنظيم شؤونها السياسية فترك للشعوب التي اخضعها ولاتها اومرازبتها ولغتها وديانتها وشرائعها وانظمتها ووثق بين السلطة المحلية والسلطة الملكية العامة · وقسم البلاد الى ولايات كبيرة وجعل في كل منها ثلثة ضباط ينوبون عنه في الادارة والكتابة وقيادة الجند · وكان هولاء الضباط يتراقبون ويترصد الواحد حركات الآخر حتى تعذر استئناف الفتن وكانوا يواصلون انفاذ الكتابات الى البلاط الملكي مع الفرسان الذين كانوا يقيمون بين سوزا عاصمة بلاد فارس في الحال واقصى الولايات المتصلة بها وكان المفتشون

الملكيون يطوفون كل سنة الولايات لمراقبة الشؤون واصلاحها وكانوا يدعون عيون الملك وأذنيه

المكوس —واجل أمر وجه داريوس العناية اليه الشؤون المالية فعفى بلاد فارس من المكوس القانونية ولكن ترتب علي السكان عند اجتيازهم البلاد او تنقلهم من مكان الى آخر ان يحملوا اليه التقادم كل بحسب ثروته واما الولايات الأخر فقد ضرب عليها الجزية بحسب اتساع نطاقها وثروتها وكانوا يؤدونها نقوداً واثماراً وخيلاً ومواشٍ وما اشبه

وكانت العوائد الفضية والذهبية تسبك سبائك وتستودع الخزينة الملكية ويسك قسم منها للتعامل

وكانت القطع او المسكوكات الذهبية والفضية المسماة داريك (نسبة الى داريوس او العملة الفارسية) الضخمة وغير المحكمة السك تبذل في توفية رواتب الجندية والبحرية ولم يتعامل بها الاّ سكان سواحل

البحر المتوسط · واما في الداخلية فكانوا يتداولون المعادن بالميزان ·

(٣) حروب داريوس — لما كان الفرس رجال حرب لم يشا داريوس الاَّ الميل معهم ليؤكد لهم رغبته في ارضائهم وتحقيق امانيهم وليبين لهم انه ارفع شأناً ممن سلف من الملوك فلا يفضله كمبيز وقورش فوجّه بداءة بدء عسكره الى الهند ثم الى اوروبا

في الهند — انه قبل ان يتجه الى الهند ارسل سيلاكس امير بحر يوناني لمشارفة حوض نهر السند حتى البحر · فخاض هذا الجوالة المقدام النهر وامعن في التجول حتى دخل بحر اريتره المعروف اليوم ببحر الهند وبعد ان قضى ثلاثين شهراً في المشارفة وسبر الاغوار انتهى الى البحر الاحمر عن بوغاز باب المندب فاخضع داريوس على اثر رحلة سيلاكس الهنود ومخرت اساطيله في بحر الهند واستنزف منه خيراً جزيلاً (٥١٢)

في اوروبا وسكيثيا—فبدلاً من ان يمعن داريوس في غزواته حتى نهر الكانج حيث يفتتح لبلاده اسواقاً تعود عليها بالتقدم والنجاح عمد لمحاربة السكيثيين انتقاماً لآسيا منهم اذ كثرت غزواتهم لها

فاجتاز داريوس البوسفور على جسر من السفن فاخضع القسم الشرقي من بلاد تراكي وعبر نهر الايستر او الدانوب (٥٠٨) وتوغل في الصحراء الواقعة في الجنوب من بلاد روسيا . وفي شهرين طوى في مسيره صحارى الدون اوتنايس ثم عاد مطمئناً الى اسيا بعد ان دوّخ تراكي واكره مكدونيا على تأدية الجزية (٥٠٦) ومنذ ذاك الحين انحجز السكيثيون عن غزو حدود بلاد فارس .

ثورة المدن الايونيانية او اليونانية—لم يتمتع داريوس طويلاً بالسكينة والغبطة لان اليونان المتوطنين اسيا الصغرى ثاروا عليه (٥٠٠) فاحرقوا بمساعدة الاثينيين

مدينة سارد في ليديا فنالوا من اجل ذلك عقاباً شديداً اذ اخذت مدينة ميلات التي تقدمت اخواتها بالعصيان وبيعت سكانها او نقلوا الى مصب الدجلة اما سائر المدن اليونانية فقد نهبت واحرقت

وتعمد داريوس الانتقام من سكان اثينا فسير الجيوش اليها براً وبحراً فلم يفلح في الحملة الاولى لان القواصف والعواصف فاجأت جنوده ومراكبه على سواحل تراكي (٤٩٢) ثم حمل عليها داريوس لمضي سنتين من الحملة الاولى . فجهز العساكر والسفن بقيادة راتيس وارتافرنا فنزلا على ساحل اتكا ولكن دُحرا في وقعة ماراتون (٤٩٠) ومع توالي النكبات والحطمات لم يجزع داريوس ولا وهت عزائمه فهيأ للانتقام كل ما لديه من اسباب القوة فقطع به الموت عن عمله على حين غرة في السنة السادسة والثلاثين من ملكه (٤٨٥)

(٤) مملكة الفرس عند وفاة داريوس (٤٨٥)

ان تغلب اليونان على عساكر داريوس لم يؤثر على ما
اتاه من الاعمال العظيمة في بلاد فارس فغادرها فسيحة
الاطراف منتظمة الشؤون الى حد لم يعهد بمثله في
سالف الزمان . لان اتصال المملكة الفارسية بالشرق
الاقصى بواسطة الهند وباوربا بواسطة تراكي وفّر لها
الثروة الطائلة

وكان الفرس قد بلغوا من التقدم شأوًا بعيدًا
حتى كذبوا بما كان يرميهم به اليونان لصلفهم
وغطرستهم من القساوة والهمجية . وفي ٣٣٢ ضرب
الاسكندر الكبير الملك المكدوني على بلاد فارس فخرّبها
وهذا الاثر وغيره من الآثار التي تلت عهد داريوس
الاول من شأن تاريخ اليونان وليس التاريخ القديم

مختصر

ان داريوس بن هيستاسب من سلالة الاخمينيد

الملكية قتل سمرديس المنتحل وتولى امر الملك · وقد نقشت تفاصيل هذه الحادثة وغيرها من حوادث التاريخ الفارسي بالكتابة البهيستونية · قضى داريوس الاول خمس سنوات (من ٥٢١ الى ٥١٦) في تدويخ الفتن والعصيان في بابل و بلاد فارس و بلاد مادي وشوشانه · وقد اشتهر عصيان بابل وتأديبها بتفاني زوبير · وعقيب اخمادهذه الثورة نظم داريوس المملكة فاقام مرزباناً او والياً على كل ولاية وكاتباً ملكياً وقائداً · وضرب الضرائب على جميع الولايات ما عدا بلاد فارس وكانت الضرائب من نقود وعرض واباح للولايات الخاضعة له المحافظة على زعمائها وانظمتها وشرائعها الوطنية

حارب داريوس بداءة بدء الهند ثم السكيثيين في اوروبا والقى الرعب في انفسهم ولما عاد من محاربتهم اخضع بلاد تراكي (من ٥١٢ الى ٥٠٦)واخمد الثورة في بلاد اليونان (٥٠٠) وسعى في الائتار من محالفيها

سكان اثينا فاعترضته في سبيله العاصفة فاحبطت مسعاه (٤٩٢) ودُحر في الحملة الثانية قائداه راتيس وارتافرنا في ماراتون (٤٩٠) وهذه الحطمة وغيرها لم تحط من عزة بلاد فارس وكانت عند وفاة داريوس (٤٨٥) من اوسع الممالك واحسنها نظاماً

الفصل السادس

تمدن الفرس

ديانتهم — اخلاقهم وعوائدهم — فنونهم وعلومهم

كان تمدن الماديين كتمدن الفرس فالكلام عنه يشمل الشعبين اللذين وان كانا قد اختلفا بعض الاختلاف في الاصل فقد امتزجا واتفقا بعد قورش حتى صارا شعباً واحداً

(١) الديانة

كان الفرس يدينون بدين زوروواستر الذي نشأ في بكتريان لالفين وخمسمائة سنة ق٠م٠ وعقيدته مبينة في الزنداوستا او كتاب الشريعة وهي انقى واشرف العقائد القديمة واقربها من الحقيقة ما عدا العقيدة العبرانية ٠ ولكن لما كان زوروواستر يعمل بما تنتج لهُ فكرته ويعول على عقله شقّ عليه التوصل الى اصل الاشر فتعثر في ما ارتآه في ذلك وسقط

اولاً —العقائد— دعي مذهب زور واستر المذهب الثنائي او الاعتقاد بقوتين ومبدأ ين الواحد صالح والآخر شرير وهما يتقابلان ويبينان ما في العالم الحالي ٠ والمبدأ ان هما أهرامدزا وأهريمان ٠

فأهرامدزا هو الحكمة الممتازة والنور والضياء والاعظم والاجود والاكمل والانشط والاذكى والاجمل

أَبدي ازلي فبكلمته خلق كل شيء واوجد من العدم الروح والمادّة . وقد قابل زوروastر أَهرامدزا مبداء الخير والنور باهريمان مبداء الشر والظلام : أهرامدزا خلق وأَهريمان يريد الملاشاة انه يريد معارضة الخير بالشر والنور بالظلام والفضيلة بالرزيلة والصحة بالسقم والحياة بالموت

يستعين أَهرامدزا بست قوات خيرية على ادارة العالم وتدبيره و يستعين كذلك اهريمان على ستة ارواح شريرة مساوية بالقوة والسلطة للارواح الصالحة او القوات الخيرية

فالانسان كسائر المخلوقات خاضع لتأثير القوتين المتعارضتين اوالمبدائين المتناقضين اي الخير والشر ولكل انسان ملاك يدفع عنه الارواح الخبيثة وهذا الخصام يستمر حتى انصرام الازمان فيبدد حينئذٍ النور الظلام والحياة الموت والخير الشر

(٢) الطقس والعبادة — وكانت الرسوم الطقسية عند الفرس قليلة وفي نهاية البساطة لانه لم يكن لاهورامدزا تماثيل ولا هياكل ولا مذابح . ولكن كانوا يقتصرون على بناء المستوقدات على الشرفات لاضرام النار المقدسة جيلاً بعد جيل

وجل ما كان يطالبهم بهِ الروح الطيب ايقاد النار المقدسة ومع ذلك كان يقبل الذبائح والقرابين من حيوان وانسان .

(٣) آلاداب — وكانت اداب الفرس سامية نقية اذ كان يتوجب على الايراني الايمان بالله وتقديم الصلوات والذبائح لهُ والاتصاف بسلامة القلب والصدق في الكلام والاستقامة في جميع اعماله

والرجل الصالح من احسن الفكرة والقول والعمل ومن اهم ما كان يطالب بهِ الزراعة « والرجل القديس من ابتنى لهُ في هذه الدنيا منزلاً لا يوقد فيه النار ويقوم

بحاجيات امراته واولاده ومواشيه. ومن انبت الارض قمحاً وقطف اثمار الحقول . فان هذا الرجل يتطلب الطهارة ويقوم بما هو افضل من مئة ذبيحة بحسب سنة أهر امدزا. »ومن حادعن جادة القداسة فلا يعود اليها إلاّ بالتوبة وعمل المبرات

(٤) الحياة المستقبلة — كان يحرّم على الفارسي احراق جثة الميت او دفنها او طرحها في النهر لان ذلك من شأنه تدنيس ما يتعلق بالعبادة او اسبابها وهي النار والتراب والماء

وكانوا يتخلصون من الجثة على احدى هاتين الطريقتين دون ان يفسدوا شيئاً من نقاوة العناصر. إما بتغليف الجثة بالشمع قبل دفنها وإما بعرضها في الفضاء فريسة لطيور السماء ووحوش البر

وكانت النفس تذهب الى القضاء بعد ان تجاور الميت ثلاثة ايام. فيزن الجن اعمالها من صالحة وشريرة .

ثم تمر على جسر شنوات المعقود فوق الجحيم والمؤدي الى النعيم فاذا كانت اثيمة هبطت في الجحيم واذا كانت طاهرة استمرت في طريقها الى ان تبلغ النعيم دون عناء حيث ارصد لها اهر مدزا مقراً تستقر فيه حتى قيامة الاجساد . ويقول لها ملاكها « سقياً لكِ فقد انتقلتِ من الحياة الزائلة الى دار الخلود »

(٥) طائفة المجوس — كانت طائفة المجوس او الكهنة والسحرة معاً قبيلة من قبائل مادي الست . ولهيرودتس كلام في اصلهم وقد نفذت كلمتهم في بلاد فارس بعد قورش نفوذها في بلاد مادي فكانوا الوسطاء الذين لا مندحة عنهم بين الله والبشر . فلا يستطيع احد ان يقدم قرباناً او ان يأتي عملاً دينياً من دونهم

وكانوا يتردون بالاردية البيضاء الطويلة ويلبسون التيجان العالية ويقبضون في يدهم على حزمةٍ مقدسة من الطرفـاء فيصعدون بكل احتفال الى المذابح لتقديم

القرابين والضحايا وسكب السكائب وتلاوة الكلمات المقدسة . وكان المجوس يدعون احراز القوى الغير البشرية وتأويل الاحلام والعرافة والتكهن ومعرفة المستقبل .

(٢) الاخلاق والعوائد

كان الفرس لدن نشأتهم عائشين عيشة الزهد والجد ولكن ما لبث الماديون ان بثوا عوائدهم واخلاقهم بينهم فتقلدوا اسلحتهم وتردوا بارديتهم وجروا على عوائدهم من الترف والكسل ونستدل على ذلك من تفصيل هيرودتس للاسلاب التي وجدت في معسكر الفرس بعد وقعة بلاتس . فان الظافرين بهم وجدوا عدة جامات وكؤوس وغيرها من الآنية الذهبية والاسرَّة الموشاة بالذهب والفضة واساور وعقود ومناطق ذهبية ايضاً ولم يعبأوا بالالبسة المطرزة

وكانوا يحترمون الملك اي احترام وكل من دنا منه توجب عليه السجود بين يديه والمحافظة على الآداب الموضوعة في البلاط · ومن عادة الفرس الحرص على آداب المعاشرة واصول التمدن فيلتزم الواحد بازاء الاخر الآداب التي تنهى بالتزامها رتبته ومقامه

(٣) الفنون والصنائع

لم يعنَ الفرس بالعلوم وكانوا يؤثرون الاستعانة بالاجانب ولاسيما باليونان عند احتياجهم الى شيء منها وكان في بلاط الملك عدة اطباء ومهندسين يونانيين واستدعوا الصناع من مصر لبناء القصور الملكية في رسيبوليس وسوزا ومادي

ومع ذلك كانت تلك الابنية منسوخة عن الابنية الاجنبية اما مناعة البناء والنقش فقد اتقنوهما كما يتبين ذلك من اخربة برسيبوليس التي يقصدونها اليوم

فيشاهدون فيها آثار التفنن والبراعة ويتأكدون ان الفرس قد جمعوا في ما ابتنوه بين البهجة والفخامة

مختصر

كان الفرس والماديون يدينون بدين زورواستر وقاعدته التخاصم اي تنازع روحين الواحد صالح ويقال لهُ اهرامدزا والاخر شرير ويقال لهُ اهريمان ولكل منهما اعوان من الارواح الصالحة والشريرة · وعبادتهم او طقسهم متوقف على ايقاد النار وليس ابسط من ادابهم فانهم كانوا يعتقدون بالنعيم والجحيم وكان المجوس طائفة ذات نفوذ · وكان الفرس لدن نشأتهم قوماً اشداء غير ان اختلاطهم بالماديين ادَّى بهم الى الترف والتراخي ولم يعتنوا بالعلوم بل اتقنوا الفنون اتقاناً انفردوا به ·

فينيقيـــا

الفصل الاول

جغرافية فينيقيا — اصل الفينيقيين— مدنهم

١ جغرافية فينيقيا

ان فينيقيا هي ذلك الساحل الضيق الممتد غربي لبنان من ارواد شمالاً حتى الكرمل جنوباً. ويبلغ عرض هذا الساحل نحو عشرة فراسخ في طول خمسين يتصل بطرفيه سهلان وما بقي منه فانجاد وموانٍ وصخور داخلة في البحر تأمن فيها المراسي الصغيرة هياج البحر وقد غرست التلال والشعاب زيتوناً وكرماً وقمحاً وما نراه اليوم من ارداف لبنان اجرد وعراً كان من قبل كثير الغابات الظليلة من السنديان والصنوبر والوعر

والسرو والرتيج او الشوح والارز. واما النخل فكان كثيراً فيها حتى قام منه غابات على ساحل البحر. ومنه اخذت فينيقيا اسمها (لان فينيقيا لفظة يونانية معناها النخل) وليس في هذه البلاد انهار كبيرة بل نهيرات وجداول سريعة الجري كليونتس (الليطاني) وليقوس (نهر الكلب) وادونيس (نهر ابرهيم) كأنها تثب وثبة واحدة من لبنان الى البحر .

٢ اصل الفينيقيين

ان الفينيقيين كانوا قد حافظوا بنوع جلي على اصلهم. وقد جاء في تقليدهم انهم جاءوا من شواطئ بحر اريتري اي ضفاف خليج العجم . اذ كانوا يقطنون اولاً بجانب الكوشيين اخوانهم في المنشاء في شرقي بلاد العرب

وكانوا من ذرية حام وقبيلة من قبائل الكنعانيين

التي هاجرت في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح الى جنوبي سوريا الى الارض التي دعيت في مستقبل الايام باسمهم ارض كنعان · وعرف الفينيقيون بالكنعانيين البحريين ·

٣ المدن الفينيقية

اذا ابتدأنا بذكر مدن فينيقيا الواقعة في الشمال ذكرنا اولاً ارواد الواقعة في جزيرة معروفة حتى الآن بارواد ومحيطها ضيق جداً كان يحدها سورٌ يقوم من حولها بمثابة حصنٍ وسدٍ معاً · وكان اهلها يستقون من ماء يجري اليهم من ينبوع تحت البحر

ثانياً طرابلس التي بناها حديثاً سكان ارواد وصيدا وصور

ثالثاً جبيل التي سماها اليونان بيبلوس واقعة في سفح أكمة وهو موضع جميل جداً ومعنى اسمها مدفن

الاله لان فيها دفن ادونيس وكانوا يأتون زرافات من انحاء سوريا لزيارته

رابعاً باريت اي بيروت الآن التي اشتهرت بخطارة موقعها على البحر وتأويل اسمها آبار وصهاريج كانت ولم تزل حتى الآن عامرة وهي مقدمة طريق الشام بناها جبل او الاله ايل

خامساً صيدون المعروفة اليوم بصيدا وهي اقدم مدن فينيقيا عهداً . وكانت تلقب بام المدائن ووصفوها بالزاهرة لخصب السهل المحدق بها وجمال حدائقها وبساتينها الغناء التي تتفجر فيها الينابيع الغزيرة

سادساً تير مقابلة صيدا وكانت تسمى بلغة الكنعانيين صور اي (الصخرة) ولم تزل تدعى هكذا الى الآن . وكانت صور قديماً في جزيرة صغيرة يحتشد سكانها في منازل مؤلفة من ست الى ثماني طبقات وكان يحازي صور من جهة اليابسة مدينة اخرى، تعرف

بيالي تيراي أصور القديمة وهي من الاولى بمكان الضاحية ·

سابعاً وتضم الى المدائن التي ذكرنا مدينة اكو التي سماها اليونان بتوليمايس والمعروفة آلان بعكا· فهذه المدينة قد حالفت صيدون قديماً ودخلت في الاتحاد الفينيقي ·

وقد ذوت زهرة تلك المدائن وهوى عزّها فلم يبقَ بينها من عامرة الى بيروت وقد صارت سائر المدن الفينيقية منها بمنزلة القرى الحقيرة· ولو لم يبقَ في فرضة صور من تيجان الاعمدة القديمة بقية لمـا تبينت العين موقعها قديماً واما المرافئ فقد غشتها الرمال وقلت مياهها حتى انحجزت السفن الضخمة عنها وانحصرت الملاحة فيها بالزوارق والقوارب· واذا طلبنا الاثار فلا نجد منها ما هو خليق بالذكر وجل ما بقي من اثار ابنية الفينيقيين سد ارواد وصهاريجها وشيءٌ من اخربة هيكل

نعلة جبيل الكبرى (بلقيس) ومدافن صيدون

اما الصناعة فقد خلدت لها ذكراً اجل خطراً من آثار الابنية في ما بقي من المعاصر والحياض والصهاريج والمدافن المنحوتة في الصخر حرصاً على بقائها

٤ دهاء الفينيقيين

ان العادة بل الحاجة علمت الفينيقيين الملاحة وكانوا قد اقبلوا عليها اذ توطنوا ضفاف خليج العجم وانقطعوا اليها على شواطئ البحر المتوسط لانهم طلبوا الارتزاق من البحر لضيق الارض التي احتلوها وقلة خصبها . فشرعوا في اول امرهم بصيد الاسماك حتى اذا ألفوا النزول الى البحر امعنوا في الابحار الى الاماكن القاصية بقصد التجارة والرقاحة او السلب . ولم توهن عزائمهم ضعف المراكب التي كانت تقلهم ولا هالهم التنقل عليها من مكان الى آخر . ولا مراء ان الفينيقيين قد

فصلوا كل الشعوب القديمة باقدامهم على الحروب بحراً ·
ولم يكن لهم من دليل ومرشد الا الكواكب في توغلهم
في البحار المجهولة وانفردوا بالفضل في الابحار على هذة
الطريقة حتى اخترعت الحقة (البوصول)

— مختصر —

ان فينيقيا ساحل ضيق الى الجهة الغربية من لبنان
عرضه عشرة فراسخ وطوله خمسون واول من توطنه
قبائل الكنعانيين التي هجرت ضفاف خليج العجم نحو
القرن الخامس والعشرين قبل المسيح · واشهر مدائنها
ارواد وطرابلس وجبيل او بيبلوس وباريت وصيدون
وتير واكو وقد انحطت كلها الا باريت (بيروت) وقد
علمت الحاجة الفينيقيين الملاحة والتجارة ودلتهم السليقة
او البديهة على الرقاحة او القرصنة ·

الفصل الثاني

تاريخ فينيقيا

ملخص

ا — سؤدد صيدون (من ١٧٠٠ الى ١٢٠٩) التجارة في شرقي البحر المتوسط والارخبيل والبحر الاسود — التجارة في افريقيا وفي البحر الاحمر وعلى اليابسة — انحطاط صيدون وسقوطها ·

ب — سؤدد تير (صور) (من ١٢٠٩ الى ٩٠٠) التجارة في غربي البحر المتوسط وفي الاتلانطيك — مدينة تير ·

ج — تقهقر مستعمرات تير وخرابها — اسباب التقهقر — الثورات الداخلية — محاربة الاشوريين — مباراة اليونان والاتروسك وقرطجنة ·

د — فينيقيا منذ انقراض مستعمرات تير حتى الاسكندر الكبير (من ٦٥٠ الى ٣٣٢) التحالف على بختنصر (٥٨٩) سيادة مصر — سيادة الفرس — الثورة على ارتاكزرسس اوخس (٥٤٥) استيلاء الاسكندر الكبير على تير (٣٣٢) ·

لم يكن لفينيقيا من تاريخ بل ماينسب لها منه هو متضمن ذكر المدن الشهيرة باحداثها واثارها لان فينيقيا

لاتعد في جملة البلدان بل سلسلة مرافئ او موانٍ تتصل بها قرى ضيقة النطاق . وقد قامت في ارضها المدائن التي امتازت بالسؤدد كصيدون وتير ولكن لم تسد الواحدة منها على الاخرى . بل اضطرت لنكد طالعها ان تخضع لسلطة الاجنبي اذ كانت سوريا حومة وغىً تلتقي فيها العساكر لوقوعها بين شعبين عظيمين وهما الاشوري والمصري .

١ — سؤدد صيدون

ظلت صيدون عدة قرون في مقدمة مدائن الفينيقيين كما يخلق ببكر بنات كنعان . وقد قابل عهد سؤددها عهد الدول الفاتحة في مصر اي الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين فدخلت حينئذٍ كل فينيقيا في حوزة مصر وكان دخولها وسيلة لتقدمها وانتفاعها لان جهل المصريين التجارة والملاحة كان يضطرهم الى مصادقة الفينيقيين للظفر بما كانوا يحتاجون اليه بحراً

فصـــار هؤلاء وسطاء دولة مصر الواسعة الاطراف فعوضوا من الارباح التي احرزوها ما فقدوه من الاستقلال بالخضوع لها ·

تجارة صيدون في البحر المتوسط والارخبيل والبحر الاسود

لم يكن في ذلك العهد من دولة تباري فينيقيا في البحر المتوسط فمخرت سفنها في شرقي هذا البحر على حكم الهواء وجال فيه بحاروها دون معارض ولا منازع فاقتصروا على التجارة على سواحل اليونان وآسيا الصغرى تجنب استياء الاهلين · ولكن كانوا ينشئون المستعمرات في الجزر ويعززونها بالقوات فاحتلوا الجزيرتين العظيمتين قبرص واكريت الغنيتين الاولى بالنحاس والثانية بالارجوان ثم رودس وباروس وغيرها من جزر الارخبيل وامعنوا في الاستعمار حتى ازاء بلاد تراكي فاحتلوا تازوس حيث اخذوا باستثمار ما فيها من مناجم الذهب

وتمكن الصيدونيون في اسفارهم بحرًا من الوصول الى ابواب الالسبون فجازوا هذا المضيق وعبروا البوسفور في حين كانت الشعوب توهم ان الصخور السمبلفارية لا تبقي على من يقتحم خطر السفر في تلك الجهات الكثيرة المخاوف والمعاطب فازرت سفنهم الضعيفة بقواصف البونت اوكسين (البحر الاسود) وزوابعه وتقدمت على سواحل آسيا الصغرى حتى كواشيد في سفح جبل قاف حيث عثروا على الكنوز التي رمزت اليها الاساطير المختلقة بجزة الذهب وهي الارجوان والكهربا والقصدير اللازم لصناعتهم في عمل الصفر او الشبه والرصاص والذهب والفضة

فبينا كانت سرية من الاسطول الفينيقي تجد في اكتشاف البونت اوكسن (البحر الاسود) كانت سرية اخرى قد بلغت اكريت فانزلت عليها المتنزحين واحتلت قيثاره حيث وجد المتنزحون فيها كثيرًا من

الصدف الارجواني · وانتقل الفينيقيون منها الى الجزر الايونيانية فانبثوا فيها وفي ايليريا وايطاليا وقد جاء في الاساطير الملفقة ان قدموس الفينيقي قد ابتنى قدمه او قلعة ثيبة وسط بيوثيا

التجارة في افريقيا — لم يقف الفينيقيون عند استئثارهم بالتجارة في مصر وانشاء المحال والمحاط التجارية في الدلتا ومحلة برمتها في ممفيس بل قصدوا الساحل الافريقي وامعنوا فيه حتى تونس آلان فانشأوا لابتيس على ساحل سوريا الكبرى (طرابلس الغرب) وكماه حيث قامت في ما بعد قرطجنه · وكانت الجاليات الفينيقية تستثمر لمنفعة ام بلادهم ووطنهم جميع ما في افريقيا الغربية من الكنوز : كالحنطة والصوف وريش النعام واسنان الفيل والتبر التي كانت تكثر في اسواق صيدون

التجارة في البحر الاحمر — كان افتتاح الصيدونيين

للبحر الاحمر وحصر تجارته بهم من اجزل المنافع التي احرزوها في الخضوع لسلطة الفراعنة وكانوا يذهبون الى مرافئ بلاد العرب الجنوبية ليشحنوا من حواصل البلاد الخصبة البخور والمر وفضلاً عن ذلك كانوا ينقلون ايضاً من حواصل الهند التي كانت تلقى في عدن وقنا وحران كالحجارة الكريمة والمعادن والعطورات والعاج والاخشاب الثمينة

التجارة براً—وكانت تجارة صيدون واسعة جداً تمتد من سوريا حتى البلاد الواقعة على ضفاف الدجلة والفرات ومن فلسطين حتى بلاد العرب . وهكذا اصبحت تلك البلاد الضيقة النطاق محط رحال تجارة واسعة جداً .

في تقهقر صيدون وسقوطها — لم يقصر الصيدونيون سعيهم وهمهم على التجارة بل وجهوهما الى القرصنة وبئس العبرة لانها صارت مثالاً خطراً بل

مهنة من المهن التي اضرت بمخترعها او البادئ بها.

كان اليونان المقيمون في الشرق او الشعوب النازلة على سواحل اسيا الصغرى قد تعلموا بمخالطة الفينيقيين ومما لأتهم بناء السفائن التي كانوا يسمونها جواد البحر فقاموا لمحاربة الصيدونيين تنصلاً من سرقاتهم وما لبثوا ان تغلبوا عليهم فانتزعوا من ايديهم المحال التجارية التي انشأوها والجاليات التي بثوها في الارخبيل إلاّ القسم القليل منها الذي انقذه الصيدونيون بالتسامح والتساهل مع اهله.

فظلت صيدون تتجر بحرًا مع مزاحمة اليونان لها الى ان قام عليها شعب جديد من ذرية يافث ويقال انه خرج من اكريت فاقام بين فينيقيا ومصر ولعل هذا الشعب من الفلسطينيين فاستحوذ عليها وخربها ولجأ الذين نجوا من هذه النكبة الى تير ومنذ ذلك الحين اصبحت تير اقوى البلاد الفينيقية واعظمها صولة (١٢٠٩ ؛

ب — سؤدد تير

التجارة في حوض البحر المتوسط الغربي وفي الاتلانطيك

فاخذت تير من صيدون القليل من المستعمرات التي ابقى عليها اليونان في حوض البحر المتوسط الشرقي · وعمدت الى تعويض ما ندَّ عنها من تلك المستعمرات من الجهة الغربية · فاحتلت جالياتها وانبث المتزحون منها في صقلية ومالطه وساردينيا و كورسيكا والراجح انهم وصلوا الى ساحل بلاد الغول وجزر باليار ورأس افريقيا الشمالي الذي يقابل صقلية وحيث قامت اوتيك وهيبون وبالجملة انهم توطنوا الحوض الغربي من بحر الروم ·

وأمعنت سفائن تير في الابحار الى ان بلغت اعمدة هرقل او جبل طارق وما يليها بلاد ترشيش

(اسبانيا الغربية) وهي اخصب بلاد في العالم القديم وسهول كود الكيفير (المسماة قديماً باتيس) وكواديانا وكان يكثر في هذين الموضعين الاخرين الزيت والخمر والحبوب فتبلغ حواصلها مئة مثال ما يحصل منها عن سواها . وكانت انهارها تجري تبرًا وجبالها الظليلة تضم تحت اكنافها المعادن المختلفة كالذهب والفضة والقصدير والنحاس والحديد . وكان يكثر السمك في بحرها . وقد تجاوزت السفائن حدود جبل طارق واستولى الصوريون على بلاد ترشيش فانشا وا مدينة غادش المسماة اليوم قادس على جزيرة ضيقة النطاق مستطيلة الشكل جعلها مركزها البديع في مستقبل الايام قطة مركز المستعمرات الفينيقية في اسبانيا وابتنوا ايضاً كارثيجا وملاقا وابديرا .

وما زال الصوريون يتنقلون من موضع الى اخر ويمعنون في ابحارهم الي ان وقفوا عند بحر اعظم من بحر

الروم مدىً فدخلوه واستفرغوا ما فيه شمالاً وجنوباً ففي الشمال صعدوا الى اسبانيا ومنها الى بحر الغول حتى انتهوا الى جزر القصدير او قسيتاريد (المسماة اليوم سيلي على ساحل كورنويل في انكلترا) ومن الجنوب تعدوا سواحل السنيكال الى ان حطت سفنهم في الرأس الاخضر · لامرية ان صور كانت ام المدن التجارية في المعمور كله

مدينة تير (صور) لما ضاقت مدينة صور بمن كان يؤمها من السكان وسع نطاقها الملك حيرام حليف داود وسليمان

كانت تير من قبل تشمل عدة جزر يفصل بينها البحر والصخور التي يكثر وجودها على الساحل السوري فارتأى حيرام توسيع مساحة ارض صور التي قامت عليها العاصمة فردم الفسحة التي بين الجزيرة واليابسة فاتسعت بهذه الطريقة المدينة جنوباً بما انشأهُ لجهة

البحر من الارصفة المنيعة

ومع ذلك كان الموضع الذي نزل فيه السكان ضيقاً لا يستوعب اكثر من ثلاثين الى خمسة وثلاثين الفاً فامتدت مساحتها لجهة اليابسة وابتنى التجار المصايف في سفح لبنان ومنحدراته . واما القسم الواقع في البحر فكان خاصاً بمركز الحكومة لانه كان منفرداً يحدق بهِ خندق من كل جانب .

ج — تقهقر صور وانقراض مستعمراتها

اسباب التقهقر — ظلت مستعمرات صور عامرة مدة ثلاثة قرون . وكان بدء تقهقرها في اخر ايام ملك ايتوبعل والد ايزابل لتسعمائة سنة قبل المسيح وفي اواسط القرن السابع عمها الخراب .

ومن اجلِ الاسباب التي ادت بتلك المستعمرات او الجاليات الى التقهقر والدمار ثلثة اولاً — توالي

الثورات التي ضعضعت داخل المدينة · ثانياً ـ محاربة صور للملوك اشور وبابل · ثالثاً ـ ظهور اساطيل جديدة لليونان والاتروسك والقرطجانيين الذين باروا بها اساطيل فينيقيا

اولاً · ثورة صور ـ كان تنازع الاعيان والعامة المتواصل يذهب براحة المدينة · وقد تأصلت العداوة بين الفريقين حتى كانت طبيعية لان الاعيان كانوا يزعمون انهم من الالهة ويعجبون بما أُوتوا من الثروة التي تفاقمت بما احرزوه من المناجم وما ابتنوه من المحال التجارية وما انشأُوه من الجاليات في الاماكن البعيدة وتكاثر عدد العملة والصناع والملاحين في امرتهم · فما كان من العامة الا ان اضمروا الحقد وانتقموا من الاعيان بالتحامل على زعمائهم

وجاء في القصص ان حروب صور الداخلية كانت السبب في انهزام ديدون وبناء قرطجنه · وائتمرت

ديدون على قتل الملك اثثاراً لزوجها زيكا ربعل عظيم كهنة ملكارت او هرقل الذي فتك بهِ اخوه الحدث بيكماليوان

ولما انكشف أمرها استولت فجأة على اسطول كان قد تأهب للسفر فابحرت عليـــه مع مريديها قاصدة افريقيا . ونزلت بجوار كمباه وابتنت مدينة قرطجنه التي غلظ امرها في مستقبل الايام

ثانياً . الحروب — وتمكن الضعف من صور بما نشب بينها وبين اشور من الحروب . فعقيب ان قضي عليها بالخضوع للاشوريين كما قضي على صيدا بالخضوع للمصريين حاول احد ملوكها «الوب» نبذ الطاعة فحملت عليه اشور بخيلها ورجلها فانقطع في جزيرة صور عشر سنوات واًزرى اولاً بقوات سلمناصر الرابع ثم بسرجون ولكن ما لبث سنحاريب عام ٧٠٠ ان تغلب عليه وقهره واذل بلاده حتى سقوط نينوى (٦٢٥)

ثالثاً · مباراة الاتروسك واليونان وقرطجنه — ومما زاد هذه الحرب شراً ووبالاً هو انها حدثت في ابان ثورة الانداد والاعداء الالداء الاقوياء دفعة واحدة في عدة اماكن من سواحل بحر الروم فاعترضت اساطيل الاتروسك في سبيل تقدم الصوريين في ايطاليا و بلاد الغول بينا كانت اساطيل اليونان تمخر البحر قاصدة صقلية بعد ان خربت جاليات صيدا في الارخبيل وما انكفت عن الامعان في الابحار حتى احتلت شرقي الجزيرة وجنوبها وناهضت ايضاً قرطجنه ام بلادها وناصبتها شأن الاتروسك واليونان فلما رأى الفينيقيون المقيمون على ساحل صقلية واسبانيا وافريقيا من صور العجز عن صيانة مصالحهم وانضموا الى قرطجنه ومنذ ذالك الحين نابت مملكة قرطجنه في الغرب عن مملكة صور (٦٥٠) ومع ذلك لم تبرح تجارة هذه المملكة رائجة

د — فينيقيا منذ سقوط مستعمرات صور حتى الاسكندر الكبير

(٦٥٠ — ٣٣٢)

الاتفاق على بختنصر (٥٨٩) لما سقطت نينوى استرجعت فينيقيا حريتها ولكن لم تتمتع بها طويلاً لان الخطر كان يهددها من استفحال امر المملكة البابلية عهد بختنصر . ولم يكن لصور من وسيلة تدفع بها عنها ذلك الخطر وتناهض ملك بابل الا مصالحة صيدا ومسالمتها بعد انتعاشها فاتفقت المدينتان وعقدتا عهدة مع صدقيا ملك يهوذا وابرياس ملك مصر (٥٨٩) فكانت هذه المحالفة علة لخراب اورشليم عام ٥٨٨ ولحصار صور حصاراً شهيراً اذ مكثت في موقف المحصور ثلث عشرة سنة ومن الراجح انه لما مل بختنصر الملك محاصرتها طويلاً دون طائل اضطر الى اجراء عهدة السلم مع ايتو

بعل الثالث الذي كان يتولى الدفاع (٥٧٤)

سيادة مصر — لما حالف الفينيقيون الكلدانيين قام ابرياس ملك مصر وحليف فينيقيا القديم لمحاربتهم فوجه اساطيله بقيادة اليونان الى فينيقيا فدمرت اسطولاً من اساطيلهم كان يجري بامر بختنصر واستولت على صيدا واكرهت سائر المدن على التسليم دون قتال وهكذا قضي على فينيقيا ان تنجو من عدوٍ فتقع في يد عدوٍ الد منه • واستقرت سلطة مصر فى فينيقيا حتى قامت دولة الفرس

سيادة فارس — ان الفينيقيين ارتاحوا كل الارتياح الى سيادة قورش وكمبيز عليهم لانهما قد اباحا لهم استبقاء ملوكهم والقائمين في ادارة الشؤون العدلية • فساعدوا كمبيز على افتتاح مصر ولكن لما اراد الاستيلاء على قرطجنه احجموا عنه فخبطت اماله في الحملة على هذه المدينـــة •

ولما ولي داريوس امر بلاد فارس جعل فينيقيا ولاية من ولاياتها وكان الفينيقيون من اقوى انصاره على اليونان وعلى سفنهم شهد حروب مادي

عصيان فينيقيا كي خسرو او ارتكزرسس او كسركس الملقب باوقوس

لما اشتغلت بلاد فارس وارتبكت في اخماد ثورة مصر رأت فينيقيا انتهاز الفرصة لاسترجاع استقلالها وكان وقتئذٍ نكتانبو ملك مصر يقاتل قتال الابطال الموقنين بالفوز ذوداً عن حرية بلاده

فانتدى نواب المدن الفينيقية في طرابلس واختاروا تناس أمير صيدا رئيس قوادهم · فظفر هذا في الوقعة الاولى بالاعداء وكان ظفره عظيماً غير انه لما احس بقدوم ارتكزرسس اوقوس امتلكه الوهن وعمد الى صيانة حياته بالخيانة فاضطر الصيدونيون الى الاستسلام

كما يشا العدو و يشتهي

اما اوقوس فقد عاملهم بكل قساوة اذ أمر بذبح خمسمائة منهم كانوا قد اقبلوا اليه واغصان الزيتون في ايديهم بغية استعطافه على اخوانهم والرفق بمدينتهم فلما رأى الصيدونيون ما حل بوفدهم انحجزوا في بيوتهم والقوا فيها النار . وكان عدد الذين اكلتهم النار اربعين الفاً . فارتاعت على اثر ذلك كل مدن فينيقيا فبادرت الى اعلان خضوعها (٣٤٥)

استيلاء الاسكندر على صور — (٣٣٢) كانت صيدا قد نهضت حالاً بعد سقطتها ولما غشي الاسكندر فينيقيا فتحت لهُ ابوابها اما صور فناهضته فألقى عليها حصاراً شهيراً بمدته التي كانت سبعة اشهر و بالاعمال التي اكره الفاتح على القيام بها في خلال تلك المدة . ولما زايلها الاسكندر لم يبقَ منها إلاّ الاطلال . ثم اباح لها النهوض عام (٣٣٢) وراجت اسواق التجارة

والصناعة قروناً عديدة في صور وصيدا بعد نهضتهما وفي سائر مدن فينيقيا

— مختصر —

لما كانت السلطة الاجنبية قد تعاقبت على فينيقيا ولم يكن لهذه من وحدة سياسية انحصر تاريخها كله في صور وصيدا اللتين تراوحتا السؤدد دون سائر مدنها

كان السؤدد في بادىء الامر للصيدونيين وذلك لعهد الدول الفاتحة في مصر (١٨ و١٩ و٢٠) فاخضعتهم لنفوذها دون ان تلحق بهم ضرراً · وملأت صيدا بالمحال التجارية جزر الارخبيل وسواحل البحر الاسود واستأثرت بالتجارة في مصر فانشأت المستعمرات في طرابلس الغرب وتونس ووجهت سفنها الى سواحل بلاد العرب وتجارها الى بابل · وقد اوغر بحاروها الصدور عليها بانقطاعهم الى القرصنة والوقاحة دون

وازع من نفسهم نخرّب اليونان جميع جالياتها في الارخبيل واستولى عليها اخيرًا الفلسطينيون (١٢٠٩)

خلفت صور صيدا بالسؤدد فبثت الجاليات في الجزر الواقعة غربي بحر الروم واجتازت سفنها اعمدة هرقل (جبل طارق) فاستفرغت ما في بلاد ترشيش من الكنوز وعدّت الى الاتلانطيك فذهب قسم الى انكلترا والآخر الى السنكال. واستفحل امرها وعظمت ثروتها وضاقت صور البحرية باهلها. وكانت مدة جالياتها ثلثة قرون ثم دبّ اليها التقهقر نحو عام ٩٠٠ وكانت اسباب الانحطاط الجلّي ثلثة الثورات الداخلية التي كانت احداها مندوحة لانشاء قرطجنة . وعصيانها الاشوريين الذي كان السبب في استيلاء سنحاريب عليها عام ٧٠٠ واخيرًا مزاحمة اليونان والاتروسك وقرطجنه لها في البحر . وانقرضت مستعمراتها نحو عام ٦٥٠ وليس تجارتها

واسترجعت فينيقيا ما فقدته من الحرية لدن سقوط نينوى عام ٦٢٥ ولكي تدفع عنها اطماع بختنصر الملك حالفت صيدا التي كانت قد نهضت من سقطتها وكتبت عهداً مع صدقيا ملك يهوذا ومع ابرياس ملك مصر (٥٨٩) ولكن أُخذت اورشليم والتي الحصار على صور مدة ثلث عشرة سنة . ثم تعاقبت على فينيقيا سيادة مصر وبلاد فارس فعصت ولكن نالت جزاء عصيانها ولا سيما صيدا فان ارتكزرسس اوقوس قد عاقبها عقاباً شديداً (٣٤٥) وبعد حين استولى الاسكندر الكبير الظافر بالفرس على صور فخربها ومع ذلك لم تلبث ان نهضت في اسرع مدة (عام ٣٣٢)

الفصل الثالث

تمدن الفينيقيين

ملخص

التجارة — الصناعة — الزراعة — الديانة —
النفوذ في سائر انحاء المعمور

ما من شعب بلغ نفوذه في العالم القديم مبلغ نفوذ الشعب الفينيقي الصغير فانبثت في كل مكان تجارته وصناعته ودياناته وفنونه وفي كل مكان اثر منها لا يمحى

١ — التجارة

كفى بالقليل مما ذكرناه من تاريخ الفينيقيين دليلاً على اتساع تجارتهم ورواجها فلا حاجة الى استئناف الكلام في هذا الموضوع وحسبنا القول ان

حالة بلادهم كانت تدعوهم الى القيام بالمهمة التي قاموا بها . لان توسط اصحاب العجلات البحرية قديمًا بين الشرق والغرب كان يجعل بلادهم محطًا لرحال تجار البلادين ومن شاء الوقوف على احصاء السلع التي كانت تدخل مرافىء الفينيقيين فليراجع ذلك في نبذة حزقيال حيث يقول ان بابل اتَّجرت مع فينيقيا بالانسجة والحمر وارمينيا بالخيول وسوريا بالخمور والصوف والحمير وفلسطين بالزيت والخمر والباسم والصوف . ومصر بالحمر والبرديّ وترشيش بالاسماك

وكثرت وارداتها من المناجم فالنحاس من قبرس والذهب من اسيا الصغرى ومن تراكيا والحديد من جزر الارخبيل والفضة والرصاص من اسبانيا والقصدير من جبل قاف واسبانيا وقسيتاريد

وفضلاً عن ذلك تعددت وارداتها من العطارة والحجارة الكريمة وخشب الهند والعاج وريش النعام

وابنس افريقيا والبخور والطيوب واللؤلوء من بلاد العرب · والكهرباء من بحر بلطيك التي كانت تنقلها القوافل عن طريق جرمانيا الى سفن الفينيقيين · ووشي مصر ما عدا حواصل الصناعة الوطنية

٢ — الصناعة

لم يكن الفينيقيون تجاراً فقط بل اشتهروا ايضاً بالصناعة وكانت صور تصنع الانسجة المصبوغة بالارجوان وكانوا ياخذون الارجوان من صدف يأتون به من سواحل فينيقيا وجزيرة اكريت وصقلية والجزائر البريطانية · واشتهرت ايضاً بمصنوعاتها الزجاجية · وكانت قد اخذت هذه الصناعة عن المصريين الذين اتقنوها من لدن الدولة الرابعة · وراجت في انحاء المعمور آنية فينيقيا الخزفية والمصنوعات الخشبية من الارز وغيره من الخشب الثمين والحلي والصفر والعاج المنقوش

ويقال ان الفينيقيين قد اخذوا صناعة النقش والحفر والوسم والصياغة عن المصريين والاشوريين كما يستدل من مصنوعاتهم التي اشرك فيها بين الطرزين وبهذا الاشراك انفردوا في الفنون واغروا الناس على اقتنائها· وبعد حين نسج اليونان على منوالهم

٣ — الزراعة

كان معظم سكان فينيقيا المتوطن لبة المدن مكبًا على الملاحة والتجارة والصناعة ومع ذلك لم يهمل سكان الجبال والبراري الزراعة فانهم اتقنوها واجادوا استثمار ارضهم فلم يدعوا في الارض اخدودًا غامرًا بل زرعوا الحنطة والشعير والزيتون وكروم العنب والتين والرمان حتى اتصلت غراسها بشقوق الصخور · ولم تزل حتى الان شهرة خمر لبنان ذائعة في الافاق ولا يخفى ان فينيقيا هي البلاد التي حفظت في المعمور آثار صناعتها

الزراعية كالصهاريج والاقنية اوالاسراب والدنان المنحوتة في الصخر

٤ — الديانة

كانت ديانة الفينيقيين تحاكي ديانة بابل واشور فتجسم كل قوة من قوات الطبيعة وتجعلها معبوداً كالشمس والنجوم والنار والجبال والينابيع ومجاري المياه وكان يعلو كل هذه المعبودات ويسمو عليها البعل (بيل بابل) اي الرب والسيد · واشركوا بينه وبين النار اي الشمس واشركوا بين عشتاروت زوجة بعل والقمر · واما مولوك اي الملك فهو فهليس اي مرادف بعل

وكان لهم من دون بعل المعبود الاول معبودات عديدة لكل مدينة معبود خاص تغالي في تكريمه · فكانت عشتاروت معبود صيدا وملكارت معبود صور وبعليت او بلتيس زوجة بعل القديرة معبودة بيبلوس العظمى

التي كانت تشاطر ادونيس مرادف بعل ايضاً ما يأتيه سكان جبيل من ضروب التكريم والاجلال

وكان الفينيقيون يجمعون في عبادتهم وطقوسهم سفك الدم الى التهتك على طريقة سمجة جداً

فالمعبودات عندهم كانت تتقاضاهم ليس فقط تضحية الحيوانات على هيا كلها بل الانسان ايضاً فكانوا يضحون اولادهم تسكيناً لغضب معبودهم مولوك وكانوا يلقونهم امامه في النار المضطرمة مرتلين وضاربين بالمعازف اخفاء للنحيب وكانت تضطر الام ان تشهد هذا المشهد الفاجع وهي بحلة الاعياد والافراح دون ان تنبس بكلمة وكان الفينيقيون يدخلون هذه العبادة اياً اتجهوا وكانت جالاتهم تنقل معبوداتها من ذكور واناث على السفن عند ابحارها من فينيقيا ولذلك لم تكن الزهرة الهة اليونان واللاتين الا عشتاروت الهة صيدا وليس هرقل الا ملكارت معبود صور · وانشأ الفينيقيون

الهيا كل في السامرة واورشليم وممفيس وقبرس وقادس وقرطجنه وثيبه في بيوثيا واتيكا واكريت ومالطه حتى في بيتيولي المسماة اليوم بوزول في جوار نابولي

٥ — نفوذ الفينيقيين
العام

كان لبثّ المعبودات الفينيقية بين الشعوب تأثيرًا مضرًا ومع ذلك لاتنكر خدمة الفينيقيين للانسانية وما اتوه من الاسباب التي اتسع معها نطاق الحضارة والتمدن فعنهم اخذت الشعوب التي كانت عريقة في الهمجية الملاحة والتجارة والصناعة وبهم توصلت الى الفائدة عن هذه الاركان وعلى يدهم ذاعت وشاعت في اوروبا فنون مصر واشور وبابل فاستنار بها الدهاء اليوناني · وهم اي الفينيقيون الذين بثوا في المعمور حروف الهجاء التي لا ينكر اخذها عن الخطوط المصرية وهم الذين

علموا اليونان رصد الكواكب لارشاد السفن وقصارى القول ما من امة من الامم القديمة خدمت التمدن الحسي خدمة الفينيقيين لهُ ٠

مختصر

بعدت شهرت الفينيقيين بنشاطهم في التجارة والصناعة والزراعة ٠ واشتهروا ايضاً لنكد الطالع بديانتهم وعبادتهم ومعبوداتهم التي منها بعل (المسمى ايضاً مولوك وادونيس) والشمس عشتاروت (الزهرة) والقمر ملكارت وهرقل صور وكانت هذه المعبودات تتقاضاهم ليس فقط تقديم الضحايا وذبح الذبائح بل كانت تفرض عليهم اتيان الشين في طقوسهم ٠ ومع الضرر الذي نشأ عن تأثير هذه العبادة في اوربا لا ينكر على الفينيقيين ما افادوا به التمدن الحسي بالملاحة والتجارة والصناعة والفنون والحساب ورصد الكواكب ولا سيما بحروف الهجاء

الفصل الرابع

المعروف من المعمور عند القدماء

(نحو ٥٠٠ سنة ق٠م)

قسم القدماء المعمور ثلثة اقسام وهي: اسيا واوروبا وليبيا المسماة اليوم افريقيا

فآسيا كانت مهد الانسانية وليبيا نقطة عمران اقدم الممالك اما اوروبا فكانت في اول عهدها لخمسمائة سنة ق ٠ م ٠

اولاً ٠ آسيا — ان القدماء عرفوا معظم هذه البلاد ولم يفتهم منها الا جهات سيبيريا المتجمدة وما يلي نهر الكانج ٠ وقد شهدوا في بعض الانحاء التي عرفوها منها احداثاً شهيرة وطاف تجارهم في البعض الاخرى واستثمروها ٠ ولا حاجة الى تكرير الكلام في وصف سهول ما بين النهرين الخصبة حيث وجد الانسان جنة

عدن عند خروجه من يد خالقه وسمع ابرهيم صوت الله وقامت في مستقبل الحين الممالك العظيمة . وقد اشتهرت في ذلك الوقت سوريا واسيا الصغرى وارمينيا وبلاد العرب

وتوصلت ذرية يافث الى اكتشاف صرد ايران بالخروج عليها من صرد بامير وما لبثت ان وضعت اساس مملكتي مادي وفارس

وخرج قبيل اخر من تلك الناحية فدفع ابناء يافث اولاً الى حوض نهر الهند ثم الى حوض نهر الكانج واخيراً انبثوا في جميع انحاء الهند التي كثرت ثروتها واستفحل امرها بنشاط هذه القبائل وعزيمتها واقبالها على الصناعة . وكانت السفن تنقل ثروتها ماخرة بحر الاريتره الى خليج فارس اوالى خليج العرب

وكانت سفن الفينيقيين تأتي الى تلك المرافئ فتنقل السلع منها الى مصر ومن مملكة اسرائيل في عنفوان

سؤددها ٠

وكانت آسيا الشرقية عامرة ايضاً اذ اجتاز تجار الفرس والماديين بحراً الاوكسيس الذي كان يصب في بحر الخزر حتى انتهوا الى سفح جبال بالور او بامير ٠ و بلغوا براً الصين عن طريق برية قوبي وكانت الصين تسمى قديماً «ساريك» اي بلاد الحرير

وجالت قبائل السكيثيين الصحارى المجاورة بحر الخزر و بحيرة ارال وهبط قسم منها في القرن السابع على بلاد مادي وما بين النهرين فقرضها سياقصر واما القسم الذي مكث في اسيا فامعن في التقدم حتى احتل جنوبي روسيا حيث التقى به داريوس الفارسي ابن هيستاسب نحو عام ٥٠٨ وكان يفصل وقتئذ اسيا الغربية عن اوروبا نهر تنايس المسمى اليوم نهر الدون وكان النيل بين اوروبا وافريقيا

ثانياً ٠ افريقيا — لم يعرف القدماء من انحاء هذه

البلاد الا السواحل ولا بلغوا في رحلاتهم وتجولهم خط الاستواء

ولئن كان الفينيقيون قد طافوا حول افريقيا على عهد نكو (٦١٧—٦٠١) فإن طوافهم ذهب سدىً . ولم يتبينوا ايضاً جهات اوفير حيث نقلت اساطيلهم مع اساطيل سليمان الكنوز الشهيرة وبلغ الصوريون في ابحارهم في الاتلانطيك سواحل الراس الاخضر واما امير البحر هانون القرطجني فقد امعن في الابحار جنوباً حتى ادرك اقصى خليج غينيا

وجل ما عرفه القدماء من افريقيا سواحل الخليج العربي من السويس حتى رأس كواردافوي وسواحل البحر المتوسط وسواحل الاوقيانس من مضيق الاعمدة حتى خليج غينيا . واعرف الجهات الافريقية عندهم واشهرها وادي النيل الذي طافوا فيـه منذ القدم فاستثمروه حتى جبال الحبشة

واشهر القبائل الافريقية التي نزلت بعد المصريين على شواحل البحر المتوسط جالات صيدا اولاً وبعدها جالات صور فأنشأت كباه واوتيك وهيبون واخيراً قرطجنه . وانشأ ايضاً الصوريون المستعمرات والمهاجر على ساحل مراكش المحازي الاوقيانس وكانت تلك المهاجر سلسلة ممتدة من مضيق الاعمدة (جبل طارق) حتى السنكال

ثالثاً . اوروبا — لم يكن لشعوب افريقيا من المصريين تاريخ في عام ٥٠٠ ق.م . وكذلك لشعوب اوروبا لان القدماء لم يعرفوا منها قدر ما عرفوه من اقسام افريقيا في ذلك الحين فضلاً عن بلاد اليونان ولا نشأت فيها مملكة مذكورة

ان رومية كانت قد قامت في ذلك العهد ولكن ما كادت تزهو في ايام ملوكها وتزهر حتى ذوت وانبتت اسباب تقدمها بطرد تاركن . وكان يتنازع

ايطاليا عدة قبائل مجهولة وكانت الجالات والمحال التجارية التي انشأها الفينيقيون في جزر بحر الروم قد دخلت في حوزة قرطجنه ٠

وفي نحو عام ٦٠٠ ابتنى الفوقيون على ساحل الغول مدينة مرسيليا ٠ وكانت القوافل تأتي اليونان المقيمين فيها بالقصدير من بلاد كورنوبل على طرق غير معروفة حتى الان فيما ان قوافل اخرى كانت تجتاز جرمانيا حاملة الكهرباء الصفراء من سواحل البلطيك الى سواحل ليكوريا او الادرياتيك ٠ وكان القرطجنيون يستثمرون اسبانيا المعروفة من قبل عند الصوريين وقد توغل بحاروا قرطجنه في اسفارهم الى اقاسي المحيط فادركوا جزر بريطانيا لابتياع القصدير وسواحل جوتلندا لاستجلاب الكهرباء الصفراء

ان الذريتين اللتين كان لهما الشأن الاول في القدم هما ذريتا حام وسام اما ذرية يافث فقد كانت وقتئذٍ

مجهولة

اما الان فقد افضت اليها النوبة في القبض على زمام الحضارة والتمدن وقد كان الباعث على تقدمها ذلك الشعب الصغير الشعب اليوناني الذي كان محصوراً في ارض ضيقة النطاق · فبفضلهم نهضت اوروبا من حضيض الخمول الى ذروة المجد والسؤدد · فحافظت اوروبا ولم تزل محافظة الى الان على الصولجان الذي دفع اليها من اليونان واثمرت بذلك البركة التي استنزلها نوح على يافث حيث قال :

«ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً له» ..